

١٩٦٤

حوليات كلية الشريعة بجامعة عين شمس

١٩٦٤

العدد الرابع
يولية ١٩٦٤

مولية كاتبة البناء

رئيس التحرير : الدكتور عبد الحميد البدريني
سكرتير التحرير : الدكتور عبد العزيز طر

المحتويات

صفحة

- ٥ ثلاثية نجيب محفوظ : للسيد الدكتور ماهر حسن فهمي ، المدرس
بقسم اللغة العربية
- ١٤ تحديدات عربية للجمال : للسيد الدكتور أحمد كمال زكي ، المدرس
بقسم اللغة العربية
- ٢٩ القياس الخطيء وأثره في التطور اللغوي : للسيد الدكتور عبيد
العزیز مطر ، المدرس بقسم اللغة العربية
- ٤٢ الوهابية : عقيدة ودولة . للاستاذ الدكتور عبد الحميد البطريق
استاذ كرسي التاريخ الحديث ، ورئيس قسم التاريخ والجغرافيا
- ٦١ العرب والبحار : للاستاذة الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف ،
الاستاذة بقسم التاريخ
- ٩٥ الحضارات الافريقية وفكرة الانتشار الحضارى وطرقه في افريقيا
للسيدة الدكتورة كوثر عبد الرسول الاستاذة المساعدة
للجغرافيا بكلية البنات الاسلامية
- ١٤٧ المجوسية والمجوس : للسيد الدكتور علي حسنى الخربوطلى ،
المدرس بقسم التاريخ

1111

ثلاثية نجيب محفوظ

للدكتور ماهر حسن فهمي
المدرس بقسم اللغة العربية

جوهـر ثلاثية نجيب محفوظ يتركـز في حياة أسرة من الطبقة الوسطى، تنبـعها في ثلاثة أجيال متعاقبة . وقد كان في الواقع يصور مجتمعنا في ثلاث مراحل من حياته ، من خلال اختياره لهذا القطاع . وأصحاب الواقعية يشترطون أن تكون أحداث القصص من المستندات التاريخية^(١) . وفي الحقيقة ، لافـرق بين الواقعيين والطبيعيين إلا في المبدأ الذي تمسك به زولا في الانتهاء في القصص إلى نتائج أيدها العلم من قبل ،^(٢) خاصة علم الوراثة ، كما وضح في سلسلة قصص «زولا» الطبيعي عن أسرة «Rougon-Macquart»^(٣)

وقد عرض الدكتور لويس عوض في مقالين له لثلاثية نجيب محفوظ، وتتبع بعض مظاهر الوراثة في الشكل وفي الطبع ، تتبعاً دقيقاً رائعاً ، ينتهي به إلى قوله : «وهذا هو المقصود بالـحتمية العلمية في عرف أدباء المذهب الطبيعي ، أي حتمية الوراثة والبيئة . إن زواج عبد الجواد وهنية كزواج الأرانـب أو فيران المعمل ، ما كان ليـشمر غير ما أثمر ، ونتائج التجربة الفنية ، لا يمكن أن تختلف عن نتائج التجربة العلمية»^(٤) .

(١) الروايات الواقعية في القرن التاسع عشر لمحمد فلاب ص ٨٠ .

(٢) الأدب المقارن لفنيمي هلال ص ٣٩٤ .

(٣) راجع :

L'Epoque Réaliste et Naturaliste Par R. Dumesnil, P. 433

(٤) صفحة الأدب بالأهرام ١٩٦٢/٤/٢٧ .

كل هذا حق ، وهو يؤيد تأثير نجيب محفوظ بالمذهب الطبيعي في القصة ، ولكن تتمتع هذا الحق هو تأثير نجيب محفوظ بالمذهب الواقعي أيضاً تأثيراً واضحاً كبيراً ، على عكس ما انتهى إليه الناقد لويس عوض في إحدى مقالاته حين قال :

« وعندي أيضاً أن أكثر أشخاص (بين القصرين) و (قصر الشوق) و (السكرية) ليسوا بمجرد أشخاص عاديين سواء في طبقتهم أو في المحيط البشري الكبير ، فهم إذن ليسوا نتاجاً من نتاج الفن الواقعي » .

والكن يبدو أن نجيب محفوظ قد تنبه إلى أن اعتماده على المذهب الطبيعي وحده سوف يوقعه في مبدأ الجبرية الذي يؤخذ على أصحاب هذا المذهب ، بحيث يصبح الفرد آلة يحركها علم الوراثة ، ولا سبيل إلى أن يغير من واقعه الموروث . ومن هنا أخذ يزواج بين المذهب الطبيعي والمذهب الواقعي في ثلاثيته .

وبطل قصة « بين القصرين » هو السيد أحمد عبد الجواد ، وهو شخصية مهابة في بيته نسمعه يقول لزوجته : « أنا رجل ، الأمر الناهي ، لا أقبل على سلوكي أية ملاحظة وما عليك إلا الطاعة ، فإذرى أن تدفعيني إلى تأديبك » . بين القصرين ص ٩ .

وجلسه مع أبنائه على قصرها شديدة الوطأة عليهم بما فيها من تزمّت وصرامة من جانبهم ، ووقار ورهبة من جانبهم . فهل كان هذا الرجل — الذي عاش أول هذا القرن — شاذاً بين الرجال في وقته ؟ كلا بل هو صورة صادقة حية بما فيها من دقة شديدة ، لرجل أول القرن في مجتمعه . وإذا أردنا نصاً يثبت ذلك وجدناه عند « أحمد أمين » ، في مقالته « سلطة الآباء » ، حين يقول : « رحم الله زماناً كان الأب فيه الأمر الناهي ، والحاكم المطلق ، والملك غير المتوج ، ينادى فيتسابق من في البيت إلى ندائه ، ويشير بإشارته

أمر ، وطاعته غنم ، تحدثه الزوجة في خفر وحياء ، ويحدثه الابن في إكبار وإجلال ، من سوء الأدب أن يرفع إليه بصره أو يرد عليه قوله أو يراجعه في رأى ، أو يجادله في أمر . أما البنت فإذا حدثها لف الحياء رأسها وغض الخجل طرفها ، قليلة الكلام متحفظة الضحك ، خافضة الصوت . تتوهم أنها أخطأت في التافه من الأمر فيندى جبينها ، ويصبغ الخجل وجهها ، ^(١) .

ونستمر في قراءة « بين القصرين » فنجد « فهمى » الشاب يوسط أمه في أمر زواجه من « مريم » ، ونجد « عائشة » تضجى بمن تحب لأنها لا تجرؤ على أن تناقش أباهما في رأى وإن كان خاصا بزواجهما .

فإذا ما أعدنا النظر في مقالة « سلطة الآباء » سمعنا أحد أمين يقول :
« وإذا جاء حديث الزواج والزواج فألى أمها الحديث لا إلى أبيها ، وبالتلويح والتلميح لا بالتصريح ، والأمر إلى الأب فيما يقبل وفيما يرفض وفيما يفعل وفيما لا يفعل ... فإن أحس الابن حاجة ملحة إلى مال ، أو شعر بضرورة ملحة إلى أكثر مما أخذ ، لم يجرؤ أن يجابه بالطلب ، إنما يحاور ويداور ويلج ويرمز ، فإن أعياه الأمر وسط الأم لعلها تستطيع أن تعبر تعبيراً أوضح وأصرح ، وقل أن تنجح » ^(١) .

ولم يكن السيد أحمد عبد الجواد في حياته كلها صارماً متزمتاً ، ولكن حياته خارج البيت وعلى الأخص أمسياته . كانت دائماً مترعة باللذات ، تناقض أشد المناقضة حياته في منزله . « ولكنه كان يصدر في سلوكه عن طبيعته الخاصة بقلب طيب وسريرة نقية وإخلاص في كل ما يفعل ، فلم تعصف بصدره عواصف الحيرة وبات قري العين . وكان إيمانه عميقاً ، أجل كان إيماناً موروثاً لا دخل للاجتهاد فيه ، بيد أن رقة مشاعره ولطافة

وجدانه وإخلاصه أضفت عليه إحساساً رهيفاً سامياً نأى به عن أن يكون تقليداً أعمى ، أو طقوساً مبعثها الرغبة أو الرهبة فحسب ، وبالجملة كان أبرز ما يتميز به إيمانه بالحب الخصب النقي . بهذا الإيمان الخصب النقي أقبل يؤدى فرائض الله جميعاً ، من صلاة وصيام وزكاة في حب ويسر وسرور ، إلى سريرة صافية وقلب عامر بحب الناس ونفس تسخو بالمروءة والنجدة ، جعلت منه صديقاً عزيزاً يستدق القوم إلى الرى من منله العذب ، وبتلك الحيوية الفياضة المشبوبة فتح صدره لمسررات الحياة ولذائدها ، يهش للمأكل الفاخر ، ويطرب للشراب المعتق ، ويهيم بالوجه القسيم ، فينهل منها جميعاً في مرح وبهجة وولع ، غير مثقل الضمير بإحساس خطيئة أو وسواس قلق ، فهو يمارس حقاً منحه إياه الحياة ، وكأنما لا تعارض بين حق الحياة على قلبه وحق الله على ضميره ، فلم يشعر في ساعة من حياته بأنه بعيد عن الله أو عرضة لنقمته . أكان شخصين منفصلين في شخصية واحدة ؟ أم كان أعتقاده في السباحة الإلهية بحيث لا يصدق أنها تحرم مسرات حقاً ، وحتى في حالة تحريمها فهي حرية بأن تعفو عن المذنبين ما لم يؤذوا أحداً . بين القصرين ص ٥١ .

والواقع أن أحمد عبد الجواد في هذا التناقض كان كذلك صورة صادقة لإنسان هذه الفترة في مجتمعنا . مجتمع إسلامى شرقى بدأت تغزوه حضارة أوربية ، فلا بد أن يتردد الناس بين الحضارتين المتصارعتين بالنسبة للفكر وبالنسبة للحياة الاجتماعية أيضاً . فإلى جانب المعاهد الدينية وجدت المدارس الأجنبية ، وإلى جانب الجرائد العربية وجدت الجرائد الأوربية . وأهم من كل ذلك وجد من المثقفين من يريدون النهضة على أساس تراثنا وتقاليدنا ومن يريدونها غربية خالصة . وإلى جانب المساجد المنتشرة انتشرت الخمارات حتى تغلظت إلى أعماق الريف كما يحدثنا عبد الله النديم في «الاستاذ» و «التنكيك والتبكيك» وفتحت دور البغاء المرخصة من الحكومة . وكان قصر الخديو يقيم الحفلات الراقصة كل عام واتخذت الحرية وسيلة

للانكباب على اللذات . فبدأت الطبيعة الشرقية السمجة التي عاشت تستنشق دائماً عبق الدين ، بدأت تفتح نوافذها وتطل على دنيا الملذات فلا تملك زمام نفسها : يقول «لوثر وب ستودارد» في كتابه «حاضر العالم الإسلامى» : «أما الشرق فهو في كثير من مواضع الانقلاب يظفر في تحوله ، إذ أن ما يأخذه عنا ويقتبسه منا دفعة واحدة قد تقضت على تكامله عندنا الأجيال والقرون ، فكانت النتيجة أن غلبت صفة الطفرة لا صفة النشوء المترقى على تطور الشرق ، هذا التطور السياسى والاقتصادى والاجتماعى والدينى وغير ذلك . فاختلطت الجواهر بالأعراض ، وتناقضت البواطن والظواهر ، وبدت أمور وشئون بعضها قبل أوانه ، وبعضها الآخر بعد أوانه ، وفي مدة قليلة طفقت شقة التباين العقلى والخلقى تمتد وتوسع بين أبناء الجيل الواحد . . وربما قام الفرد على نفسه فقالت سجيته وسجيته وخلقه خلقه (١)» .

وهذا نفسه ما حدثنا عنه إبراهيم سلامه فيما أسماه «قانون المدينتين» (٢) والسيد أحمد عبد الجواد صورة لذلك الجيل المتناقض ، الذى يتحمس بلسانه للديمقراطية ولا يطبقها فى بيته ، ووطنيته وطنية سلبية فى أكثر الأحيان ، فهو قد قنع بالمشاركة الوجدانية دون الإقدام على عمل ما ، وقته خالص لحياته ، وللوطن عواطفه وماله كلها تبسر . فاللهو لا يغير ما بقلوب الرجال . وقد ثار سعد لإسعاد المصريين لا لتعذيبهم ، فلا خجل عند الحزن على نفيه من كأس تخفف الأحزان . بين القصرين ص ٤٠٣ .

هذه صورة واقعية للرجل العربى فى مصر بداية هذا القرن ، بما فى حياته من تناقض اجتماعى ، وبما فى نفسه من تناقض إنسانى . ولكن الجيل التالى كان أكثر تلاؤماً مع نفسه ، جيل «فهمى» الفتى النائر ، وجيل

(١) حاضر العالم الإسلامى ج ٢ ص ٥ .

(٢) تيارات أدبية بين الشرق والغرب ص ٢٣٧/١٤٧ .

« كمال ، الفتى الباكى الحزين . جيل « فهمى » الذى قام بثورة ١٩١٩ فأحس بكيانه الذى أضاعه الاستعمار من قبل ، وجيل كمال الذى أحس بخيبة الأمل بعد أن فشلت الثورة فى تحقيق أهدافها الوطنية العامة ، بعد أن بذلت كل أسرة ما بذلته أسرة « السيد أحمد عبد الجواد » التى قدمت ولدها فهمى قرباناً على مذبح الثورة .

وما من شك فى أن « كمال » هو بطل هذا الجيل فى حياة الأسرة ، وهو أيضاً بطل هذا الجيل فى حياة شعبنا التى اضطبغت بصبغة رومانتيكية بعد ثورة ١٩١٩ ، فانخذ موقفاً سلبياً شعاره المرارة والانتواء ، انعكس على كل اتجاهاته ^(١) .

أليس كمال هو الذى يقول عن نفسه : « وقد مل حتى طفح بالملل ، فتى يدرك قطاره محطة الموت ؟ » السكرية ٢٠٥ .

« سعيد من لا يفكر فى الانتحار أو يتمنى الموت » قصر الشوق ٣٧١

أليس هو الذى استعذب الألم مثلما استعذبه كل الرومانتيكيين حين قال :
« شعور واحد يلتقى فيه الألم باللذة كالفجر تلتقى عنده حاشية الليل بأهداب النهار » السكرية ٢٧٢ .

وإذا حولنا بصرنا عن هذا الفتى الرومانتيكى وجدنا الشاعر عبد الرحمن شكرى الذى عاش فى هذه الفترة يعبر عن الآلام التى أحاطت به من كل جانب فلا مفر له منها ، فيحدث عن رياض من الآلام وعن أزهار من الندم ، وعن اللذة الحزينة التى يجدها قاطفها وجانيها فيقول :

كم جنينا من أزاهير الألم زهرة سوداء من زهر الندم

(١) تطور الشعر العربى الحديث فى مصر ص ١٨٨ .

زهرة سوداء من زهر النقم فهي طيف من ممات قد ألم
هذه الأزهار سود كالقضاء في رياض من شقاء وعناء
ليس لي منها مفر أو نجاء فهي حولى في صباح ومساء^(١)

وهو يودع أحلامه حتى دون أن يحاول شيئاً ، يودع كل أحلامه
المركزة في صاحبته التي هي رمز لتلك الآمال ، ويصطدم بواقع الحياة
فلا يزداد إلا مرارة وبكاء وإمعاناً في الانطواء والأحلام . (إن أبواب
الحياة تغلق في وجهه وقد نبذ خارج أسوارها . ثم رآهما يتحولان عن
موقفهما ويتجهان نحوه ، ومرا به في سلام . وأتبعهما عينيه وهم بالسير
في أثرهما ولكنهن عدل عن ذلك فيما يشبه الضجر ، ولبت أمام معرض
اللعب ، ينظر ولا يرى شيئاً . ونظر صوبهما مرة أخرى كأنما ليلق عليها
نظرة الوداع ، وكانت تبعد دون توقف ، تحتفي تارة وراء المارة وتبدو
تارة ، ويرى منها جانب مرة ثم يرى جانب آخر ، وكان كل وتر من أوتار
قلبه يغمغم « وداعاً » . ونفذ إلى أعماقه شعور العذاب مصحوباً بأنغام
حزينة ليست بالجديدة ، فذكر بها حالاً مماثلة ماضية دبّت في أعماقه جارة
وراءها شتى ذكرياتهما المدغمة ، كأنها لحن غامض مثير لأجل الألم ، وهو
في الوقت نفسه لا يتخلو من لذة خفية مبهمه (السكرية ص ٢٧٢ .

ومن المهم أن نذكر أن « كمال » لم يتزوج ، وهو يحاول أن يبرر ذلك
بالتصرف أمام نفسه بأنه حب للحرية المطلقة وهروب من الأسر ، ولكن
الواقع أنه هروب كامل من الحياة ، لخيباته تنتهي وهو يلتمس مولياً ظهره
لواقعها ، مخلفاً وراءه جيلاً جديداً كان رد فعل لهيام سابقه في الخيال ،
فهام هو بحثاً عن الحقيقة . وهكذا نسمع « إبراهيم شوكت ، يقول « لباسين » :

« فمحن نربي ونوجه ونصح ولكن كل ولد يندمج في مكتبته ، وهي عالم مستقل عنا يرحمنا فيه أناس غرباء لاندرى عنهم شيئاً ، فما عسى أن تصنع ؟ »
السكرية ص ٣٢ .

إنه جيل مثقف مضطرب ، ولعل من السخرية المرة أن يكون في الأسرة الواحدة الوفدى والإخوانى والشيوعى ، بل في البيت الواحد يكون هناك اجتماعان ، أحدهما للمتعصبين لسيطرة الدين على الحياة ، والآخر لمن لا يؤمنون بالدين نفسه . ولم يعد من الهين على الآباء أن يأمرُوا ويأجروا ذلك الجيل المتوثب المضطرب فيستسلم دون نقاش . فمن الطبيعى أن نجد « السيد أحمد عبد الجواد » يستنكر استجابة « إبراهيم شوكت » لرغبة ولده الطالب ويوجهه . ومن الحق أن السيد عبد الجواد نفسه قد بدأ أسلوب حياته مع أبنائه يتغير بعد الثورة ، فهو يترك لولده « كمال » أن يحدد مستقبله حين يختار مدرسة المعلمين العليا ، التى لم يرض هو عنها ، وهو لا يملك إلا أن يناقش « ياسين » مناقشة منطقية في أمر زواجه من « مريم » .

ومن الطريف حقاً أن نجد الفارق بين تفكير جيلين في مسألة تتعلق بعصب المجتمع ، « حين تقول نعيمة بحمرة : — وددت لو أتممت تعليمى ، كل البنات يتعلنن اليوم كالعصبيان . فتقول أم حنفى باحتقار : — يتعلنن لأنهن لا يجدن العريس » . السكرية ص ٩ .

جيل جديد فى كل شىء ، نجده أيضاً مصوراً فى « سلطة الآباء » حين نقرأ :

« وقال الآباء لأبيهم : إننا مخلوقون لزمان غير زمانك ، فانضع لحكم الزمان ، وقد نشأنا فى زمن حرية فى الآراء ، وحرية فى الأعمال ، وحرية فى التصرف ، لا كما نشأت فى جو من الطاعة والقيود والأسر والتقاليد »

فحال أن يسع ثوبك الضيق أبداننا ، وتقاليديك العتيقة البالية نفوسنا ، .

وإذا كان « السيد أحمد عبد الجواد » هو بطل الجيل الأول و « كمال » هو بطل الجيل الثاني ، فمن الطبيعي ألا نجد بطلا للجيل الثالث . جيل مليء بالشجاعة وقوة الإرادة والرغبة في العمل ، وكأنما قد أتى ليكون كفارة عن سلبية وجود جيل مضى .

وإذا كان الجيل الأول قد هام باحثاً عن شهواته في أكثر الأحيان ، وإذا كان الجيل الثاني قد هام في أحلامه ، فإن الجيل الثالث كان هائماً يبحث عن بطل يجمع قواه المفرقة ليخلق منه قوة حقيقية ، فقد بدأت الأمور تبشر بتغيير شامل في المجتمع .

« هذه الوجوه الكالحة البائسة هي الشعب . . . وهذا الرجل المنوط به خلاص الإنسانية ينبغي أن يعى موقفه التاريخي حتى ينهض . . . إن موقفاً إنسانياً واحداً هو الذي جمعنا على اختلاف مشاربنا في هذا المكان . السكرية ص ٣٠٩ .

وإذا عرفنا أن الطبيعيين يكرهون أن يختموا قصصهم بمغزى لها ، وأن الواقعيين الاشتراكيين يختمون أن يثبت الكاتب في تصويره للشر دواعي الأمل في التخلص منه ^(١) ، أدركنا عمق التيار الواقعي الذي ينساب في ثلاثة نجيب محفوظ من أولها إلى نهايتها .

(١) الأدب المقارن لفتيمي هلال ص ٣٩٥/٣٩٧ .

مُحَدِّثَاتٌ عَرَبِيَّةٌ لِلْجَمَالِ

للدكتور أحمد كمال زكي
المدرس بقسم اللغة العربية

(١)

إذا سلمنا بوجود حضارة جاهلية - ويجب أن نسلم - فإننا لا نجاوبه فيها بأفكار أساسية عن طبيعة الخلق الأدبي . بل لا نعرف أن تلك الحضارة حددت معنى الجمال ، وإن تكن عرضت لظاهرة الخيال عرضاً لم يقف عنده الإغريق على رغم تقدمهم الفني .

على أن تداول العرب القدماء كلمة الخيال لم يعن قط أنهم كانوا يمتحنونه منزلة رفيعة ، بل ارتبط بوجود « الرئيات » أو الشياطين التي توحى للشعراء بما يقولون^(١) . وافترن كذلك بقصص الخرافة ، ثم لم يسلم من السب به بعض السجاعين الكهان .

ويبدو أن المصطلحات الفنية الخاصة بالأدب وبكل قضاياها أو أغلبها لم توضع إلا بعد الاتصال بأرسطو ، وكان ذلك بعد أن أرسيت نهائياً قواعد الحضارة الإسلامية مع بدايات القرن الثالث الهجري . وهنا يتكشف لنا أن الإغريق - وقد أهملوا الخيال - لم يعنوا أيضاً بالجمال كمصطلح وإنما عرفوه حين عرفوا كلا من الحق والخير .

هم فهموا الجميل كما فهمه العرب ، ولكن اعتدادهم بالعقل طرح بالجمال إلى المطلق والنسبي^(٢) . وظهر عند سقراط مرتبطاً بفكرة « الملائم » أحياناً

(١) في القرآن الكريم عارضا للشعراء « هل أنيكم على من تنزل الشياطين »

(٢) يقال إن سقراط كان أول من حاول أن يضع أسس علم الجمال ، فقد سأل هيباس قائلًا : ما الجمال ؟ فلما أجاب بأنه صفة تطلق على المرأة أو الذهب أو الفرس الخ . . . قال سقراط : أنا لا أسالك عن الأشياء التي يمكن أن تكون جميلة ، وإنما أسأل ما الجمال ! كان سقراط يسأل عن ماهية الجمال وليس عن ضروبه الجزئية ، ومع ذلك فلم يكن ما سأل عنه حاسماً في ثنتين الجمال .

و « النافع ، أحيانا أخرى فهو خير ، ثم ظهر عند أفلاطون في صورة « جمالات » جزئية متفرقة ترتقى إلى « مثال الجمال » ، أو « الجمال المطلق » دون ما بعد عمارآه أستاذه (١) . وحين جاء أرسطو أدرك أن أفلاطون يعجز عن فهم القيمة الجمالية فهما فنيا ، ويضفي عليها طابعا أخلاقيا بتقريره أن الجمال المطلق هو جمال الحق وجمال الخير ، ولما كان الشعراء يكذبون بتقولاتهم على الآلهة فقد حمل عليهم حملة شنيعة واشتدت حملته شناعة عندما قرر أنهم « يحاكون » المظاهر المتعددة لا المثال .

لاحظ أرسطو ذلك فحاول أن يعدل منه ، ولا سيما بالنسبة للشعراء ولكنه ظل مرتبطا بالنافع ، مع إضافة عنصر « اللذة » واستعمال كلمة *phantasia* مطلقة على نوعين من التصور : أحدهما جمع الانطباعات ، والثاني تنسيقها لخلق شيء آخر يشبه مايجرى في الحياة ، فتبدو من هنا أولى المحاولات لرصد « الخيال » كمقابل للواقع ، وإن يكن دونه مكانة .

هذا ما فهمه العرب ، وفهموا أيضاً - خطأ - أنه يعنى بالمحاكاة في الشعر إهدار قيمة الطاقة الخلاقة التي تميز الفن ، فوضعوا على ذلك نظريتهم في التقليد وفي عمود الشعر ، وفي غيرهما من أصول النقد .

لقد غاب عنهم مدلول كلمة *poieo* ومعناها *make* أى يعمل ، ومدلول كلمة *mimēomai* ومعناها *imitate* أى يحاكي (٢) ، ثم مدلول كلمة

(١) على الرغم من هذا وإثارته أيضا الجميل في ذاته مقترنا بالثال المطلق فمن العيب أن نبحث في الفلسفة الاقلاطونية عن منهج متكامل في علم الجمال كما يقول دنييس هويسمان في كتابه *L'Esthétique*

(٢) ومنها *mimesis* أى *imitation* وهى المحاكاة أو التقليد . والشعر عند أرسطو لا يقلد الطبيعة كما يتوهم بعضنا بل يقلد ما يتصوره الشاعر ، أى يصنع ما يتمثله خياله .

phantasia التي عرضنا لها منذ قليل ، ومن ثم لم يفهموا قوله « إن الخيال الخلاق هو جوهر الشعر » على أساس أن الشعر يبني بناء خياليا هو عبارة عن الاحتمالات لما في الطبيعة .

ومبدأ الخيال الخلاق الذي لم يحسن العرب فهمه ، وقع في شططه أكثر الأوروبيين ، وإن يكونوا أدركوا أن أرسطو في حديثه عن «اللذة» بمشاهدة المحاكيات إنما كان يحزر الفن من الأخلاقية التي تحدث عنها أفلاطون ومن قبله سقراط .

وعلى ذلك النحو كان تقبل العرب المسلمين لفكرة الجمال الأرسطية ، وقد رسخت هذه بما ذهب إليه من أن لغة الشعر ليست لغة التخاطب ، وللشاعر أن يخترع المجازات وضروب التمثيل في غير ابتذال ثم يضيف على النص ماشاء من الغرابة والزينة ، فإذا كذب فلسنا نهمه كما اتهمه أفلاطون ، ولكن نفترض أنه يصور الآلهة — أو الناس — كما يجب أن تكون^(١) .

ولقد اعتنق المسلمون هذه النظرية متماسكة الأطراف أو مفككة ، ولكن التباين — كما عرفه الغربيون — بين الفن لخدمة الدين والفن الدنيوي لم يكن واضحا على الإطلاق . ولم تكن ملحوظات الرسول عن الجمال^(٢) ، وبناء دور العبادة في تشكيل معمارى حسن ، ثم صنع بعض الأدوات الفنية لم يكن ذلك كله ليوضح اتجاه العرب الجمالى ، فإنهم ما فتئوا يحتاجون إلى من يدافع عن إحساسهم الفنى ضد الأخلاقيين منهم ، ثم وجد السكلاميون.

(١) فن الشعر ٦١ الى نهاية الفصل ٢٢ ، صفحة ٧١ الى نهاية الفصل ٢٥ ، ويورد في صفحة ٧٢ أن سوفوكليس كان يصور الناس كما ينبغي أن يكونوا بينما صورهم يوربيديس كما هم في الواقع ، وقد أصبحت هذه الموازنة مشهورة !

(٢) كان محمد عليه السلام يقرأ قوله تعالى في الإبل « ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون » وكان يقول « ان اللجميل يحب الجمال » واستمع الى الفناء ودق الدفوف في بيته !

يناقشون الحياة على أساس يمجّد العقل ويرفض الخيال الكذب ا حقا
ظهر بين الكلاميين أدباء كالنظام والجاحظ ، إلا أن هؤلاء كانوا يعتبرون
الجمال فضولا يضاف إلى الشكل ، والمعنى بعد مطروح في الطريق يعرفه
العامى والخاص .

وهكذا تبلورت النظرة على النحو التالى : شكل ومحتوى أو لفظ ومعنى
وهما جسم العمل الفنى ، ثم زينة تضاف إلى الشكل ما قدر الفنان عليها
وأصاب . وهذه الزينة كانت من التناسق الذهني بحيث ارتبطت بالترديد
الزخرفى والهندسى ، على ماظهر فى معمار العباسيين وغيرهم . وقدبلغ اهتمام
الفنانين بهذه الظاهرة الشكلية حدارفضوا معه أى تنوع داخلى ، ثم انطبع
هذا على شعرم يقويه إيمان عميق بالموروث الجاهلى ، فكانت النتيجة وضع
القواعد التى تتحكم فى التعبير الأدبى .

وعلى هذا يكون الجمال حتى هذه المرحلة من حياة العرب — وهى مرحلة
ما قبل العصور الوسطى — شىء ظاهرى ، قد تدخل القيم الدينية فى تقديره ،
وقد يقتضيه مبدأ « النفع » قدر ما يقتضيه مبدأ « اللذة » .

حقا ثار الأدباء على هذا التقنين بشورتهم على القديم فى القرنين الثانى
والثالث (حول التاسع الميلادى) غير أنهم لم يلبثوا أن فقدوا مكاسب هذه
الثورة . ووجد النقاد — كقدامة بن جعفر — الذين يهونون من قيمة
الابتكار القائم على الخيال ويجعلون الشعر علما^(١) له أقسامه ومقاييسه التى
يقاس بها الحسن والقبح أو الجودة والرداءة . والغريب أن هذه المحاولات
لم تعمل إلا قليلا على تعميق الشعور بالجمال ، ولكن وضعت القواعد
فى صورة « عمود الشعر » ونحوه . وكذا اتضح كيف أن الظاهرة الأدبية

(٢) فى وساطة الجرجانى صفحة ٢١ ان الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع
والرواية والدكاء ، ثم تكون العربية مادة له (ط . صبيح ١٩٢٥)

التي أهمل أصحابها الخيال الابتكاري واعتدوا بالعقل — قد ارتبطت بالصنعة ، فكان لابد لطائفة من النقاد أن تنمي فكرة « المطبوع والمتكلف » التي ظهرت في كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة .

وهذا الموقف المضطرب لا يظفر لنا فيه هل كان أساس الحسن الجمالي عند العرب يقوم على عناصر خارجية أم على عناصر شخصية ، ومن ثم تراوح الحكم النقدي بين الموضوعية والذاتية في بلبلة يكشف عنها الأمدى في الموازنة بين أبي تمام والبحترى ، فهو يجعل أساس الموازنة قواعد موضوعية يمكن التمس عليها ، واستعداداً شخصياً يحسن تطبيق تلك القواعد ، وبفضل أهل الحداثة بكل علم وصناعة من سواهم ممن نقصت قريحته وقلت دربته ،^(١)

ومعنى ذلك أن الحكم الجمالي كان مرتبطاً بالصنعة ، وهذه كانت شكلية ، وظلت كذلك حتى جاء عبد القاهر الجرجاني فقال في صراحة « إن هذا النظم الذي يتوآصفه البلغاء وتتفاضل مراتب البلاغة من أجله ، صفة يستعان عليها بالفكرة »^(٢) ولكنه يحرص — بناء على مذهبه في النظم — على ألا يفصل بين الشكل والمحتوى لأنه « لو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس ثم النطق بالالفاظ على حذوها ، لكان ينبغي ألا يختلف حال اثنين في العلم بحسن النظم أو غير الحسن فيه » .

على أن هذه النظرة لم تكن إلا فردة ، فقد ظلت سائدة فكرة الفصل بين اللفظ والمعنى ، واعتبر الجمال معهما زينة خارجية يظفر بها الأديب ، إذا هو تلاعب بالعباراة ، فأتى بسجعة وقدم أو آخر ، وشبه أو أحسن التعليل . أو أتى بالغريب وسائر أنواع المجاز كما يقول أرسطو . ثم كان

(١) الموازنة ٢٨٢ (ط . محمود توفيق)

(٢) دلائل الإعجاز ٤١ (ط . المنار سنة ١٣٣١)

التطور الجمالى لاشيء . فهو دائر فى حلقة مغلقة ، والإجادة ليست إلا تحسيناً أو تحويراً لما يتردد عند الأولين ومن لحق بهم .

وفى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) يظهر حازم القرطاجنى ليدخل فى وعى — وليس كما فعل قدامة — نظرية أرسطو البلاغية إلى البلاغة العربية . واختلف بذلك عن عبد القاهر الجرجانى والشهاب الخفاجى صاحب « سر الفصاحة » والسكاكى صاحب « مفتاح العلوم » وغيرهم ، وقرر أن الشعر يجب أن يعتمد على الخيال أو التخيل كما يقول ، فى حين تعتمد الخطابة على الإقناع . وكلاهما قد يستند إلى كذب ، ولكن بالتمويه والاستدراج تم استمالة المستمع إليه . وفى الشعر تكون المحاكاة تحسيناً للطبيعة ، ولهذا يحسن التشبيه الذى يجرى بمقدار ، ويرتبط بالتخيل أولاً وأخيراً . ويكون الحسن فيه إما أحسن مافى معناه وإما أحسن منه . وكذلك القبح قد يوجد أقبح منه ، ألا يوجد . فالحسن الذى لا أحسن منه والقبح الذى لا أقبح منه — ولا يوجد مساو لهما فى معنيهما — لا ينبغي أن تكون الأقوال فيهما صادقة فى الأولى والأكثر ، فإن محاكاته بما هو دونه تقصير به وليس هناك إلى ما يطمح به . فأما الحسن والقبح اللذان يوجد فى معناه ما هو أعظم منهما أو ما يساويهما ، فإن الأقاويل الشعرية ترد فيهما صادقة وكاذبة بحسب ما يعتمده الشاعر من اقتصاد فى الوصف أو مبالغة ^(١) .

وخلاصة موقفه الجمالى لم يقربه من قرنائه العرب ، فهو لأول مرة يرى أن « الاعتبار فى الشعر إنما هو التخيل » ، ويختلف عنهم من ناحية ثانية هى فى تقبله الكذب ، وإن يكن لا يجعل الأقاويل الشعرية كلها كاذبة ^(٢) .

(١) من كتاب منهج البلغاء نشرته المعارف ضمن «ألى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين»

ص ١٠١ ، ٩٨ ، ٩٩

(٢) المصدر نفسه ١٠٧

غير أنه يجعل لقضية « الخير » محوراً في بحثه ، وذلك حين يدعو إلى أن يتفهم الشاعر المواطن التي لا يليق بها إلا الصدق وهي « مناصحة ذوى النصفى »^(١) .

ومثل هذا التطور نلقاه في أوروبا طوال العصور الوسطى ، فالخيال ينشط ولكن حيث يكون الخير محك كل شيء . ذلك أن المجتمع البشرى ولا سيما في أوروبا كان يخضع للسيطرة الدينية المطلقة ، وفي ظل هذه السيطرة كان الفكر الجمالي مقيداً بما قيده به العرب تقريباً . بل ربما كان اصطناع العرب الغرابة والإتيان بالعجيب والنادر واصطناع الخسنات البديعية قد برز عند الغربيين بروز مشكلة « الشكل والمحتوى » أيضاً ، بل إن الصور والمجازات التي توصل إليها العرب ومعهم الفرس بعد ذلك « تكاد تكون في كثير من الأحوال هي عين الصور والمجازات التي أوجدها الأدباء الأوروبيون في القرن السابع عشر »^(٢) .

وكما كنا نرى القاعدة العربية التي تقرر أن الجمال « شيء زائد يوشى به الكلام كما يوشى الثوب بالتطريز » نرى ايسيدور يقول في تلك الآونة : الجمال شيء يضيفه المرء إلى الأبنية بغية التزين والآبهة . ومن هنا ظلت الفلسفة الجمالية — على نحو ما خطط لها حكماء اليونان — أحد وجوه الحق والخير ، وترتبط بمبدأ اللذة ومبدأ المنفعة « يجب على التمثال أن يذكر الناس دائماً بالخالق ومريم واليسوع » .

(٢)

إلى هنا ينتهى دور العرب تماماً في التأثير في أوروبا عن فلسفة الجمال ،

(٢) نفسه ١١ . وقديماً كنا نسمع الاصمعي يقول : الشعر نكد بابه الشر ، فلا دخل في الخير لأن !

(١) دراسات في الأدب العربي ، ١٤ لجرونيانوم . (ط . بيروت)

ولم تكن الإستايطيقا قد ظهرت بعد كعلم خاص بالمعرفة التي تكتسب بالإدراك الحسى . وكان لابد أن تغال مع ما يقابل الجمال من قبح في تهويمات اللاهوت والميتافيزيقا ، حتى يقيض لها فلاسفة القرن الثامن عشر وأدباؤه كشوبنهاور وشيلر وجوته . فيهنونها ، ويقومون بغربلتها ، ويرون أن تخطيطها القائم على الانسجام والتنسيق ودقة الإيقاع لم يعد وافيا . بل ترددوا في الإبقاء على قيمها الأخلاقية والميتافيزيقية ، ثم كان لمناقشة نظرية القبح كامتدادات لجماليات الفن أثر كبير في الفصل بين الفن والجمال . وبهتاك هذا الستار ، لم يعد ما يمنع اتجاهات القرن العشرين التقدمية من أن تطل بيسر وسهولة .

على أن الطريق لم يكن ممهداً دائماً ، فبين النصف الثاني من القرن الثامن عشر والقرن العشرين ترددت الإستايطيقا بين أن تكون الحدس أى البصيرة كما يقول فريق ، أو أن تكون العلم الذى يتضمن معارف النشاط الفنى الخاصة كما يقول فريق ثان ، أو أن تكون كشفا عن الخصائص النوعية للفن الجميل كما يقول فريق ثالث ، أو أن تكون على نحو هذا كله وما يجرى مجراه .

وفى تلك الآونة نرى الثورة الفرنسية أو آراء جان جاك روسو بصفة خاصة تعمل عملها فى تضمين الإستايطيقا صفة الحسامة *sensibilité* ومنه تعلم الرومانسيون كيف يستمنون بقواعد الكلاسيكية التي تربطهم بالإغريق واللاتين ، ثم تبلورت الحركة الرومانسية فى الاستغناء عن الجانب النفعى ما كان إلى ذلك من سبيل .

ونستطيع أن نلمح فى آثار الرومانسيين الأدبية كل ما هو مرتبط بالطبيعة ، وكل ما هو متطرف وحاد وغامض بلا غاية . ونرى مثله فى أعمال جريكو وديلاكروا التصويرية ، حيث رسم الأول حطام المبدوزا وهو اسم

الوحش الخرافى^(١) الذى خلعه على سفينة فرنسية كانت ذاهبة لغزو شمالى أفريقيا ، ورسم الثانى « الحرية تقود الشعب » بما فى المشهد من حدة ودم ، وقد حدد الاثنان جماليات الرومانسية تحديداً قائماً على الإحساس المباشر بالانفعال المتحمس .

ثم انتقل الفن إلى الواقعية فاستبعدت الجوانب الذاتية منه وأحلت محلها التسجيلات الموضوعية ، ثم ربطت نفسها بالوظيفة الاجتماعية للفن . ولكن الأمر لم يكن بهذه البساطة تماماً ، فقد عقد نقاد الأدب — ومنهم الأخلاقيون — مجادلات حول التعارض بين جمال الشكل وصدق القانون الأخلاقى . وكانوا قد انتهوا إلى أن الشكل يقترن به الإمتاع فقط ، وهذه هى القاعدة التى يركز إليها أصحاب نظرية الفن للفن ، فى حين بق فريق آخر يدعو إلى أن يكون الفن (نافعاً) أو (مفيداً) . وهكذا اضطرب العصر الفيكتورى بين المذهبين ، وأصبح الدارس يجد نفسه فى الدوامه نفسها التى عصفت بالإغريق واللاتين جميعاً .

وكان معنى ذلك أن البحث فى الأدب باصطلاح الشكل التعبيرى على مايقول أصحاب الفن للفن ، واصطلاح الشكل العضوى الذى يستهدف الإفادة عن طريق الفكرة الحيوية . . كان معنى ذلك أن البحث فى الأدب يدفع إلى سلسلة من المتناقضات ، ولا يضع أيدنا على حقيقة ماذهب إليه المدارس الأدبية فى تصارعها واختلافاتها .

إلا أن هنرى جيمس القاص الأمريكى يرى منذ عهد مبكر — يرجع إلى ماحول سبعينات القرن الثامن عشر — أن خلاق النقاد للتضاد بين الواقع والحقيقى أو بين الجبيل والنافع لا يعدو أن يكون فهماً خطأ للعمل الأدبى كله .

(١) فى الأساطير أن كل من كان يقع عليه بصره يتحجر .

لقد قرأ جورج إليوت ، وبلزاك ، وتورجنيف ، وفلوبير ، وألفونس دوديه وغيرهم . ثم انتهى من قراءته -- على ما سجل في نقوده المختلفة -- إلى أن الحس بالحياة هو نقطة البداية لخلق الفنان الكبير ، وأن الاعتماد على تذوقه وتعلقه هو الذى يصهر مادة الأدب -- يريد القصة بالذات -- ويصهر فيها حقيقة الأخلاق دون أن يفتن إلى مهارته أحد ، ومن ثم لانضاد بين العمل الأدبي الجميل المحكم وبين أن يقصد نفعاً !

وفى الشعر كانت البلبلة نفسها ، ولكنه فى الإجمال فقد بعض سحره إزاء نهضة الرواية فى القرن التاسع عشر . وكان انتقال الجانب القصصى منه -- على ما يظهر فى الملاحم -- إلى القصة عاملاً آخر فى تأخر درجته . وقد خضع فيما يبدو وراء آراء أفلاطون وأرسطو لسلطان هوراس الشاعر الذى عاش فى القرن الأول قبل الميلاد ، وكان هذا يقول : غاية الشعراء أما الإفادة أو الامتاع أو إثارة اللذة وشرح عبر الحياة فى آن واحد (١) .

ويكون بذلك قد أثبت للشعر قِيماً ثلاثاً : الأولى تعليمية ، والثانية جمالية ، والثالثة تعليمية جمالية . ولم يكن بعد ذلك أى عجب فى أن ينحو الفكر الغربى فى العصور الوسطى إلى التوحيد بين الشعر والدين فى ضوء القيمة الثالثة ، ثم يستكشف به الشعراء جماليات النفس عن طريق الإمتاع فقط ، ويصل الأمر بالرومانسيين إلى أن يعتبروه إفرازا تلقائياً يستهدف الجمال فقط .

ولكن ثمة شعراء من هؤلاء كشلى يقدمون الفائدة ، ويأتى بيتس ليقرر أن الجمال الشعرى الحقيقى هو أن يحدث باسم الإنسانية لا باسم الوطن فقط . ثم يختلف الشعراء بعد ذلك بين أن يجعلوا الجمال شيئاً خاصاً بالشكل ،

(١) فن الشعر ٨٨ ترجمة لويس عوض (ط . النهضة المصرية سنة ١٩٤٧) .

أو جزءاً من الموضوع . وقد انتهى النقاد تقريباً إلى أن الشعر - مهما يكن لونه - يصدر عن جبرية تكمن في اللاوعى ، وعن تنظيم واع يتدرب عليه ، والجمال من ثم معرفة حسية تحدد العلاقة بين الفهم الشعري والمظاهر الحضارية من صناعة ودين وعلم .

وهكذا يلتوى بنا الأمر في تقصى إستاطيقا الأدب ، فلا عجب أن يقول أنا قول فرانس بعد هذا إن علم الجمال لا يمكن أن يقف على أساس متين ! كان هذا قرب نهاية القرن التاسع عشر وكانت الحياة الأدبية كلها في الغرب وفي الشرق العربي تقرر - رغم كل ما قدمه الجماليون - أنه ليس ثمة قواعد في الإستاطيقا يجمع على التسليم بها كثيرون .

(٣)

وفي القرن العشرين ارتبط الجمال بالمضمون ، وكانت نظرية التحام الشكل بالمحتوى ، التحاماً عضوياً قد استقر عليها أغلب الأدباء . وكان من السهل على أى أديب ابتداء من دوستوفسكى حتى هنرى ميلر ، ومن لبسن حتى صمويل بيكيت ، ومن إليوت حتى أودن^(١) أن يحطم شكليات العمل الأدبي باعتبار أن هدفه الجمالى هو أن يفكر ويشعر ويؤثر بلا قيود ، ذلك أن قضايا إنسان هذا القرن لا يتسع لها الشكل التقليدى للعمل الأدبي .

إذن فقد انهار الشكل الجميل وبرز المضمون ، وعن طريق موقف الأديب يحس الناقد أنه يعبر فقط . . يرسم يوطوبياه . . يحدد معنى أن يعيش كما ينبغي أن يعيش ، وهذه هى الجمالية الجديدة !

(١) فى سنة ١٩٥٠ أصدر « نكرات » Nones وقد تخلص من الشكلية المحكمة ومن أخطار الأسلوب النطق .

نعم قد نجد بول فاليري — وهو أحد شيوخ المحدثين — يصرح بأنه لا يكاد ينظم أية قصيدة حتى يحس كأنه أمام مشكلة هندسية (١). وقد نجد مايا كوفسكي ، وسومرست موم ، وألبرت مورافيا ودرنمات وفروست ، إلا أن هؤلاء بقايا الجيل العظيم الذي يعنى بالتكنيك ويرفض إهدار الجمال الشكلي في سبيل إبراز المضمون .

وفي الشرق العربي يتقبل الأدباء هذه القفزات بحذر في أول الأمر ، فنجد أدباء الريادة يصطنعون الأناقة الشكلية ، بل قد يهدرون قيمة المحتوى في سبيل تحسينات الأسلوب . غير أن الحرب العالمية الثانية لاتكاد تنتهى حتى يفتتحوا على الاتجاهات الحديثة في الرسم والموسيقى والأدب ، بل لعل ما أصاب الحياة العربية نفسها من هزات قد أذن للأدب أن ينحرف عن اتجاهاته التقليدية .

فقد تحرر الفنان العربي من أسر الإقطاع والمستبدين ، ولكنه قبل بأزمة العصر المتنشية ، وراح يعيش الصراع الذي عصف بأغلب قيمه ومنها قيم الجمال التي لم تعد ترتبط بظواهر الأشكال . وفضلا عن ذلك فقد تعمق أبحاث برجسون فيما يتعلق بالإدراك الغريزي ، وتكشفت له نظريات جديدة في الطاقة بعد نسبية أينشتاين ، وشاهد غزو الفضاء ، وأدرك بحسده أنه يعيش تجارب ذات عمق جديد وإيقاع فريد !

لهذا كله اندفعت عجلة الأدب اندفاعاً عنيفة ، وإذا الشعر يتخلص من شكلية الخليل وتقنيته ، ويستعين بالأساطير كقيمة تعبيرية لها مدلولاتها

(٢) من رأى هذا الشاعر أن علم الجمال القديم والتقليدى قائم على أصول جدلية بحثه (راجع كتابه « الخلق الفنى وثمالات فى الفن » وهو مناقشات مع أقطاب الأدب والفن . ترجمة بديع الكسم - منشورات الرواد بنعشق)

الجمالية الخاصة ، وبطالب بالموقف الذى ينبع عن فلسفة متمثلة لامقومات مهوشة .

ومن أبرز شعراء المضمون - وهم أصحاب الشعر المرسل الذى يهاجمه بقايا شيوخ العصر - بدر السياب وصلاح عبد الصبور وخليل حاوى ورفيق خورى وخليل الخورى وعبد المعطى حجازى وكاظم جواد والبياتى وأدونيس (على أحمد سعيد) ويوسف الخال .

أما الأمر فى القصة فدون ذلك ، وباستثناء نجيب محفوظ فى أعماله الأربعة الأخيرة^(١) لم يظهر سوى سهيل إدريس وغسان كنفانى^(٢) . وهذا نفسه أحد عشاق الوجدية ويحتذيه فى رصانة ، وقد جاءت روايته « أصابعنا التى تحترق » صورة جديدة تشبه « الماندرين » التى كتبها سيمون دى بوفوار .

فما عدا هؤلاء الثلاثة تقريبا لا نرى واحداً ككافى يكتب مثل « السقطه » ولا واحداً كهترى ميلر يرفض أن « يتمتع » القارئ أو « يفيد » . بل ربما صارحه بأنه لا يريد إلا أن يشير اشمزازه !

ومع ذلك فثمة جمال فيما يكتبون ، والجمال ليس فى الشكل وإنما هو فى المضمون ، وفى أعماقه التى يكشفها بتلقائية وسماحة .

وأما فى المسرحية فيبرز توفيق الحكيم . . ربما عن أصالة ، وربما عن تقليد ، غير أن روح العصر تشفع له فى التخلص من تكنيكيات الدراما الموروثة ، فهو يكتب « يا طالع الشجرة » ويكتب « رحلة صيد » و « رحلة

(١) أولاد حارتنا ، اللص والكلاب ، السمان والغريف ، الطريق .

(٢) الأول قاص لبنانى محدث متأثر بالوجدية ، ويعتبر من رواد « اللاقصة » فى الادب العربى المعاصر . والثانى له « رجال فى الشمس » يخرج بها على التكنيك القديم .

قطار ، فإذا هي شيء يقترب أحياناً مما يكتبه بيكيت ويونسكو ، وإذا بعضها يوشك أن يكون قصة قصيرة لها الإطار الدرامي الغريب .

والجمال بعد ليس في الشكل ، ولكننا نجده في ذهنيات الحكيم ، أو في المسائل الحياتية التي يثيرها . غير أني لست أدرى من سواء يكتب الدراما على هذا النحو الجديد ، ولكنها من غير شك لو أخذت بمقاييس الإستاطيقا التقليدية لباءت بالفشل !

(٤)

وبعد . . فهل نحن بحاجة إلى أن نعيد القول في الأسس الجمالية لأدبنا؟ لقد فصلنا القول فيها قبل أن تظهر الآداب العالمية وبيننا علاقتها بالسيكولوجية الأرسطية ، وحددنا النقط التي التقي عندها العرب والغربيون جميعاً . كما شرحنا القيم أو موازين النقد من خلال المعتقدات الجمالية التي سادت مختلف العصور ، وانهينا — عندما انقطع العرب عن دور القيادة — إلى أن آراء روسو قد دفعت بعجلة الفنون إلى أمام ، ولكنها لم تستطع أن تبعد الفنانين عن آراء الإغريق واللاتين في الجمال .

على أن تحول الكون من ثباته إلى ديناميته الدائمة ، واضطرار إنسان القرن العشرين إلى أن يعيد النظر في موقفه الفكري على أساس هذا الطارئ ، وتحول اتجاهات العلم بحيث تجعل الإنسان خالقاً . . كل أولئك عمل على أن يكيف جمالية العصر بأسلوب يبعد عن أسلوب القدماء ، وكان من أبرز سمات تلك الجمالية تغيير الإيقاع وتحطيم للشكل الأدبي المألوف .

وقد استطاع الفنان العربي الذي فاته قطار التطور خلال عصور الانحطاط أن يستعيد في القرن العشرين — قدرته على الخلق الأدبي بنفس

طاقات العصر ، وبحيث يجد الناقد سهولة في أخذه بإستاطيقيات المضمون ،
ومن ثم نرانا مضطرين إلى أن نختم العرض بهذه المقالة التي تبدو محزنة :
إن إستاطيقتنا اليوم لم يعد لها إلا بعض ملامح هزيلة للفهم العربي للإستاطيقا ،
وأما روحها وأكثر أطرافها فستورد من الغرب ، وليس هذا يدل على
إفلاس ما ولكنه يدل على أننا نعيش عصر التلاحم الفكرى والفنى جميعاً !

القياس الخاطئ وأثره في النظر اللغوي

الدكتور عبد العزيز مطر
مدرس " قسم اللغة " ،
قسم اللغة العربية

القياس اللغوي هو رد الشيء إلى نظيره^(١) . وهذا الذي يرد إلى نظيره . يكون جديدا بالنسبة إلى المتكلم لم يسمعه من قبل ، أما النظير الذي رد إليه اللفظ الجديد فهو معروف للمتكلم ، سمعه من قبل . والمرء يلجأ إلى هذا القياس في لغته منذ الطفولة ، ويظل يستعمله في كل ما لم يرد على لسانه من قبل . وهذا أمر ضروري ، فليس كل كلام إعادة لكلمات سابقة فقط ، بل هو في نفس الوقت إنشاء لنطق جديد ، لأنه لا يمكن لموقف من المواقف أودافع من الدوافع . أن يكون كالموقف أو الدافع السابق في كل تفاصيله^(٢) .

والمتكلم — مع استخدامه القياس في تنمية لغته — لا يعتمد القياس في كل حال بل يتم غالباً دون وعي منه . ولهذا نرى المتكلم والسامع لا يشعران بهذه العملية إلا إذا تبين لأحدهما أو كليهما أن هذا القياس مخالف لما تعارف عليه أهل اللغة ، وجرى في كلامهم . ومعنى ذلك أن القياس نوعان :

١ — قياس صحيح .

٢ — قياس خاطئ^(٣) .

(١) المعجم الوسيط : ٧٧٥/٢ .

(٢) اللغة بين العيارية والوصفية للدكتور تمام حسان : ٢٩ نقلا عن نص للغوي الأمريكي .
« ستيرتانت » .

(٣) المشهور استخدام « أخطأ » الرباعي ومشتقاته والتفرقة بينه وبين الثلاثي ، ولكننا جرينا هنا على رأي أبي عبيدة في أن « خطيء » و « أخطأ » بمعنى (الصحاح) .

وتوضيح ذلك أن العملية الذهنية التي تتم فيها المقارنة بين الكلمة أو الصيغة المجهولة ونظيرتها المعلومة ، قد تقوم على أساس التشابه التام بينهما وتسفر عن كلمة أو صيغة قد تعارف عليها أهل اللغة وإن كانت مجهولة للمتكلم لم يسمعهما من قبل . وفي هذه الحالة يحكم على القياس بأنه صحيح .

أما إذا أسفرت هذه العملية الذهنية القياسية عن كلمة أو صيغة لم يتعارف عليها أهل اللغة ، أو قامت عملية المقارنة على أساس تشابه موهوم بين الكلمة المجهولة والمعلومة ، فإنه يقال حينئذ إن هذا القياس خاطيء .

وهذا القياس الخاطيء ، يبدأ عادة في لغة الأطفال ، فإن لم يجد الطفل من يصلح له خطأ حدث في لغة الجيل الناشئ أمور لم تكن مألوفة في لغة السلف ، وحل الخطأ الجديد محل الصواب القديم ، وأصبح ما كان يعد خطأ في لغة الأجداد أمراً معترفاً به شائعاً في لغة الخلف (١) وقد يقع القياس الخاطيء من الكبار أيضاً .

وهذه الظاهرة اللغوية ، أعنى القياس الخاطيء ، معترف بها من اللغويين المحدثين (٢) .

ومعالم هذه الظاهرة واضحة عند اللغويين العرب فيما سموه «التوهم» وربما عبروا بالخطأ في القياس أيضاً ، جاء في «المزهر» للسيوطي (٣) — عن شرح الفصيح لابن خالويه — «كان الفراء يميز كسر النون في شتان تشبيهاً بـسَيَّان وهو خطأ بالإجماع فإن قيل الفراء ثقة ولعله سمعه ، فالجواب : إن كان الفراء قاله قياساً فقد أخطأ القياس ، وإن كان سمعه من عربي ، فإن الغلط

(١) من أسرار اللغة للدكتور إبراهيم أنيس : ٢٢ .

(٢) راجع مجلة مجمع اللغة العربية : ١٧٧/٨ (بحث أبواب التلافي للدكتور إبراهيم

أنيس) .

(٣) المزهر : ٥٠٤/٢ .

على ذلك العربي ، لأنه خالف سائر العرب ، وأتى بلغة مرغوب عنها .

فعلى الاحتمال الأول يكون الفراء قد وقع فى قياس خاطئ لأنه شبه شتان بسيان فظن الأولى مثني وكسر نونها مثل سيان . ولكن شتان مبنيّة على الفتح لأنها اسم فعل وليست مثني . وعلى الاحتمال الثاني يكون العربي قد جرى على القياس الخاطئ فأتى إلى اعراب خالف به سائر العرب .

واستعمل سيبويه لفظ « التوهم » وهو ليس إلا قياساً خاطئاً قال : « فأما قولهم مصائب فإنه غلط منهم ، وذلك أنهم توهموا أن مصيبة فعيلة ، وإنما هي مُفْعَلَةٌ ^(١) » .

وقد وضع ابن جنى طريقة هذا التوهم — أو القياس الخاطئ — بقوله : « وذلك أنهم شبهوا مصيبة بصحيفة ، فكما همزوا صحائف همزوا أيضاً مصائب ، وليست ياء مصيبة بزائدة كياء صحيفة ، لأنها عين عن واو ، وهى العين الأصلية وأصلها مُضَنَوْبَةٌ لأنها اسم فاعل من أصاب ^(٢) » . وهذا معدود عند سيبويه وابن جنى من أغلاط العرب . بل وضع « سيبويه » عملية القياس الخاطئ على أنها تشبيه صيغة بصيغة ، قال ^(٣) : « وقالوا رجل حميد وامرأة حميدة ، يشبه بسعيد وسعيدة ، ورشيد ورشيدة ، حيث كان نحوهما فى المعنى واتفق فى البناء » .

ومن هذا التوهم قول امرأة من العرب : رثأت زوجي بأبيات ^(٤) بدل رثيت . وقد وضع الفراء ما فى هذا المثال من توهم أو خطأ فى القياس ، يقول « وهذا من المرأة على التوهم ، لأنها رأتهم يقولون : رثأت اللبن ^(٥) » ،

(١) كتاب سيبويه : ٢/٣٦٧ .

(٢) المزهر : ٢/٤٩٦ .

(٣) كتاب سيبويه : ٢/٢١٢ .

(٤) اصلاح المنطق : ١٥٨ . المزهر : ٢/٤٩٦ .

(٥) أى حليته على حامض فخر (الصحاح) .

فظنت أن المرئسية منها ، وإلى ذلك يشير الفراء أيضاً في قولهم : حَلَّاتُ السويق بدل حليت ، بقوله « قد همزوا ما ليس بهموز ، لأنه من الحلواء »^(١) .

ومن ذلك ما جاء في المخصص^(٢) لابن سيده : « زعم أبو العباس محمد ابن يزيد (المبرد) أن أبا حبة النيرى كان يهمز كل واو ساكنة قبلها ضمة (مثل موسى) وذلك أن الواو المضمومة تهمز باطراد فتوهم الضمة التي قبل الواو واقعة على الواو . »

ويتضح أثر القياس الخاطيء في التطور اللغوي من قول أبي بكر الزيدى^(٣) بعد أن ذكر خطأ العامة في قولهم لواحدة الصئبان : صئبانه : « وإنما دخل عليهم لقولهم صئبان ، فتوهموا أن واحده صئبانه ، وظنوه من الجمع الذي ليس بينه وبين واحده إلا الهاء . »

ومن قول الحريري (القاسم بن علي) : « ويقولون قد حدث أمر . فيضمون الدال من حدث ، مقايضة على ضمها في قولهم : أخذه ما حدث وما قدّم ، فيحرفون بنية الكلمة المقولة ، ويخطئون في المقايضة المعقولة ، لأن أصل بنية هذه الكلمة ، حدث على وزن فعل بفتح العين . وإنما ضمت الدال من حدث حين قرن بقدّم لأجل المجاورة والمحافظة على الموازنة^(٤) . »

وفي اللغة أمثلة كثيرة خرجها اللغويون على التوهم ، كتوهم أصالة الميم في المرأة ، والمسكنة المدرعة والمنديل . جاء في اللسان وفي الحديث لا يَتَمَرَّأى أحدكم في الماء . أي لا ينظر وجهه فيه وزنه يتمم فعل من الرؤية ، كما حكاه سيبويه من قول العرب تمسكن من المسكنة ، وتمدرع من المدرعة . وكما حكاه

(١) الصحاح (خلا) .

(٢) ١٠٦/١٦ .

(٣) لحن العامة : ٤ - أ (مخطوط) .

(٤) درة القواص : ٣٠ .

أبو عبيد من قولهم : تمتدلت بالمنديل ، وفي الحديث لا يتمرأى أحدكم في الدنيا أى لا ينظر فيها .

ولكثرة الشواهد التي خرجت ، أو يمكن تخريجها على مبدأ التوهم هذا كاد يجمع اللغة العربية في القاهرة ، يقر هذا المبدأ ويعترف به في عداد الأقيسة اللغوية ، بعد أن استمع إلى ثلاثة بحوث للرحوم الشيخ عبد القادر المغربي (ت ١٩٥٦) في دورات المؤتمر في أعوام : ١٩٤٨ ، ١٩٤٩ ، ١٩٥٢^(١) قدم في البحثين الأولين شواهد على توهم أصالة الحرف الزائد قال إنها « بلغت من الكثرة حدا رأيت كافيها في اعتبار هذا الضرب من التوهم قاعدة تحتذى ، فيحمل على شواهد المنقولة عن الفصحاء : شواهد أخرى تشبههم من كلام المولدين فتعتبرها صحيحة سائغة الاستعمال ، ولا نخطئ » الكتاب المعاصرين أو المولدين في استعمالها^(٢) .

أما توهم زيادة الحرف الأصلي - وهو موضوع البحث الثالث - فقد وجد منه الشيخ المغربي سبعة شواهد « على أن في اللغة طريقة ثابتة للتوسع في نظائر كلماتها وتسهيل أمر التخاطب بها » ولقلة هذه الشواهد لم يقترح على المجمع اعتبار مبدأ توهم الزيادة قياسيا^(٣) .

أقول : كاد المجمع يقر مبدأ توهم أصالة الحرف ، ويوافق على اقتراح الشيخ المغربي كاملا ، في اعتباره قاعدة يخرج عليها كلام المولدين والمعاصرين الذي يوجد له نظير في كلام الفصحاء . ولكن المجمع اكتفى بهذا القرار : « جرت بعض الكلمات العربية على مبدأ توهم أصالة الحرف^(٤) » . وليس

(١) البحوث الثلاثة منشورة في مجلة مجمع اللغة العربية : ٢٥٧/٧ د ٢٦١ و ٦١/٩ .

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية ٦١/٩ .

(٣) مجلة مجمع اللغة العربية : ٦٥/٩ .

(٤) مجموعة القرارات العلمية للمجمع : ١٠ .

في القرار بهذه الصيغة جديد . بل هو إعادة تسجيل للواقع الذي اعترف به اللغويون القدماء . وقد نقلنا أقوالهم في ذلك . ولم يحقق القرار الغاية التي من أجلها قدم الباحث بحوثه ، وجمع شواهد لتكون مثالا يحتذى ، ومقاييس ترد إليها نظائرها من كلام الموالدين والمعاصرين . على أن بحوث الشيخ المغربي لم تعالج إلا بعض جوانب « القياس الخاطيء » ، فهو أعم وأشمل من توهم الأصالة ، أو توهم الزيادة ، وذلك كالتوهم الذي يقع في صيغ الجمع ، أو في التأنيث والتذكير ، أو صيغ الفعل .

ويمكن أن يعزى إلى ظاهرة « القياس الخاطيء » ما حدث من تطور في الكلمات الآنية ، المستعملة في لهجاتنا العامية المعاصرة :

أولا : في الإفراد والجمع :

(١) في اللغة العربية كلمات مفردة نجمع ثم يكون لصيغة جمعها جمع آخر ، وهو المسمى « جمع الجمع » مثل « إناء » ، فإن جمعه آنية وجمع جمعه أواني . ومصير ، وهو المسمى : واحد الأمعاء وجمعه مُصْران ، وجمع الجمع : مصارين . وقد يحدث في هذه الحالة أن يشتر جمع الجمع مثل الأواني والمصارين ، ويكتفى بأن يكون المفرد هو الآنية والمصران . وهكذا يسمع في اللهجات المعاصرة « الآنية النحاسية » . والمتكلم يعنى الإناء الواحد ونسمع « المصْران الأعور » ، والمصْران الغليظ على حين أن المصْران جمع مصير . وقد ماتت هذه الكلمة الأخيرة في اللهجات اكتفاء بالمصْران .

وقد حدث هنا قياس خاطيء : فالتكلم قاس « آنية » « وأواني » على « خابية » « وخواني » « وساقية » « وسواق » ، فحسب الآنية مفرداً كالخابية والساقية .

وقاس لفظ « مُصْران » و « مصارين » على « مُعْبَان » و « شُعَابِين » ، و « مُفْتاح » و « مفاتيح » و « قِرْطاس » و « قِرَاطيس » ، فسكنا أن الشُعبان والمفتاح والقرطاس كلمات مفردة فكذلك توهم « المصْران » .

(ب) هناك جموع يكون الفرق بينها وبين مفرداتها بالناء المربوعة ليس غير ، وذلك فيما يسمى « اسم الجنس الجمعي » مثل تفاح وتفاحة ، وسحاب وسحابة ، وعنب وعنبية ، وشجر وشجرة .

وقياساً على هذا حدث في بعض الكلمات صياغة مفرد لها مشتمل على الناء الفارقة ، على حين أن الجمع الخالي من الناء له مفرد آخر . ومن ذلك ما قيل في اللهجات العامية لواحدة « الذباب » : ذِبَّانَةٌ ^(١) (بالذال أو بالذال). وإذا كان « الذباب » في اللغة من النوع الذي يفرق بينه وبين واحده بالناء فيقال ذبابة ، فإن « الذِبَّان » ليس من هذا النوع بل إن واحده « ذبابة » أيضاً لا « ذِبَّانَة » . ولكن قياسها خطأ على ذباب وذبابة هو الذي أدى إلى هذه الكلمة الجديدة أعني « ذِبَّانَة » .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في اللهجات من قولهم « صُبَّانَةٌ ^(٢) » لواحدة « الصُبَّان » والصُبَّان جمع صُصَّوَابَة ، وليس من الجمع الذي يفرق بينه وبين واحده بالناء . ولكنها قيسَت خطأ على صواب . ومفرده صوَابَة . وقد تمت العملية القياسية هكذا :

لما كان الذباب جمعاً مفردة ذبابة
: الذِبَّان مفردة ذِبَّانَة

و

لما كان الصواب جمعاً مفردة صُصَّوَابَة
: الصِصَّان مفردة صِصَّانَة

(١) قالها عامة الأندلس في القرن الرابع الهجري (لحن العامة للزبيدي : ه - ب) وعامة صقلية في القرن الخامس الهجري (تثقيف اللسان لابن مكي : ١٨ - ١) وعامة بغداد في القرن السادس (تقويم اللسان لابن الجوزي : باب اللال) وما زالت الكلمة مستعملة في لهجاتنا المعاصرة .

(٢) تنطق في أكثر اللهجات بعذف الهمزة فيقال صبانة ، وفي بعض اللهجات تنطق الصاد سينا فيقال : سبانة . وقد وردت كلمة « صُبَّانَة » في لهجات عامة الأندلس في القرن الرابع لحن العامة : ٤ - ١) وعامة صقلية في القرن الخامس (تثقيف اللسان : ٦٨ ب) .

وقد فسر أبو بكر الزبيدي هذا الخطأ في القياس بقوله : « وإنما دخل عليهم لقولهم صئبان ، فتوهموا أن واحده صئبانة ، وظنوه من الجمع الذي ليس بينه وبين واحده إلا الهاء ^(١) » وربط الزبيدي بين هذا الخطأ وخطهم في ذبانه ، إذ قال : « وغلطهم في هذا كغلطهم في الذبان » ^(٢)

ومثل ذلك ما حدث في بعض اللهجات العربية المعاصرة في مصر ، إذ تسمى الحلوى المصنوعة من التمناع « أرواح » فإذا أراد المتكلم التعبير عن الواحدة أضاف التاء الى هذا الجمع فقال : « أرواحة » وسمعت من يقول لبائع الحلوى « هات أرواحتين » .

(ح) هناك كلمات عربية وهي مفردة لكنها جاءت على صيغة من صيغ الجمع فاشتق لها مفرد قياساً على مفرد هذا الوزن ، وذلك مثل كلمة « قروش » التي دخلت اللغة العربية ، عن طريق اللغة التركية التي انحدرت إليها الكلمة من إحدى اللغات الأوربية . وكلمة « غروش » في التركية مفرد لا جمع ، ولكنها لما دخلت العربية صادفت صيغة فعول ، وهي من صيغ جمع الثلاثي مثل قرد وقرود . ولهذا اشتق لها مفرد على وزن فعل وهو القرش ، وهذا المفرد لا وجود له في اللغة التركية .

ومثل ذلك كلمة « سراويل » فهي مفرد لا جمع ، ولكنها لما جاءت على صيغة الجمع وهي فعاليل ، اشتق لها مفرد وهو سروال ^(٣) ، قياساً خاطئاً على قنطار وقناطير .

(د) ومن الكلمات التي تأثرت فيها اللهجات العربية الحديثة باللغة التركية ، وقبس عليها مثيلاتها قياساً خاطئاً : الزيوتات والفحومات والشحومات . وصحتها : الزيوت ، والفحوم ، والشحوم .

(١) لحن العامة : ٤ - ١ .

(٢) المصدر نفسه : ٥ - ب .

(٣) في التحوين من يزعم أن سراويل جمع سروال وسروالة (راجع الصحاح) .

والسبب في هذا أن الأتراك - الذين نقلت منهم هذه الصيغة - لا يعرفون صيغ الجمع في اللغة العربية ، فلما دخلت هذه الكلمات العربية إلى اللغة التركية ، أضافوا لها - وهي جمع - الألف والتاء ، فقالوا : اللوازم والعفونات . ولما أخذها المصريون عن الأتراك أخذوا طريقةهم الخاطئة في هذه الجموع .

(هـ) كذلك يؤدي القياس الخاطئ دوراً في إيشار صيغة من صيغ الجمع على أخرى ، فيكون ذلك من أسباب اختلاف اللهجات بين البيئات المختلفة ، فمن ذلك أن أهل الإسكندرية يجمعون « الشعاع » على « شماميع » ، و « البجاجة » على « جكاكيت » ، على حين أن أهل القاهرة يؤثرون جمع المؤنث السالم في هذه الحالة ، فيقولون : « شماغات » ، « وجاكنات » ، كما يجمعون التاكسي على « تاكسيات » ، على حين أن أهل الإسكندرية وبعض الأقاليم يقولون « التسكوسة » ، كما يقول بعض أهل الأقاليم في جمع الراديو « الرداوى » ، وأهل القاهرة يقولون : « الراديوات » . على أن إيشار صيغة من صيغ الجمع على غيرها قد يتم عمداً لسبب اجتماعى خاص ، وذلك كما حدث في تسمية « قانون الموظفين » بعد تعديله عام ١٩٦٤ باسم « قانون شئون العاملين » ولم يسم قانون « شئون العمال » ، فإيشار صيغة جمع المذكر السالم على صيغة جمع التكسير قصد به التمييز بين هذا القانون ، وقانون العمال بالمعنى الشائع لكلمة عامل ، على حين أريد بلفظ « العاملين » ما يشمل الموظفين والعمال .

ثانياً : في التذكير والتأنيث :

عندما يقول الطفل : « البلحة الأحررة » ، و « الأسمر » بدل الحرام والسمراء يكون قد قام - لاشعورياً - بعملية قياسية سريعة ، قفز إلى ذهنه فيها ما يسمعه حوله ، مثل : حلو وحلوة ، وكبير وكبيرة ، فحسب مؤنث الأحرر « والأسمر » يكون كذلك بزيادة تاء على الكلمة الدالة على المذكر ، فأخطأ

في القياس ، لأن هذه الصيغة تؤنث بعلامة أخرى غير تاء التأنيث ، فتكون على فعلاء ، كحمرء وسمراء .

والتطور اللغوي في التذكير والتأنيث يقع — غالباً — نتيجة لمثل هذا القياس الخاطيء ، وذلك بوضع علامة التأنيث في اسم لم يسمع عن العرب بهذه العلامة ، أو باستبدال علامة بأخرى ، أو الجمع بين علامتين للتأنيث .

وقد جمعت من اللهجات العربية المعاصرة طائفة من الكلمات التي وقع فيها التطور اللغوي — بالنسبة للعربية الفصحى — في التذكير والتأنيث ، وقت بتصنيفها في أنواع يمكن ردها كلها إلى القياس الخاطيء . وهي :

١ — كلمات ورد السماع بها عن العرب بدون تاء التأنيث ، ويستوى فيها المذكر والمؤنث ، فتميل اللهجات إلى التفرقة بينهما بتاء التأنيث قياساً خاطئاً على الكلمات الكثيرة التي وقعت فيها التفرقة بالتاء رغبة في اطراد الصيغ واطراد التفرقة في النوع .

ومن ذلك : عروسة ، وامرأة صبورة ، وحقودة ، وعجوزة ، على حين أن المروى عن العرب : عروس وصبور ، وحقود ، وعجوز^(١) .

وهذه كلها على وزن فعول بمعنى فاعل ، وهو من الأوزان التي لا تدخلها التاء الفارقة^(٢) ، وما يبرر هذا القياس الخاطيء أنه سمع عن العرب : عدوة لمؤنث العدو^(٣) ، كما سمع عجوزة لمؤنث العجوز .

وما ورد عن العرب أنه يستوى فيه المذكر والمؤنث كلمة « فرس » ، ولكن

(١) ذكر ابن مكي في تثنييف اللسان : ٢٧ — ب (مخطوط) أن ابن دريد ذكر أن عجوزة وردت عن العرب ولكنها رديئة .

(٢) راجع كتاب سيبويه : ٢١٢/٢ وشرح المفصل لابن يعيش : ١٠٢/٥ وشرح ابن عقيل : ٢٣٦/٢ (تحقيق محمد محيي الدين) .

(٣) الصحاح (عدا) .

اللهجات الحديثة تفرق بين المذكر والمؤنث بالتاء فتقول : « فرس » للمذكر
« وفرسة » للمؤنث . وهذا قياس خاطئ على « بغل » و « بغلة » .

٢ — كلمات جاء مذكرها في اللغة على « فَعْلَان » ومؤنثها على « فَعْلَى »
كسكران وسكرى ، وشبعان وشبعى ، وغضبان وغضبي . وكان وكلى .
ولكن اللهجات تميل إلى التفرقة بين المذكر والمؤنث هنا بالتاء — قياساً
خاطئاً — فيقال : سكرانة وشبعانة ، وغضبانة وكسلانة . على أن هذا التطور
في تأنيث هذه الصيغة قديم ، فقد روى أن قوماً من بني أسد يقولون :
سكرانة^(١) وعليها قول عمارة بن عقيل :

وَمِنْ لَيْلَةٍ قَدْ بَشَّهَا غَيْرَ آثَمٍ بِسَاجِيَةِ الْحِجْلَيْنِ رِيَّانَةِ الْقُلُوبِ^(٢)

٣ — كلمات جاءت في اللغة العربية مذكورة ، أو بالوجهين ، فاختارت
اللهجات تأنيثها . وفي هذه الحالة تلحق بها علامة التأنيث رغبة في اطراد
الصيغة ، وقياساً خاطئاً على الكلمات التي لحقتها التاء ، ومن ذلك قولهم :

« سكيته » و « خميرة » و « حصيرة » و « ضبعة » والمسموع عن العرب
« سكين » و « خمير » و « حصير » و « ضُبُوع » .

٤ — كلمات مذكورة منتهية بألف مثل « مستشفى » تميل اللهجات الحديثة
إلى نطقها « مستشفه » وتبعاً لذلك تعد مؤنثة ، قياساً خاطئاً على الكلمات
المؤنثة بالتاء .

٥ — في اللهجات العربية المعاصرة ، صيغة مستحدثة من صيغ التأنيث

(١) اصلاح النطق : ٢٥٨ .

(٢) أمالي القالي : ٦٠/٢ . والقلب (بضم القاف) : السوار .

وردت عليها كلمات كثيرة شائعة مثل . سَمَكَاية ، و بَلَحَاية ، و تَفَّاحَاية ،
و تَأْمَلَاية كاريكاتورية ، و مُرَشَّحَاية ^(١) .

وقد لحظت في هذه الأمثلة وما جرى على وزنها ، أنها :

(أ) تصاغ بزيادة ألف وياه ، قبل تاء التأنيث . وإذا كان في الكلمة
ألف أصلا مثل عصاة وحصاة زبدت ياء فقط فتميل عصاية وحصاية .

(ب) تصاغ للدلالة على الوحدة ، فعنى « بلحاية » : بلحة واحدة
« وسمكاية » : وسمكة واحدة .

وتطور « عصا » — وهى الصحيحة فى العربية — إلى عصاة قديم ،
فقد قال ابن السكيت : « زعم الفراء أن أول لحن سمع بالعراق هذه عصاتى ^(٢) »
وفى « مرآة النحويين » لأبى الطيب اللغوى ^(٣) : أن زيادا وأبا الأسود الدؤلى
سمعا رجلا يقول : سقطت عصاتى . وفى « تثقيف اللسان » لابن مكى
الصقلى : أول لحن سمع بالبصرة : « هذه عصاتى » ^(٤) وفى « البيان والتبيين »
للجاحظ : « أول لحن سمع بالبادية : هذه عصاتى » ^(٥) .

أما تطور « حصاة » و « سفاة » و « وشذاة » و « ودبابة » إلى . حصاية ،
وسفاية ، وشذاية ، ودبابة — فقد حدث فى لهجة أهل صقاية فى القرن
الخامس الهجرى ^(٦) .

(١) هذه الصيغة ترد كثيرا فى عنوانات الرسم الكاريكاتيرى الذى يقدمه الرسام
صلاح جاهين فى صحيفة « الأهرام » .

(٢) اصلاح المنطق : ٢٩٧ .

(٣) ص : ٨

(٤) ٢٧ - ١ (محفوظ)

(٥) ٢١٩/٢ .

(٦) تثقيف اللسان : ٢٨ - ب .

وفي بيان السر في نشأة هذه الصيغة الغربية خطر لي تفسيران :

١ — أن كلمتي عصاية وحصاية قيستا خطأ على عباية وصلاية في عبادة وصلاة ، وكلتاهما قد وردت عن العرب الفصحاء ، وقيس عليهما غيرهما رغبة في اطراد الصيغة وزيدت الألف في الكلمات التي لا توجد فيها الألف أصلاً مثل سمكاية وبلحاية .

٢ — من الممكن القول بأن الألف والياء في هذه الصيغة كانتا في الأصل « آي » ، ثم تطورت صوتياً إلى الصورة الجديدة ، أعني أن « سمكاية » أصلها « سمكة آي سمكة » ثم اختزلت إلى « سمكة آي » ثم تطورت إلى « سمكاية » ويطبق هذا على الأمثلة السابقة .

وقد بدأ لي احتمال أن تكون هذه الصيغة من صيغ التصغير في إحدى اللغات السامية كالسريانية والعبرية . ولكن الأستاذ حامد عبد القادر — وهو حجة في الساميات — نفي لي هذا الاحتمال .

وهناك آثار واضحة أخرى للقياس الخاطيء في صيغ الفعل " " ، وصيغ المشتقات ترجىء بيانها إلى بحث آخر ، مكثفين بالأمثلة السابقة في الاستدلال على أثر ظاهرة القياس الخاطيء في التطور اللغوي .

أما بعد ، فلعل بجمع اللغة العربية يجعل هذه الظاهرة قاعدة ، استناداً إلى ما روينا عن اللغويين ، وإلى الشواهد التي سلم بها الجميع ، حين اتخذ قراره بأن بعض الكلمات العربية جرت على مبدأ توهم أصالة الحرف ^(١) ففي الاعتراف بأثر القياس الخاطيء رفع لصفة الخطأ عنه وجعله عرفاً لغوياً ، يوسع نطاق القياس ، ويقرب بين الفصحى والعامية . وهذا أمر منوط بالجميع بحكم قانونه .

(١) راجع بحث الأستاذ الدكتور إبراهيم انيس « أبواب الثلاثي » في مجلة مجمع اللغة العربية ١٧٢/٨ .

(٢) مجموعة قرارات المجمع : ١٠ .

الرقابية .. عقيدة ودولة

للككتور عبد الحميد البطريق

استاذ كرسى التاريخ الحديث

درسين قسم التاريخ والجغرافيا

فى أوائل القرن الثامن عشر وقع فى جزيرة العرب حادث خطير ، غير تاريخها السياسى ، وقلب نظامها الاجتماعى ، وأثر كثيراً فى نظامها الاقتصادى وخرج بها عن عزلتها الطويلة إلى مجرى السياسة العالمية ، ذلك الحادث هو ظهور مصلح كبير يدعو إلى مبادئ جديدة غايتها الإصلاح الدينى ، وهدفها إرجاع الإسلام إلى عهد البساطة وتحكيم القرآن ، والتشدد كل التشدد فى محاربة ما تعتقده من البدع والقضاء على الآفات التى ترتكب باسم الدين .

فى سنة ١١١٦هـ (١٧٠٣م) ولد للشيخ عبد الوهاب بن سليمان التيمى قاضى (العينه) بواى حنيفه بنجدولدا أسماه محمداً ، وكان بيت هذا القاضى ملتقى القاصدين من طلاب العلم وبعض علماء الدين يجتمعون فيه للبحث والمجادلة ، ومضى الوقت فى جدال فقهى ، أو نقاش دينى ، وكان الطفل وقد شب وأصبح صبياً ، يحلو له أن يراقب مجلس أبيه عن كذب فبصت لأحاديث القوم ومجادلاتهم ، يفضل هذا على الاجتماع بأقرانه من الصبية ، الذين اعتزلهم لى يستمع لى ما كان يثيره أبوه من جدال وبحوث . فنشأ حاد الفهم ، وقاد الذهن ، سريع الحفظ ، فصيح اللفظ ، واسع الثقافة بالنسبة لأتراه ومعاصريه ، حفظ القرآن قبل بلوغه العشر ، ونما جسمه وذنه نمواً سريعاً ، فزوجه أبوه فى سن مبكرة عندما كان فى الثالثة عشرة ، وهى العمر

والحج فآدى المناسك فى مكة، ثم ذهب لزيارة قبر الرسول فى المدينة حيث أقام شهرين كاملين . وقد رأى الفتى أثناء رحلته بالحجاز من المنكرات والبدع التى ترتكب باسم الدين ما أثار حفيظته ، وشغل ذهنه وتفكيره .

عاد الشاب بعد ذلك إلى « حريملة » حيث كان أبوه قد انتقل قاضياً فيها ، وهناك فى حريملة قرأ الفقه على أبيه ، على مذهب الإمام ابن حنبل ، ولقنه أبوه شيئاً من العلوم الفقهية والدينية التى يحسنها فكان محمد مبرزاً فى حل ما يعرض فى مجلس أبيه من المشكلات الفقهية ، حتى كان أبوه يقول عنه « قد أفدت من ولدى محمد فوائد شتى فى الأحكام » (١) .

رحل الشاب بعد ذلك طلباً للزيد من العلم فزار الحجاز والاحساء والبصرة ، وهناك فى البصرة أطال الإقامة فقد راق له أن يدرس اللغة والحديث على أحد علمائها الأفاضل الشيخ محمد المجموعى ، وكانت البصرة مرتعاً خصيباً لغلاة الشيعة ، الذين كانوا أكثر الفرق الإسلامية تعظيماً للأولياء . فقال الشاب ما رأى وما سمع من البدع الكثيرة التى ألصقوها بالدين ، وتوارثها الأبناء عن الآباء . فلم يستطع السكوت ، وبدأ يجهر بالنقد ويحمل على أهل البصرة حملة شديدة أثارهم عليه ، فأخذوا فى أول الأمر يحادلونه ويناقشونه فيزصر عليهم حتى يسكتهم ، ولكنه كان عنيفاً فى حملاته عليهم ، قاسياً عليهم فى زجره كل من يذكر اسم أحد الأولياء والصالحين محاطاً بهالة من التعظيم والتقديس ، شديد المراس فى مجادلاته معهم ، فأثارهم عليه حتى أخرجوه من ديارهم ، ففكر راجعاً إلى حريملة بنجد .

أقام فى حريملة فى كنف أبيه . يدعو إلى التوحيد وينادى بإبطال الدعوة لغير الله ، وأخلص لدعوته كل الإخلاص مكرساً لها قلبه ولسانه وقلبه ، وبدأ

(١) حسين بن غنام . كتاب روضة الأفكار والافهام لمرئاد حال الامام وتعداد فزوات الاسلام ص ٢٠ .

يكتب مؤلفه المشهور (التوحيد الذى هو حق الله على العبيد ، وقد بنى العالم الشاب كتابه على حديث صحيح للنبي صلى الله عليه وسلم « من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل » ، وإلى قوله فى حديث آخر « إنه لا يستغاث بنى ، وإنما يستغاث بالله » ، يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمه الرسول لا أغنى عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد سليمانى من مالى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئاً » .

استغل الشاب هذين الحديثين ليعلم أن التوسل إلى الله بالنبي شرك ، وأنه لا وساطة لنبي أو مخلوق بين الله وعباده . وكان لهذه الدعوة الجريئة صدى قوى فى إقليم العارض . فى حريملة والعينة والدرعية والرياض ، وانقسم الناس إزاء الدعوة الجديدة فريقين ، فريق شاع آراءه وآمن بدعوته ، وعاهده على نصرته ، وفريق أنكر عليه دعوته وهو الفريق الأغلب ، اشتد بهم الحنق عليه فقاموا يريدون الفتك به ، ففر هارباً إلى العينة مسقط رأسه .

هناك فى العينة تبدأ دعوة الشيخ فى الذبوع والانتشار ، فقد كان نصيرها الأول أمير العينة (عثمان بن معمر) الذى عاهد الشيخ على أن يكون سيفه المسلول ووضع جنوده رهن إشارته ، فاتفقا على العمل الذى أضرم نيران الثورة فى ربوع نجد . إذ طلب إليه الشيخ أن يهدم القباب المقامة على قبور الصحابة ويقطع الأشجار التى يتبرك بها الناس ، فامثل ابن معمر للأمر وخرج فى جمع من أصحابه وأتباعه يتقدمهم الشيخ يحملون المعاول فهدموا القباب والقبور والمساجد المقامة فى الجبيلة على قبور الصحابة وقطعوا الأشجار التى يتبرك بها الناس .

ويحدثنا المؤرخون النجديون الذين عاصروه ، كتلميذه حسين بن

غنام^(١) ، أن الخرافات والبدع التي انتشرت في بلاد العرب في ذلك الوقت. كانت تحتاج إلى مصلح حازم ، وأن الدين الإسلامي كان في أشد الحاجة إلى حركة إصلاحية تقوم على النصيح والسيف معاً ، فقد كان من الصعب اقتلاع ما اعتنقوه وأصبح لاصقاً بالدين كأساس من أسسه ، ويصف ابن غنام بعض هذه العادات فيقول إن المرأة كانت إذا ما عنست تطوف بالذكر من النخل وتلتزمه ، ثم تقول : يا فحل الفحول ، أريد زوجاً قبل الحلول ، وأن الناس إذا مرض لهم مريض وعز شفاؤه ، ذبحوا الذبائح وذكروا أسماء الجن والشياطين عليها ، ولم يذكروا اسم الله ، ثم أخذوا أطايب هذه اللحوم وألقوها في الفلوات زاعمين أن الجن والشياطين يأتون هذه اللحوم فيأكلونها ويتم بذلك رضاعهم على المريض فيبرأ . وكانت عندهم شجرة يسمونها شجرة (الذيب) يعتقدون فيها عقائد مضحكة ويفعلون لديها أفعالا منكرة ، فالمرأة إذا ولدت مولوداً ذكراً جاءت تلك الشجرة وعلقت عليها الخرق. لتدفع عن ولدها الحسد والموت ، كذلك تفعل الأرملة التي تريد زواجا ، والعاقرة التي تريد ولداً ، والعانس التي تريد خطيباً . وقد حمل الشيخ محمد بن نفسه على تلك الشجرة المقدسة التي كانت مزاراً للناس ومهبطاً للتمنيات. والذبور ، فانهال عليها بمعوله حتى هوت إلى الأرض .

وكانوا في الجبيلة يؤمنون قبر زيد بن الخطاب لتحسين حالهم وإجابة دعواتهم فأراد الشيخ التخلص من هذه القبة التي تعلو قبره ، ففاتح في هذا تلميذه أمير العيينة قائلاً : دعنا نهدم هذه القبة التي وضعت على الباطل وضل بها الناس ، فقال دونكمها فهدمها فقال الشيخ : إني أخاف من أهل الجبيلة أن ينصروها ويوقعوا بنا ، ولا أستطيع هدمها إلا وأنت معي . فسار معه عثمان بن معمر في ستمائة جندي من جنوده ، فحاول أهل الجبيلة منعهم.

ولكنهم رأوا أن ابن معمر جاد في حربهم ، فكشفوا عن المقاومة وخلوا بينهم وبينها . فتقدم الجميع نحو القبة ، ولكن أحداً منهم لم يجرؤ على أن يبدأ بهدمها حتى عثمان بن معمر نفسه تهيب الموقف ، عندئذ تقدم الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وأعمل فيها معوله فتبعه الناس وتمت تسويتها بالأرض في وقت قصير ، وبات الناس ينتظرون ما عساه يحدث للشيخ محمد من الشر والبلاء .

أما الحادث الذي أثار القوم ، وأقام المعارضة ضده فهو أمره بترجم امرأة زانية ثبت زناها بإقرارها وبشهادة أربعة أعيان ، حيث جرى بها إلى الساحة وأمر الشيخ أن تشد عايقها ثيابها وترجم ، وقد بدأ بترجمها الأمير عثمان بن معمر ثم تبعه الراجحون . سرى الخبر كوميض البرق في البوادي والحضر ، واجتمع أهل الحسا خاصة لأنهم كانوا من أشد العرب استمئاعاً بالإباحية والفجور ومن أكثرهم تمسكاً بالدين ، فكتب أميرهم سليمان آل محمد رئيس بني خالد — الذي كان نفوذه يشمل بلاد العارض نفسها — إلى ابن معمر الذي كان عاملاً له ، يهدد الشيخ المصلح بالقتل إذا كان لا يرجع عن غيه « في تخريب قلوب المسلمين وإفساد دينهم » ، ثم عاد الأمير سليمان فكتب إلى ابن معمر يأمره بقتل محمد بن عبد الوهاب (١) . وأخيراً رأى ابن معمر أن خير طريقة تحفظ عليه منصبه ، وتخلص صاحبه هي أن يرحل الشيخ من العريثة .

رأى الشيخ أن يسير إلى الدرعية معقل آل سعود ومقرهم وكان أميرها يومئذ محمد بن سعود ، ونزل على أحد تلاميذه عبد الله بن سويلم العريني (٢) فما سمع أهل الدرعية بوصوله حتى غص بيت عبد الله بن سويلم بأنصار الشيخ ومريديه ، وعلى رأسهم ثنيان بن سعود أخو أمير الدرعية

محمد بن سعود ، وما لبثا أن أخا على أخيهما الأمير أن يقابل الشيخ فتردد
أولاً ، فلم يجد بداً من أن يعرض دعوة الشيخ وتعاليمه على (موسى بنت
أبي وهطان زوجة أخيهما الأمير ، فقد عهدا فيها الذكاء وأصالة الرأي ،
فما سمعت منهما الأسس التي قامت عليها دعوة الشيخ حتى ارتاحت إليهما
وأقبلت على زوجها الأمير قائلة « إن هذا الرجل قد ساقه الله إليك وهو
غنيمة ، فاغتنم ما خصك الله به » وكان لكلمة هذه الزوجة الصالحة أثر
بالغ في نفس ابن سعود فدعا أخاه (مشاري) وأمره أن يدعو الشيخ لمقابلته ،
فقال مشاري مستعظفاً أخاه « سر إليه برجلك ، وأظهر تعظيمه وتوقيره ،
ليسلم من أذى الناس ، فسار ابن سعود إلى بيت عبد الله بن سويلم ورحب
بالشيخ قائلاً « أبشر ببلد خير من بلادك وبالعز والمنعة » فأجابته الشيخ
« وأنا أبشرك بالعز والتمكين إذا عاهدتني على كلمة التوحيد التي دعا إليها
الرسول كلهم » وتلى كلمات الترحيب عهد بين الأمير والشيخ تعهد فيه
ابن سعود أن ينشر بحمد السيف دين التوحيد وأن يجاهد في سبيله ، بكل
ما أوتي من قوة وجاه ، وتعهد الشيخ بأن يبقى في الدرعية مرشداً ومعلماً ،
وهكذا تحالفت القوة الروحية والقوة الزمنية ، واستعد صاحب الشوكة
لحماية صاحب الدعوة ، وأباح له أن يجهر بدعوته على أن يضع تحت
تصرفه قوته وجاهه وماله وآله .

كان لهذا العهد دوى هائل في أنحاء الجزيرة العربية ، وتشجع الشيخ
فتوسع في دعوته ، وصرح بكل ما كان يختلج في صدره ، وما كان يجمع
به لسانه فيبيده أحياناً ويكتمه أحياناً أخرى . وأصبح مطمئناً على دعوته
وعلى نفسه بعد أن بايع الأمير محمد بن سعود إماماً يتبعه المسلمون وكانت
هذه البيعة في عام ١١٥٨ هـ (١٧٤٥ م)^(١) .

بدأ الناس يقبلون على الدرعية من كل حذب وصوب ، منهم من يريد

(١) ابن بشر . عنوان المجد في تاريخ نجد الجزء الأول ص ١٥ .

بذلك الفسحة والتسليّة ، ومنهم من يريد أن يسمع السر ليزيجه ، ومنهم الشاك الحائر ، ومنهم من يلتمس الهداية والفائدة ، وشرع الشيخ يعرض مبادئه وتعاليمه على هؤلاء وأولئك في حجة داخلة ، ولسان فصيح . فاستجاب له أكثر أهل الدرعية وفريق كبير من الزائرين واستقرت في قلوبهم دعوة التوحيد ، وأشرب حب الشيخ قلوبهم ، فأصبح سموع الكلمة ، نافذ الرأي ، وأضحت الدرعية مدينة التوحيد تنبعث منها المبادئ الجديدة ، حيث أخذ الشيخ يكتب مؤلفاته القيمة ويرسل الرؤساء والكبراء داعياً إليهم لدين التوحيد . أما مجلسه في الدرعية ، فكان مهبط الطلاب ومقصد العلماء ، وكان لأولاده أيضاً مجالس وحلقات للدرس لا تقل عن مجلس أبيهم ، وقد رأى ابن بشر بنفسه هذه الحلقات فوصفها في كتابه قائلاً : « قد رأيت لهؤلاء الخمسة مجالس ومحاولاً للتدريس في بلد الدرعية ، وعندهم الطلبة الكثيرون من سائر نواحي نجد ، ومن أهل صنعاء وزبير وعمان وغيرها من الأقطار »^(١) .

وكان الشيخ حريصاً كل الحرص على أن يبين للناس أنه لم يأت لهم بجديد (إنى لم آت بجهالة ، بل أقولها والله الحمد إن ربي هداى إلى صراط مستقيم ، ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشرّكين ، ولست والله الحمد أدعو إلى مذهب صوفى أو غيره ، بل أدعو إلى الله وحده لا شريك له ، وأدعو إلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم التى أوصى بها أول أمته وآخرهم)^(٢) .

وكان له ولكل من أبنائه مدرسة قرب بيته يتردد عليها الطلاب صباح مساء يدرسون فيها الحديث والتفسير والفقه والأصول ، وقد سعى الشيخ حتى أجرى الأمير على هؤلاء الطلاب نفقة مستديمة من بيت المال ، تسهلاً لهم وتيسيراً عليهم ، حتى يقبل غيرهم على الدرعية ثم يكونوا في النهاية رسل المبادئ الجديدة في ربوعهم وقراهم . وما لبثت هذه المدارس

(١) ابن بشر ج ١ ص ١٢ .

(٢) مجموعة التوحيد : من الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الشيخ عبد الله الأحسانى

الصغيرة أن أصبحت مقصد الطلاب من سائر أنحاء جزيرة العرب حتى ليحصى ابن بشر عددهم بعشرة آلاف^(١). وكان التعليم بالمجان بل كان للأذكياء جوائز من مال وكساء.

لم تكن مهمة الشيخ في الدرعية مقصورة على التعليم فقط ، بل كان مستشاراً لمحمد بن سعود ثم لابنه عبد العزيز ، وكان في الوقت نفسه قاضياً للدرعية . ومديراً لشؤونها العلمية والدينية ومستشاراً لبيت المال في توزيع الأقطبة والمرتبات من ضرائب الأتخامس والزكاة ، إذ كانت الأموال ترد الى الدرعية فيقوم الشيخ بترتيب الدخل والمنصرف وتوزيع ميزانية الدولة بما يراه موافقاً للأحكام الشرعية وإنماء الدولة السعودية الناشئة . وظل قابضاً على زمام الأمور حتى نجح عبد العزيز في الاستيلاء على الرياض ، وانقادت له نجد كلها ، فاعتزل الشيخ السياسة وعكف على نشر مبادئه في جميع أنحاء الجزيرة العربية إذ كان جميع الأمراء المجاورين عندما تعاهد مع ابن سعود معادين لدعوته ، وكذلك كان العلماء من أهل الشيعة والسنة ، فقد رموه بالكفر والزندقة ، وعدوه خارجياً رافضياً ، وأوغروا عليه صدور العامة . أما هو فلم يلبس ولم يتزعزع أمام هذه العواصف بل بقي صامداً في وجه أعدائه واثقاً بالله وبقوة ابن سعود .

وكان يعلم كنهه الدعاية التي يقوم بها خصومه خارج نجد ولا سيما في الحجاز ، فكتب إلى علماء مكة رسالة طويلة جاء فيها « نحن ولله الحمد متبعون لا مبتدعون على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، أمرنا الناس بإخلاص العبادة لله الواحد الأحد ... فأشاعوا أنا نسب الصالحين ، وأنا لسنا على جادة العلماء ، ورفعوا الأمر إلى المشرق والمغرب ، وأشاعوا عنا أموراً يستحي العاقل من ذكرها ، وأنا أخبركم بما نحن عليه ليتبين الأمر لكم وتعلموا الحقيقة »^(٢).

(١) ابن بشر ، عنوان المجد في تاريخ نجد ج ١ ص ١٧ .

(٢) من الشيخ محمد بن عبد الوهاب « إلى العلماء الاعلام في بلد الله الحرام » من مجموعة التوحيد طبع دلهى .

وكانت الدرعية خير مركز تنشأ فيه الحركة الوهابية حتى تتسع وتشيع ،
وخصوصاً أنها تتماز على جاراتها بوقوعها في منخفض قدره خمسة فراسخ
من الغرب إلى الشرق بطوقه جبل طويق وفروعه وليس لهذا المنخفض
غير طريقين ضيقين لا يسع الغربي منهما مرور أكثر من جمل واحد ، فهي
قلعة حصينة بطبيعتها ، وهي حصينة بنهر الباطن الذي يجري شتاء فيخصب
وادي حنيقة وينبت الفسحة والقمح والشعير والذرة وهي خيرات
تساعدها على احتمال حصار طويل ^(١) .

وأصبحت الدرعية بفضلها أكبر مدينة في بلاد العرب ، يؤمها الطلاب
من اليمن وعمان وحضرموت والحجاز والعراق والشام ، وقدر رأى ابن بشر
الدرعية في هذا العمدة وقال في وصفها نظرت إلى موسمها وأنا في مكان
مرتفع ، وهو في الموضع المعروف بالباطن بين منازلها الغربية التي
لآل سعود ، المعروفة بالطريف ، وبين منازلها الشرقية المعروفة بالبحيري
التي فيها أبناء الشيخ ^(٢) ، ورأيت موسم الرجال في جانب ، وموسم النساء
في جانب آخر ، وما فيهما من الذهب والفضة والسلاح والإبل والأغنام ،
وكثرة ما يتعاطون من البيع والشراء ، والأخذ والعطاء ، وهو مد البصر
لا تسمع فيه إلا كدوى النحل الأصوات والدكاكين إلى جانبيه الشرقي
والغربي . وفيها من الثياب والقماش والألبسة والسلاح مالا يوصف .

ولم تكن دعوة الشيخ محمد بن عبد الرهاب ومبادئه جديدة على الإسلام
فهو يتفق مع الإمام أحمد بن حنبل ومع ابن تيمية في رجوعهم جميعاً إلى
المصدر الأعلى لتلك المبادئ ، وهو القرآن الكريم ، ويتلاقى الجميع أيضاً
في نظرهم إلى السنة فابن حنبل لا يقبل من الأحاديث إلا ما أجمع عليه الأئمة

(١) محمد أحمد حسونة - أصل الوهابيين وهي محاضرة ألقاها بقاعة الجمعية الجغرافية

في ٢٢ مارس سنة ١٩٣٢ .

(٢) أبناؤه حسين الذي تولى القضاء بعد أبيه في الدرعية ، عبد الرحمن تعلم في الأزهر
بمصر ودرس به بعد ذلك في رواق الحنابلة ، عبد الله له مؤلفات كثيرة تولى القضاء بعد
أخيه حسين ، على الذي برع في التفسير والحديث والفقه ، وقد رفض أن يتولى منصبه
القضاء ، إبراهيم كان معلماً وأستاذا لابن بشر .

وهي نفس القاعدة التي وضحها ابن عبد الوهاب في قوله « الحق والصواب ما جاءت به السنة والكتاب والسنة في عرف العلماء المتأخرين هي السليمة من الشبهات »^(١) أما ابن تيمية فقد قام في أواخر القرن السابع الهجري يدعو لمبادئ ابن حنبل ، وينشر مذهبه ، ويبين أن مذاهب الأئمة كلها لا تختلف في الحق بعضها عن بعض ، وقد ألف الرسائل في الحديث والعبادات وزيارة القبور ، والواقع أن محمد بن عبد الوهاب ما هو إلا تلميذ لابن حنبل وابن تيمية قرأ لهما كثيراً فتشبع بأرائهما ودعا إليهما ، ولكن في صورة عفيفة ، زاد من عنفها شدة حنقه على البدع والخرافات التي انتشرت في جزيرة العرب في عهده . وقيام أعرام آل سعود حاملين السيف للدعوة لمبادئه بالقوة والعنف . أما هو فيعترف بأنه مدين بمعتقداته لابن حنبل أما رأيه في ابن تيمية فيتلخص في قوله عنه في إحدى رسائله « لست أعلم أحداً يحارى ابن تيمية في علم الحديث والتفسير بعد الإمام أحمد بن حنبل » ولعل ما بين ابن تيمية وابن عبد الوهاب من تشابه فيما لقياه من قومهما من اضطهاد وعنت ، قد قرب ابن تيمية إلى نفس ابن عبد الوهاب ، فقد ظهر الأول في ذلك العصر المضطرب ، عصر الحروب الصليبية في عنفوانها ، والغارات التتريّة في عنفوانها فلقية المحن منذ طفولته ، وقد كان أبوه من كبار الحنابلة وأئمتهم ، وكذلك كان أبو الزعيم الوهابي ، فشب كل منهما يمثل قوة نزعات الحنابلة في التشدد في أمر البدع ، وقد كان ابن تيمية أيضاً يحارب البدع التي غيرت الإسلام في عقائده وأحكامه عن حقيقته الأولى ، ويحارب أيضاً آثار الفلسفة في الإسلام^(٢) . وكذلك كان الوهابيون يتلقون المؤلفات التي يعتقدون أنها تروّج الناس في الشرك ، فكانوا أعداء علم المنطق وخصوصاً كتبه القديمة الممزوجة بالفلسفة اليونانية^(٣) .

(١) محمد بن عبد الوهاب كشف الشبهات (نقله ابن غنام في كتابه الفصل الثاني ص ٢٠) .

(٢) مصطفى عبد الرازق - الجانب الفلسفي لابن تيمية (نشرته مجلة الحديث ص ٧٠٨ - ٧١٥ عدد ٩ سبتمبر سنة ١٩٣٩) .

(٣) سليمان بن سحمان النجدي - الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية - الطبعة الأولى ص ٤٥ .

وأخيراً يتلاقيان فيما كان كل منهما يبذله من الجهد في محاربة زيارة قبر النبي أو قبور الأولياء ، فقد كان ابن تيمية يعتقد أن شد الرحال إلى قبر النبي معصية . وكذلك قال ابن عبد الوهاب لا يشد الرحل إلا لزيارة المسجد والصلاة فيه ^(١) ، ولكن الوهابيين كانوا حريصين على ألا يفهم أحد أنهم يقلدون ابن تيمية أو ابن القيم وفي هذا يقول عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب : إن الإمام بن القيم وشيخه ابن تيمية إماما حق من أهل السنة وكتبهم عندنا من أعز الكتب ، إلا أنا غير مقلدين لهم في كل مسألة ، فإن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك ، إلا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعلوم مخالفتنا لهما في عدة مسائل منها طلاق الثلاث بلفظ واحد في مجلس ، فإننا نقول به تبعاً للأئمة الأربعة ، ونرى الوقف صحيحاً والنذر جائزاً ويجب الوفاء به في غير المعصية ^(٢) .

ونستطيع بعد ذلك أن نستعرض أهم المبادئ الوهابية على ضوء رسائل ابن عبد الوهاب وكتبه إلى أمراء البلاد ومشايخ القبائل وعلماء الإسلام والمؤلفات التي كتبها أبناؤه وتلاميذه الذين درسوا عليه وفهموا دعوته ، وما كتبه ملوك الدولة السعودية من الرسائل والكتب ، وما ألفه الرحالة الأجانب الذين زاروا جزيرة العرب . إن ابن اشتداد الدعوة الوهابية . كان أول مادعا إليه ابن عبد الوهاب منع دعوة الأموات والاستغاثة بهم ، فهو يشدد في النهي عن دعاء غير الله حتى ليعتبر من يدعو غير الله زائفاً عن الدين ، خارجاً على أصول دعوة القرآن والسنة ، ويعزز حكمه عليهم بالآيات والأحاديث كقوله تعالى (وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً وقوله) (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين) وفي الحديث (وإذا سألت فاسأل الله) وعند الوهابيين « إن من حرف شيئاً من العبادة لغير الله فقد اتخذ لها آخر

(١) عبد الله بن محمد عبد الوهاب ، رسالة كتبها بعد دخول الوهابيين مكة سنة ١٢١٨ هـ .
طبعها مطبعة المنار سنة ١٣٤٢ هـ .
(٢) سليمان بن سحمان ص ٥٢ .

فلا يجب إذن أن يدعى إلا الله وحده ، فمن دعا غير الله واستغاث بغيره في كشف الشدائد وتجليب الفوائد فقد أشرك بالله ، والله لا يغفر للشرك . فجميع الأنبياء والأولياء لا يجعلون وسائل ولا وسائط بين الله والخلق في جلب الخير أو دفع الشر ، ولا يجعل الله لهم من حقه شيئاً ، لأن حقه تعالى غير جنس حقهم ، فحق النبي وحق الأولياء محبتهم والترضى عنهم والإيمان بكراماتهم وليس دعاؤهم ليجلبوا خيراً لا يقدر على جلبه إلا الله ، أو ليدفعوا سوءاً لا يقدر على دفعه إلا الله ^(١) .

فالتوحيد في رأى ابن عبد الوهاب هو الإخلاص لعبادة الله وحده فقد أرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى قوم يتعبدون ويتصدقون ويحجون ويذكرون الله ، ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله ، يقولون نريد منهم التقرب إلى الله وشفاعتهم عنده ، فبعث الله محمداً يحدد لهم دين أبيهم إبراهيم ويخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد بعض حق الله لا يصلح منه شيء لا لشيء مرسل ولا لشيء مقرب ^(٢) .

وهكذا يكفر الوهابيون كل من دعا غير الله أو سأل ميتاً واستغاث به في قضاء حاجاته أو تفرج كربته ، وكذلك من ذبح القرбан لغير الله أو سجد له أو خافه خوف السراء أو اتكل عليه أو عبده ، ولا يكتفى الوهابيون بتكفير هؤلاء فقط بل يأخذون على عاتقهم قتلهم حتى لا تكون فتنه ^(٣) . ولا يفرق الوهابيون بين من يعبد الأصنام ومن يتوسل بقبور الأنبياء والصالحين بل كان ابن عبد الوهاب يتم أعداءه بأن شركهم أشد من شرك الكفار ، لأن المشركين الأولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة والأولياء أو ثنائاً مع الله إلا في وقت الرخاء وأما في وقت الشدة فيخلصون لله وحده

(١) عبد العزيز بن سعود . رسالة كتبها بعنوان (من عبد العزيز بن محمد بن سعود) إلى من يراه من العلماء والقضاة في الحرمين والشام ومصر والمراق وسائر علماء الشرق والغرب) .

(٢) محمد بن عبد الوهاب . كتاب كشف الشبهات نقله ابن غنام في كتابه ص ٢٤ .

(٣) سعود بن عبد العزيز ، كتابه إلى حاكم الشام يوسف باشا سنة ١٢٢٥ هـ نقل عن تاريخ جودت الجزء التاسع ص ٣٦٢ - ٣٦٤ ، مطبعة دار الطباعة باستانبول سنة ١٢٩٢ هـ .

كما قال تعالى : « وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً » ، وقوله : « وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه » ، وقوله : « وإذا غشيهم موج كالكلال دعوا الله مخلصين له الدين » .

فمن دعا نبياً أو ولياً أو غيرهما وسأله قضاء حاجاته كان كافراً حلال الدم والمال ويستشهد ابن عبد الوهاب على صحة رأيه بأن أحداً من أصحاب النبي لم يفكر في أن يأتي إلى قبره ليسأله ويستغيث به ، فقد نهى النبي عن ذلك في قوله : « لا تتخذوا قبوري عيداً ولا بيوتكم قبوراً » ، وأن تسابحكم يبلغني أينما كنتم ، وكان عبد العزيز بن سعود يخشى أن يستغل المعارضون رأى الوهابيين فيرموهم بأنهم ينتقدون زيارة النبي فقال في إحدى رسائله : « إن زيارة قبر النبي مشروعة بشرط عدم فعل محظور عند القبر ، وألا يتخذ القبر مكاناً للصلاة لأن النبي نفسه لعن الذين يتخذون قبور أنبيائهم مساجد في قوله اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وعاد فاستشهد بما قاله الإمام مالك (لا أرى أن يقف عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ويدعو ، بل يسلم ويمضي ^(١) .

يختلف محمد بن عبد الوهاب مع معارضيه أيضاً في مسألة الشفاعة فعنده أن الإنسان إذا مات موحداً استشفع الله فيه نبيه ، فيجب أن يدعو الإنسان الله أن يشفع فيه النبي . فثار عليه الناس وقالوا هذا منطوق مقولوب . فرد عليهم يقول (أنا لا أنكر الرسول ولا أتبرأ منه بل هو الشافع المشفع وأرجو شفاعته ، ولكن الشفاعة كلها لله كما قال تعالى : « قل لله الشفاعة جميعاً » ولا تكون إلا منه بعد إذنه كما قال : « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه » ، فالنبي لا يشفع في أحد حتى يأذن الله فيه .

(١) أحمد بن ناصر عثمان النجدي ، الفوائد العذاب في الرد على من لم يحكم السنة والكتاب (وهو الذي أرسله عبد العزيز بن سعود إلى مكة سنة ١٢١١ هـ بناء على طلبه شريف مكة لينظر علماء الحرم الشريف !

وقد قال أيضا ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهو لا يرضى إلا التوحيد فإذا كانت الشفاعة كلها لله . ولا تكون إلا بعد إذنه ، ولا يشفع النبي في أحد حتى يأذن الله فيه ، ولا يأذن بالشفاعة إلا لأهل التوحيد تبين أن الشفاعة كلها لله .

ويرد الشيخ على من يقول أن الله أعطى الشفاعة لمحمد ونحن نطلبها منه قائلا : أن الله أعطاه الشفاعة ، وهما أنا عن طلبها منه عندما قال تعالى : ولا تدع مع الله أحدا^(١) . ويشدد الجدل بينه وبين معارضيه فيعترضون عليه بأن شرك عبادة الأصنام ؟ فيرد عليهم قائلا : وما عبادة الأصنام ؟ أتظنون بأن عباد الأصنام كانوا يعتقدون أن تلك الأخشاب والأحجار تخلق وترزق وتدبر أمر من دعاها . إنما كان أولئك يقولون إنها تقربنا إلى الله زلفى وتدفع عنا غضب الله ببركتها ، ولا فرق بين ما يفعله عباد الأصنام ، ودؤلاء الذين يقفون عند الأحجار والبناء الذي على القبور وغيرهما ففعلهم هو عبادة الأصنام تلك هي وجهة نظر الشيخ محمد عبد الوهاب ، في تفكير أولئك المتوسلين بقبور الأولياء والصالحين .

فالتوحيد عنده لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل ، فإن اختلف شيء من هذا لم يكن الرجل مسلما فإن عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند ، فإن عمل بالتوحيد عملا ظاهرا وهو لا يفهمه فهو منافق ، وهو في نظره شر من الكافر الخالص^(٢) .

فالوهابيون يقولون إن الفرق بيننا وبين أعدائنا في مسألة الشفاعة أننا نقول : اللهم شفّع نبينا محمدا فينا يوم القيامة ، أو اللهم شفّع فينا عبادك الصالحين ، أما أعداؤنا فيقولون : يا رسول الله أو يا ولي الله أسألك الشفاعة أو غيرها كأدركنى أو أغنى أو أشفى أو أنصرنى على عدوى ، ونحو ذلك مما لا يقدر عليه غير الله ، وذلك شرك أكبر ، قاتل عليه رسول الله .

(١) مجموعة التوحيد ص ٢٦ طبعة دلهى .

(٢) ابن غنام ص ٢٧ .

أما التوسل كأن يقول القائل اللهم إني أتوسل إليك بحاجه نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، أو بحق عبدك فلان ... الخ ، فهذه بدعة مذمومة ، ويتفق محمد بن عبد الوهاب مع ابن تيمية في تقسيم التوسل إلى ثلاث درجات :

الأولى - أن يأتي المرء الى قبر نبي أو ولي أو ما يعتقد أنه قبر نبي أو رجل صالح ويسأله حاجته في ما لا يقدر عليه إلا الله^(١) ، فهذا شرك صحيح يجب أن يستتاب صاحبه ، فإن تاب كان بها وإلا قتل .

الثانية - أن يطلب المرء من النبي أو أولى أو الشيخ الصالح أن يدعو له كأن يقول : ادع لي كما كان الصحابة يطلبون من النبي الدعاء ، هذا مشروع في الحى لا في الميت من الانبياء والصالحين .

الثالثة - أن يقول المرء : اللهم بحاجه فلان عبدك أو ببركة فلان أسألك كذا وكذا ، وهذه أخف الدرجات .

تلك هي درجات التوسل الثلاث ، الأولى منها هي الشرك الصحيح فيحل ابن تيمية وابن عبد الوهاب قتل صاحبه ان لم يتب ، أما الدرجتان الاخيرتان فلا يجوز قتل من عد توسله منها .

وعندما قامت الدولة السعودية الأولى تدعو للبداية الجديدة ، كان أمراؤها حريصين على أن يبينوا للمسلمين في مختلف أقطار الأرض أسس دعوتهم .

وقد لخص سعود الكبير مبادئ الوهابيين فيما أرسله إلى يوسف باشا حاكم الشام ، قال^(٢) « يقيننا الذي نحن عليه ، وندعو الناس إليه ، هو - الإخلاص لعبادة الله وحده ، فلا تذبح قربان إلا لله ، ولا ترجو إلا هو ولا تخاف إلا منه ولا تتوكل إلا عليه ، وأتينا تتبع الرسول صلى

(١) ذكر ابن تيمية أن شفاء الامراض والنصر على الاعداء وغفران الذنوب وتعلم القرآن وإصلاح القلوب ، كلها من الامور التي لا يجوز أن يطلب من غير الله .

(٢) تاريخ احمد جودت ، الجزء التاسع ص ٢٦٢ - ٢٦٤ ، مطبعة استنبول سنة ١٢٩٢ هـ باللغة التركية .

الله عليه وسلم ، وتوجب طاعته على جميع المكلفين ، ونستن بسنته ، ونهتدى بهداية الله . ولا نعبد إلا الله ولا نتقرب إلا إليه فمن دعا غير الله واستغاث بغيره في كشف الشدائد وجلب الفوائد فقد أشرك بالله ، والله لا يغفر المشرك وأول ما ندعو الناس إليه أن من استغاث بالله وحده وأخلص له العبادة ، وعمل ما فرض عليه فهو أخونا المسلم ، له ما لنا ، وعليه ما علينا ، ومن لم يصنع ذلك بل أقام على شركه كفرناه وقتلناه كما أمرنا الله بذلك ، ونهى عن المنكر من الزنا والسرقة وشرب الخمر والحشيشة وما يشاكلها ، وأكل أموال الناس بالباطل ونأخذ الحق من القوى للضعيف وننصف المظلوم من الظالم ، ونهى عن سائر المنكرات ونزيل البدع السيئات المحدثات ومن لم يفعل ذلك لم يعصم دمه وماله ، ومن فعل ذلك فهو مسلم لله ، له ما للمسلمين .

أما البدع السيئات التي يشير إليها سعود الكبير فمنها إقامة المزارات ، ونصب القباب على القبور ، والأدعية الفاسدة . والأذكار التي لم ترد عن صاحب الشريعة ، ويؤكد الوهابيون أن النبي نفسه نهى عن البناء على القبور بدليل ما رواه مسلم عن أبي الهياج الأسدي قال علي ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألا أدع تمثالا إلا طعسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته . .

وأنه نهى أيضا عن أن يخصص القبر أو يكتب عليه ، وأنه لعن من أسرج بها المصابيح أو القناديل حيث قال (لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج) وأنه ندب بأولئك الذين يذهبون إلى قبور الأنبياء والأولياء فيستغيثون بهم ويسجدون عند قبورهم وينذرون لهم في قوله صلى الله عليه وسلم (اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) فالوهابيون أذن لا يدعون في هذا إلى مبادئ جديدة على الإسلام ولكنهم يدعون إلى الإصلاح والعودة إلى القرآن في نقائه لكنهم يبالغون في معارضة كل ما يعتقدون أنه

بدعة مكروهه ، كالتزين بالحلى والجواهر ، وشرب الدخان وما يشبهه .

لم تكن الحركة التى دعا إليها محمد بن عبد الوهاب ديناً جديداً كما ظن بعض المؤرخين الأوربيين ، ولم تكن مذهباً جديداً فى الإسلام كما ظن الأتراك وشاع بين المسلمين من الحجاج ، ولكن تنلخص تلك الحركة فى أن محمد بن عبد الوهاب كان رجلاً من رجال الإصلاح الدينى ، وجه جموده لإصلاح ما أفسده الجهل فى الجزيرة العربية وتقويم ما أعوج من سلوك العرب فى نجد ونشر المبادئ الإسلامية فى نقائها وبساطتها .

ولكن أغلب الناس أساءوا فهم ابن عبد الوهاب كما يحدث دائماً لكل مصلح دينى أو اجتماعى . أساء فهمه أصدقاؤه وأعداؤه على السواء فإن أغلب أتباعه تغالوا أشد المغالاة فى تكفير المسلمين ففهم فئة كبيرة من البدو الذين اعتنقوا مبادئ ابن عبد الوهاب ، كانوا لا يفهمون الإسلام على حقيقته ، ومن ثم لم يدركوا دعوة الشيخ على حقيقتها واعتقدوا أن الإنحراف القليل عن تعليماته وآرائه ، كفر وزندقة ، وبذلك أصبح أغلب المسلمين ممن يخالفونهم كفاراً يحق قتلهم .

أما أعداؤه فقد ظنوا أنه أتى بمذهب جديد فى الإسلام ، يقلل من واجب التقديس والتبجيل نحو النبی صلى الله عليه وسلم ، ولذلك أعتقد هؤلاء بدورهم أن الشيخ مبتدع ، وأن أفعاره كفار .

وقد إزداد هذا الاعتقاد رسوخاً بسبب الدعاية التى كان ينشرها الشريف غالب أمير مكة بين الحجاج وأمراء الحج ضد تلك الحركة ، وما كان يذيعه الحجاج أنفسهم عند عودتهم إلى وطنهم من إشاعات وأنباء مثيرة بعثت الهلع فى نفوس الراغبين فى الحج .

وقد اعتاد الولاة العثمانيون فى بغداد ودمشق والقاهرة أن يبالغوا فى وصف سوء المعاملة التى يلقاها الحجاج من الوهابيين ، والأخطار التى تتعرض

لها قوافل الحجاج ، وذلك لكي يبرروا موقفهم إذا فشل جنودهم المرافقون للمجاهل في حماية الحجاج من قطاع الطرق ، بل إن من هؤلاء الولاة من كان يتمنى عدم سفر المحمل الذي كان يكلفهم كثيراً من النفقات^(١) لذلك كله أعتقد المسلمون في أنحاء الشرق أن الحركة الوهابية قد جاءت بتعاليم جديدة تخالف أحكام الإسلام .

إن من يدرس تاريخ نجد بخاصة وتاريخ بلاد العرب بعامة قبل ظهور الحركة الإصلاحية الكبيرة ، ليجد أن حالة هذه البلاد كانت تستدعي قيام نهضة إصلاحية واسعة النطاق ، تجتث جذور الفتن والخرافات التي شاعت في الجزيرة العربية وإذا كان الوهابيون قد حملوا مخالفهم على قبول آرائهم بالسيف والنار ، وأكروههم بالقتال على الدخول تحت رايتهم وطاعتهم ، فما ذلك إلا لأنه لا سبيل إلى إصلاح هؤلاء القوم إلا بالقوة والجبروت ، فقد كان العرب في ذلك العصر في حالة من التأخر والجهل والفوضى يصعب معها التفانم بالحجة والاقناع ، وكانت نجد على وجه الخصوص في عزلة عن العالم ، والعالم في عزلة عنها ، فما كانت سوى قسم قاحل من بلاد العرب المجذبة ، وما كان أهلها سوى أعراب وزراة يجملون طرق المعيشة الصحيحة كل الجهل ، ولا يعرفون أصول الدين الصحيح ، آمنوا بالخرافات البدع ، وبعثوا بالإسلام عن تعاليمه الأولى ومبادئه السامية . وارتكبوا ما أشرنا إليه مما ثارت له نفس محمد بن عبد الوهاب من تعظيم الاحجار والاشجار والقبور وأصحاب القبور ، فكانت عقلية المسلمين هناك عقلية عجيبة ضيقة ، فقصور الأولياء والصالحين تمتلئ بزائريها ، يذرفون فوق ترابها دموع الدم والاستغفار ، متوسلين بأصحابها ، راجين منهم العفو والغفران والشفاعة ، مريقين دماء الهدايا والقرابين ، مقدمين النذور المختلفة ، وكانت بعض المخلوقات الخافية العارضة يتخذها الناس أولياء الله المقربين ، يعلون الغيب ، ويمسكون الحياة والموت ، فلم يكن أمام السمو دين إلا دعوة هؤلاء إلى الرجوع إلى

(1) Burckhardt's Notes, P. 276.

القرآن الكريم وتنقية الدين من مثل هذه الأدران والخزعبلات ، ولكنهم كانوا يدركون أنهم ان يستطيعوا أن يغيروا ما بهؤلاء القوم بالوعظ وإقامة البرهان فحسب ، بل لابد من تحكيم السيف أيضا ان عز الاقتناع ، ولم تنفع الحجة . لذلك كانت رسائلهم الى القبائل تسبق جيوشهم تقول « القرآن في يد والسيف في الاخرى » ^(١)

وهكذا أخذت الدعوة تزحف من الدرعية ، نحو بلاد نجد الأخرى ، حتى إذا نجحت في نجد نجاحا كبيرا ، خرجت من هناك قوية معتدة بنفسها نحو العراق والحجاز ، ثم رنت بعد ذلك نحو التوسع والامتداد فطمعت في الشام وأغلب الظن أنه لولا أن المصريين والأتراك اجتمعوا على حرب هذه الدعوة وحاربوه في داره بقوى وأسلحة لا عهد لاهل نجد بها ، لكان من المرجو أن توحد هذه الدعوة كلمة العرب في القرن الثاني عشر والثالث عشر للهجرة كما وحد ظهور الاسلام كلمتهم في القرن الأول .

وقد أفادت نجد من هذه الثورة الدينية القوية ، فأصبح لها شأن يذكر ، وتاريخ يدرس ، وهناك ظاهرة يلحظها المؤرخون حتى النجديون منهم ، أن بلاد نجد منذ أن قبلت الاسلام منذ ثلاثة عشر قرنا الى عهد هذه الدعوة لم يظهر فيها عالم واحد من العلماء المنتجين ، فقد كانت طوال هذه القرون تعيش عيشة الأعراب والزراع والرعاة وما كان الخلفاء ولا الأمراء يهبونها شيئا من عنايتهم ، وذلك لجذب بلادهم وفقرها الطبيعي ، ولم يظهر من بينهم طوال هذه القرون زعيم يجتمعون حوله فيسمو بهم الى مصاف الشعوب الحية ، فلما قامت الحركة الوهابية أحدثت ثورة عنيفة في أفكار النجديين ، وبعثت بلاد العرب عامة من مرقدنا وأطلقت الأذهان من عقالها . فكثرت المؤلفون والمنتجون ، وأصبحت الدرعية كما وصفناها منبع الحركة الإصلاحية الجديدة .

(1) Jean Raymond : P. 7.

العرب والبحار

للمكتوبة سيرة اسماعيل الطائفة
المؤلف: الأستاذة بغيرم السايح

نتائج الفتوحات الإسلامية :

امتدت الفتوح العربية الإسلامية منذ وفاة النبي عليه الصلاة والسلام في سنة ١١ هـ (٦٣٢ م) حتى أواخر العصر الأموي أي مدة قرن وبعض القرن . وأصبحت الأراضي التي يسيطر عليها العرب تمتد إلى الهند والصين شرقاً ، وإلى المحيط الأطلسي أو بحر الظلمات غرباً .

ولم يكن فتح العرب فتحاً حربياً وسياسياً فقط وإنما كان فتحاً لغوياً أيضاً ، إذ انتشرت اللغة العربية في الأقطار المفتوحة بحكم استيطان العرب فيها ، ولا ننسى هنا فضل الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ = ٦٨٤ - ٧٠٥ م) الذي بدأ بتعريب الإدارة فأمر بجعل اللغة العربية لغة الدواوين المحلية في كافة البلاد التابعة للعرب ، كما لا ننسى أيضاً فضل الخليفة المأمون العباسي (١٩٨ - ٢١٨ هـ = ٨١٣ - ٨٢٣ م) الذي نشطت في عهده حركة الترجمة ونقل العلوم إلى العربية فعرب بذلك الحركة الفكرية والعقلية . كذلك كانت فتوحات العرب فتوحات عنصرية إذ اندمج العرب في شعوب البلاد المفتوحة ، فتأثر العرب بالعناصر المختلفة (من الأمم والشعوب في البلاد المفتوحة) كما تأثرت تلك العناصر بالعرب .

ولا تنسى أيضاً الفتح الديني اذ انتشر الإسلام في البلاد المفتوحة لأسباب كثيرة لا يتسع المقام هنا لبحثها .

هل كانت فتوحات العرب في البداية برية أو بحرية ؟

وكان العرب في بداية فتوحاتهم لا يرغبون في مواجهة البحر . حقاً ان أهل بلاد العرب الجنوبية في ممالك معين وسبأ وحمر ياقليم اليمن استغلوا موقعهم الجغرافي على البحر الأحمر والمحيط الهندي منذ الآلاف الثاني قبل الميلاد . فلم يكتفوا بالاتجار في حاصلاتهم الشخصية من اللبان والعطور والطيب والتوابل والبخور، بل كانوا يتجرون أيضاً في ما يرد إليهم من خليج العجم والهند والصين ، كاللؤلؤ والمنسوجات والسيوف والحريز والعاج والذهب وربش النعام . أى أنهم اشتغلوا بنقل التجارة بين مواطن المدينيات القديمة في الهند ومصر وبلاد الجزيرة والشام . وكانت سفنهم تمخر عباب البحر الواقع جنوبي شبه جزيرة العرب والذي أصبح ينسب إليهم فيقال بحر العرب أو البحر العربي .

ولكن نشاط العرب الجنوبيين الذي امتد منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد تقريباً حتى أوائل القرن السادس الميلادي كان قد اعتراه الضعف ، وتبع ذلك الضعف سقرط المدينة العربية الجنوبية ، وتبع ذلك الضعف والسقوط عن عدة عوامل اقتصادية وسياسية واجتماعية كان أهمها نجاح الرومان ثم البيزنطيين في القضاء على احتكار العرب لتجارة الشرق ، ثم انتشار اليهودية والمسيحية ، والنزاع بين أصحاب هاتين الديانتين الذي أدى إلى تسرب السيادة الأجنبية في بلاد العرب الجنوبية على يد الأحباش والفرس ، فضلاً عن الشيخوخة الطبيعية التي آلت إليها الملكية في اليمن .

ومهما يكن من أمر فالعرب عند ظهور الإسلام لم يكونوا شعباً بحرياً . ومن الطريف أن بعض المستشرقين أشار إلى أن في القرآن الكريم مواضع شتى

يذكر فيها فضل الله عز وجل على الناس بخلق الأرض . ومن ذلك قوله تعالى في سورة طه آية ٥٣ — ٥٤ (الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) . أما البحر فقد جاء وصف أحواله فى سورة النور آية ٤٠ (أو كظلمات فى بحر لجى يغشاء موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور)^(١) .

ولم يكن البحر يركب للغزو فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو فى خلافة أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب . وقيل إن أول من ركب البحر للغزو فى الإسلام ، العلاء بن الحضرمي ، وذلك فى خلافة عمر بن الخطاب ، إذ ندب أهل البحرين — وكان أميراً عليهما — إلى غزو فارس عن طريق البحر بغير إذن الخليفة . فغرقت سفن المسلمين ، وغضب عمر على العلاء ، وأمر بتأميم سعد بن أبى وقاص عليه .^(٢)

خوف عمر بن الخطاب من ركوب البحار :

وتحدثنا الروايات التاريخية المختلفة عن خوف عمر بن الخطاب من البحر وأنه كان لا يحب أن يفصل الماء بينه وبين جنوده . ولا شك أن تلك الروايات لها ما يؤكدها إذ أن العرب اختاروا حواضر البلاد المفتوحة بعيداً عن البحار . وقيل إن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية ورأى بيوتها وبناءها هم أن يسكنها وقال: مساكن قد كفيناها ، وكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه فى ذلك فسأل الخليفة رسول عمرو : هل يحول بينى وبين المسلمين

(١) راجع مقال الأستاذ هيربرت جانسكى عن « البحر فى تاريخ المسلمين وثقافتهم » وقد نشر فى كتاب : Flans Mzik: Beitrage zur historischen geographie (Leipzig 1929)p. 42.

(٢) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ٤ ص ٢١٢ — ٢١٣ (الطبعة الاولى بالطبعة الحسينية بالقاهرة) .

ماء ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل . فكتب عمرو إلى عمرو :
« إني لا أحب أن تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء
ولا صيف » . فتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط .

وقيل كذلك إن عمرو بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبي وقاص وهو
نازل بمدائن كسرى ، وإلى عامله بالبصرة ، وإلى عمرو بن العاص وهو نازل
بالإسكندرية : « أن لا تجعلوا بيني وبينكم ماء » ، متى أردت أن أركب اليكم
راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت . فتحول سعد من مدائن كسرى إلى الكوفة ،
وتحول صاحب البصرة من المسكان الذي كان فيه فنزل بالبصرة وتحول
عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط .^(١)

وقيل كذلك إن معاوية بن أبي سفيان كتب إلى عمرو بن الخطاب كتاباً
في غزو البحر يرغبه فيه ، ويقول « يا أمير المؤمنين إن بالشام قرية يسمع
أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم وهم تلقاء ساحل من سواحل حصص ،
ولكن عمرو بن الخطاب لم يستجب لذلك النداء بل كتب إلى عمرو بن العاص
« أن صف لي البحر ثم اكتب إلي بخبره فكتب إليه يا أمير المؤمنين : إني
رأيت خلقاً عظيماً يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، وإنما هم كدود
على عرد إن مال غرق وإن نجا برق »^(٢) .

ولما جاء الخليفة كتاب عمرو بن العاص ، كتب إلى معاوية بن أبي سفيان
« والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً » وكان مما جاء في كتاب
الخليفة إلى معاوية : « . . . وتالله لمسلم واحد أحب إلي مما حوته الروم
فإياك أن تعرض لي وقد تقدمت إليك ، وقد علمت ما ألقى العلاء مني ولم

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها (نيويورك ١٩٢٢) ص ٩١ ، المقرئ :
الخطوط (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) ج ١ ص ٢٩٦ ، السيوطي : حسن المحاضرة (القاهرة
١٢٢٧ هـ) ج ١ ص ٥٧ .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٥١ - ٥٢ .

أتقدم إليه في مثل ذلك ، وقيل إن عمر قال : « لا يسألني الله عز وجل
عن ركوب المسلمين البحر أبداً ! » .

وليس هناك من شك في أن الخليفة عمر بن الخطاب (١٣ - ٢٣ هـ
= ٦٣٤ - ٦٤٤ م) كان يمثل سكان مكة و عظم شبه الجزيرة العربية في
تخوفه من ركوب البحر ومن الغزوات البحرية .

لماذا ركب العرب البحار ؟

لكن ما لبث العرب أن غيروا سياستهم هذه ، إذ أملت عليهم الحكمة
والسياسة ، ارتياد البحر ، والغزو ، والمغامرة فيه ، ذلك أن الأراضي
التي بسط العرب سلطانهم عليها ، لم تكن تتلاقى عندها الطرق البرية التي
تربط بين آسيا وأفريقية ، وأوربة فحسب ، وإنما كانت تشرف على
البحر المتوسط والمحيط الأطلسي ، والبحر الأحمر والخليج العربي ،
والمحيط الهندي . وإلى جانب هذه الطرق البرية والبحرية كانت تنتشر
المجاري المائية مثل نهر النيل ، ونهر دجلة والفرات التي كانت تربط بين
أجزائه . ولم يكن من المعقول أن يعزل العرب البلاد التي تقع على شواطئ
البحار عن منافذها الطبيعية . كذلك بعد أن سيطر العرب على تجارة
البحر المتوسط والبحر الأحمر ، لم يكن من الطبيعي أن يهملوا العلاقات
الاقتصادية مع بلاد البحر المتوسط وبلاد البحر الأحمر ، أو مع الشرق
الآقصى . على أن أهم ما دفع العرب إلى التحول نحو البحر ، هو حاجتهم
للدفاع عن الأملاك الجديدة التي كسبوها . حقاً إن العرب نجحوا نجاحاً
عظيماً في بسط سلطانهم ، وفي امتلاك البر ، إلا إن البحر كان لا يزال
في قبضة أعدائهم ، لذلك رأى العرب أن لابد لهم من الاتجاه نحو البحر ،
وكان هذا طبيعياً كما ذكرنا عندما اتسعت إمبراطوريتهم وشملت شعوباً
وأماً بحرية ، وعندما اضطروا إلى محاربة شعوب بحرية .

عثمان بن عفان والبحر :

ولم يترك البيزنطيون للعرب فرصة طويلة للتردد في اقتحام البحر ، فسرعان ما أغاروا على الاسكندرية من البحر ولما يضى على فتح العرب لها سوى أربعة أعوام . إذ أرسل الامبراطور قنسطانز الثاني في سنة ٥٢٥ م (٦٤٥ م) أسطولاً كبيراً هدفه إجلاء العرب عن مصر إجلاء تاماً . وفعلاً تم استيلاء الجيش البيزنطى على الاسكندرية ، وزحف من بعدها إلى ما يليها من بلاد مصر السفلى أو اوجه البحرى ، وتخرج مراكز العرب في مصر . وكان الوالى إذ ذاك عبد الله بن سعد بن أبى سرح من قبل الخليفة عثمان بن عفان . وأرسل أهل مصر يسألون عثمان أن يرسل عمرو بن العاص لمحاربة الروم لأن له معرفة وخبرة بحربهم ، وفعلاً تم إجلاء البيزنطيين ، أمر الروم ، عن مصر على يديه ^(١) .

ولا شك أن تلك الظروف هي التي جعلت معاوية بن أبى سفيان يفكر في إنشاء أسطول في الشام . إذ أدرك معاوية ضعف سلطانه على سواحل الشام أمام قوة أسطول بيزنطة القريب من شواطئها . ورأى معاوية كيف استطاعت - أرواد تلك الجزيرة الصغيرة التي تقع شمال طرابلس الشام - أن تصمد للمقاومة ، وألا تسلم لمعاوية إلا بعد وقت طويل من خضوع بقية الشام . ولذا نرى معاوية - الذى يعتبر بحق أمير البحر الأول في الاسلام - يتجه إلى تنظيم أسطول بحرى ، ويحاول للمرة الثانية أن

(١) انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ١٧٥ - ١٧٨ ، البلاذرى : فتوح انبليد (لندن ١٨٦٦ م) ص ٢٢١ ، وتاريخ اليعقوبى (طبعة هوتسم ليندن ١٨٨٢) ج ٢ ص ١٨٩ ، الكندى . كتاب الولاة وكتاب القضاة ، (طبعة بيروت ١٩٠٨ م) ص ١١ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ (لندن ١٨٦٦ - ١٨٧٤ م) ج ٢ ص ٦٢ ، المقرئى : خطاط ج ١ ص ١٦٧ ، سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام (القاهرة ١٩٤٧ م) ص ١٦ .

ينتزع موافقة الخليفة وهو آنذاك عثمان بن عفان ، للخروج بالعرب للغزو في البحر المتوسط والسير إلى قبرص ، وأذن له عثمان ، في تردد ، وبشروط إذ كتب إليه في ذلك : « لا تنتخب الناس ، ولا تفرع بينهم ، خيرهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه »^(١) .

كذلك شرط الخليفة أن يستصحب معاوية زوجة معه وكتب إليه يقول : « إذا ركبت البحر ومعك امرأتك فاركبه مأذوناً لك وإلا فلا »^(٢) . وجمع معاوية بن أبي سفيان عدداً كبيراً من سفن مدن الشام الساحلية ومن مصر . ويذكر الواقدي أن فرق مصر الحاربة كان عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، فلما التقوا بمعاوية أصبح الجميع تحت قيادته . وكان غزو قبرص في سنة ٢٨ هـ (٦٤٨ م) ويذكر مؤرخو العرب أن الأسطول الذي هاجم قبرص بلغ ٧٠٠ سفينة وأنه استولى على الجزيرة بسمرة ، كما استولى على غنائم كثيرة ، وفرض على أهلها جزية بلغت ٧٠٠٠ أو ٧٢٠٠ دينار تدفع إلى المسلمين .

وأورد الطبري شروط الصلح فقال : إن صلح قبرص وقع على جزية سبعة آلاف دينار يؤدونها إلى المسلمين في كل سنة ويؤدون إلى الروم مثلها ليس المسلمين أن يحولوا بينهم وبين ذلك على أن لا يغزوهم ولا يقاتلوا من وراءهم ممن أرادهم من خلفهم ، وعليهم أن يؤذوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم ، وعلى أن يبطرق إمام المسلمين عليهم منهم »^(٣) .

والواقع أن غزوة قبرص التابعة لبيزنطة ، كانت غارة بحرية كما كانت عملاً دفاعياً . ولا شك أن اهتمام معاوية بقوة بيزنطة يظهر من الشرط الوارد في معاهدة قبرص ، وهو تعهد أهل قبرص بإبلاغ العرب عن أية

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٥٢ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان (القاهرة ١٢١٩ هـ ١٩٠١ م) ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٥٢ ، وقارن : البلاذري : فتوح البلدان (طبعة

القاهرة) ص ١٥٩ - ١٦٠ .

استعدادات يقوم بها البيزنطيون ضدهم ، وهذا الشرط هو الذى ذكره الطبرى بقوله « وعليهم أن يؤذوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم » . والواقع أن العرب بدموا معاركهم البحرية الأولى منذ خلافة عثمان ابن عفان ، ٢٤ — ٥٣٥ = ٦٤٤ — ٦٥٥ م) وهم مترددون من أهوال البحر ومخاطره . وكانت غزوة قبرص سنة ٢٨ هـ (٦٤٨ م) فاتحة لسياسة الفتح العربية البحرية . وما لبث أن تمت هذه السياسة البحرية بسبب اشتباك البيزنطيين مع العرب في الموقعة البحرية الذائعة الصيت التى أسماها العرب معركة ذى الصوارى . ذلك أن البيزنطيين بقيادة امبراطورهم قسطنطين قدما لغزو الاسكندرية فى سنة ٣٤ هـ (٦٥٥ م) فى عدد ضخم من المراكب وخرج الأسطول المصرى لمقابلتهم بقيادة أمير البحر الثانى فى الإسلام وهو عبد الله بن سعد بن أبى سرح وأرسل معاوية والى الشام حينذاك أسطولا تحت إمرة بسر بن أبى أرطاه ، للاشتراك مع الأسطول المصرى فى صد الروم . وحدث فى هذه الموقعة ما يشبه المعجزة إذ انتصر العرب انتصاراً باهراً على البيزنطيين رغم قلة سفنهم ، ورغم حداثةهم فى حرب البحار . والحق أن هذه المعركة كانت نصراً بحرياً كبيراً للمسلمين . ووصفها المؤرخ اليونانى ثيوفانس بأنها كانت يرموكا ثانياً على الروم . وسميت هذه المعركة باسم ذى الصوارى لكثرة صوارى السفن التى التحمت فى القتال فيها . وتسمى فى الكتب الأوربية واقعة فونيكه Phoenicus . وربما كان ذلك لوقوعها بالقرب من ثغر فونيكه غرب الإسكندرية . ولكن معظم المستشرقين يرون أن هذه الواقعة البحرية حدثت جنوبى آسيا الصغرى بجوار ثغر فونيكس Phoenix^(١) .

(١) راجع عن موقعة ذى الصوارى : خطط القرينى ج ١ ص ١٦٩ ، الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ٥ ص ٦٨ — ٧٠ .
M. Canard : Expéditions des Arabes contre Constantinople dans l'histoire et dans la légende (Journal Asiatique, Janvier-Mars 1926), Theophanes, pp. 332, 345-346, Constantine Porphyrogenitus, in J.P. Maigne Patrologia Graeca, Vol. CXIII (Paris 1894).
والدكتور زكى محمد حسن ، مجلة القنطف ص ٤٨٢ — ٤٨٣ مايو ١٩٤٤ ، سيدة كاشف ، مصر فى فجر الإسلام ص ٩٤ — ٩٦ .

كان اتوفى في العرب في قبرص ، ثم لا انتصارهم في دى الصواري آثار بعيدة المدى ، إذ أيقظت هذه العمليات البحرية روح المخاطرة في البحر لدى العرب وكذلك جعلتهم يحذرون البيزنطيين ويحتاطون منهم وبدأت بذلك مرحلة من النشاط البحري للعرب .

من وما الذى ساعد العرب في سياستهم البحرية ؟

وكان طبيعياً أن يستخدم العرب في غزواتهم البحرية شعوب البلاد التي فتحوها ، والتي مرت على ركوب البحار منذ القدم . ففي مصر أفاد العرب من خبرة المصريين البحرية ومن العمال المصريين أيما إفادة . إذ أصبحت مصر عقب الفتح مركزاً لصناعة السفن اللازمة لأسطول الخلافة كما كانت تمد هذا الأسطول بخبرة الملاحين والعمال المصريين . وأصبح اسم «الصناعة» يدل على المكان الذي تبني فيه السفن الحربية . ونرى المقرئى يعقد في كتابه الخطوط^(١) فعلا في ذكر المواضع المعروفة بالصناعة ، كما يشير في مواضع أخرى من هذا الكتاب^(٢) إلى أن الصناعة كانت بجزيرة الروضة وأنها أسست في سنة ٥٤ هـ ، ويلوح أن ذلك كان على أثر غزو الروم نجر البلس والخسارة الفادحة التي حلت بالمسلمين في قتلهم . وسميت جزيرة الروضة حينئذ «جزيرة الصناعة» كما كانت تسمى أحيانا «جزيرة مصر»^(٣) ولكننا نرجح أن الصناعة أنشئت في مصر الإسلامية قبل هذا التاريخ . ولا شك أن الذى ساعد العرب على خوض البحار امتلاكهم دور الصناعة والسفن الحربية والتجارية التي كانت لدى مصر والشام حين الفتح . فكانت السفن إما موجودة أو سهلة الإنشاء . كذلك انتفع العرب بخبرة الملاحين

(١) خطط المقرئى : ج ٢ ص ١٨٩ .

(٢) الخطط : ج ١ ص ٢٠١ .

(٣)

Maspero et Wiet : Matériaux pour servir à la Géographie d'Egypte, p. 68; et G. Wiet : Corpus Inscriptionum Arabicaarum. Egypte II, pp. 197-199.

والصناع من أهل البلاد . وليس بعيد الاحتمال أن يكون المسلمون قد بدءوا^(١) يعنون ببناء السفن الحربية منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان (٢٤ - ٣٥ هـ) . وكان اشتباك البيزنطيين مع العرب في البحار من أكبر الدوافع التي جعلت العرب يعنون بصناعة السفن في جهات مختلفة من أنحاء دولتهم . ويذكر البلاذري^(٢) أنه لما كانت سنة ٤٩ هـ هاجم الروم السواحل الإسلامية ، وكانت الصناعة بمصر فقط فأمر معاوية بن أبي سفيان بإنشاء دار للصناعة في عكا .

ولما ولي عبد الملك بن مروان الخلافة (٦٥ - ٨٦ هـ = ٦٨٤ - ٧٠٥ م) بعث إلى حسان بن النعمان عامله على أفريقية يأمره باتخاذ صناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية . وكتب عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز وإلى مصر أن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبضي بأهله وولده لإنشاء دار صناعة فيها . أما مهمة البربر هناك فكانت أن يجروا ويحملوا إلى دار الصناعة ما تحتاجه من خشب لصنع المراكب^(٣) .

ولا شك أن اهتمام عبد الملك بن مروان بالقوة البحرية اهتماماً شديداً يرجع إلى ما نالته الدولة العربية على يد بحرية البيزنطيين ، إذ ثار البربر في وجه العرب واستندوا إلى مساعدة البيزنطيين البحرية الذين ظلوا يهددون العرب من البحر إلى أن نجح حسان بن النعمان في تخريب قرطاجنة وإنشاء قاعدة بحرية أمينة في تونس^(٤) . وقوى مركز العرب في شمال أفريقية بعد اهتمامهم بالبحر وبناء السفن . والواقع أنه منذ ولاية حسان بن النعمان الغساني على أفريقية (٧٣ - ٧٩ هـ ٦٩٣ - ٦٩٩ م) أصبح شمال أفريقية مركزاً بحرياً

(١) غنوح البلدان : (طبعة لبنان) ص ١٧٧ .

(٢) أبو عبيد البكري : المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب (طبعة الجزائر سنة ١٨٥٧ م) .

ص ٢٨ - ٢٩ .

(٣) انظر : ابن عسار التراكشي : البيان المغرب في أخبار المغرب ج ١ ص ٢٢ - ٢٤ .

(٤) مكتبة صادر بيروت وحسين مؤنس : فتح المغرب للمغرب ص ٢٦٠ - ٢٦١ (القاهرة ١٩٤٧) .

ثالثاً أضيف إلى المركزين العربيين في مصر والشام . وحصن العرب قاعدتهم البحرية في شمال أفريقية باستيلائهم على جزيرة قوصرة التي تقع قرب الشاطئ الأفريقي^(١) وبسيطرتهم على المضيق الفاصل بين الشاطئ الأفريقي وجزيرة صقلية^(٢).

وحين ولي موسى بن نصير أفريقية أشرف على بناء سفن جديدة أرسلها للإغارة على صقلية وسردانية (سردينيا) وجزر البليار . ولا شك أن غارات موسى على تلك الجزر في الوقت الذي كان يعمل فيه لفتح المغرب إلى المحيط الأطلسي ، كان الغرض منها أن يشل موسى بن نصير حركات الأسطول البيزنطي من قواعده في صقلية وسردينيا وجزر البليار ، حتى لا يقع فيما وقع فيه عقبة بن نافع قبل ذلك بأكثر من عشرين عاماً حين دفع حياته وحياة جيشه ثمناً لأنه لم يكن له أسطول أو قاعدة بحرية . ويتضح من المصادر المختلفة ، ومن الأوراق البردية التي ترجع إلى العصر الأموي في مصر ، أن صناعة بناء السفن في مصر العربية كانت متقدمة إلى حد كبير وأن الصناعة كانت في جزيرة الروضة^(٣) وفي القلزم^(٤) أي السويس الحالية وفي الإسكندرية^(٥) . وكان ولاية مصر يرسلون الملاحين المصريين للعمل في أسطول المغرب^(٦) أو أسطول المشرق^(٧) وذلك للمساهمة في المشروعات البحرية العامة للدولة الإسلامية . ولم تكن السفن التي تصنع في مصر

(١) هي جزيرة صغيرة بالبحر المتوسط تبعد عن شواطئ أفريقية بنحو ستين كيلومتراً وأراضيها جبلية خصبة السهول وتتبع إيطاليا وتعرف باسم Pantellaria أما اسمها القديم فكان Csoyra ومنه اشتق اسمها لدى العرب (انظر : اسمعيل سرهنتك : حقائق الأخبار عن دول البحار ج ١ هامش صفحة ٤٠٦ المطبعة الأميرية - ببولاق سنة ١٢١٢ هـ) .
(٢) انظر : أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (ترجمة أحمد محمد عيسى) (القاهرة ١٩٦٠) ص ١٠١ .

Bell : (Der Islam, Vol. IV) p. 92. (٣)

Bell : (Der Islam, Vol. II) p. 277. (٤)

Bell : (Der Islam, Vol. II) p. 280. (٥)

Bell : (Der Islam, Vol. II) p. 279. (٦)

Bell : (Der Islam, Vol. XVII) p. 68. (٧)

وغيرها من بلاد الدولة الإسلامية معدة للحرب والجهاد فقط بل كانت هناك سفن بحرية معدة للتجارة الخارجية ، فضلا عن السفن النيلية والنهرية التي كانت تستخدم كثيراً للنقل والتجارة .

محاولات فتح القسطنطينية زمن معاوية بن أبي سفيان وسليمان بن عبد الملك :

ولم يكن نشاط العرب في غزو البحار مقصوراً على دفع الغارات البيزنطية البحرية ، أو الهجوم على الجزر التي تتخذها الدولة البيزنطية قواعد للهجوم منها على أملاك الدولة العربية وإنما أراد العرب أن يتموا ما بدأه أبو بكر وعمر ، فحاولوا القضاء على الدولة البيزنطية وغزوها في عقر دارها برأ وبحراً .

وكان من أمر الفتن الداخلية ما كان عقب مقتل عثمان . ورأى معاوية ابن أبي سفيان أن من مصلحته أن يساوم الإمبراطور قنسطانز الثاني (٦٤١ - ٦٦٨ م = ٢١ - ٤٨ هـ) على الصلح ، وأن يؤدي إليه جزية سنوية ، وكان ذلك في سنة ٥٣٨ هـ (٦٥٨ - ٦٥٩ م) وذكر هذه الجزية المؤرخ ثيوفانس وأشار إليها البلاذري إشارة سطحية . لكن بعد أن استتب الأمر لمعاوية وأصبح خليفة على المسلمين امتنع عن دفع الجزية للإمبراطور البيزنطي واستأنف الهجوم ضد البيزنطيين برأ وبحراً وكاد يصل مرتين إلى الاستيلاء على القسطنطينية نفسها . وتذكر المراجع المختلفة أن الفضل في إنقاذ القسطنطينية من أيدي العرب كان للنار الإغريقية . وكانت هذه النار شديدة الاشتعال بحيث تلتهب على سطح الماء ^(١) .

ولم يقرب اليأس إلى نفوس العرب بعد هزيمتهم مرتين أمام أسوار

(١) انظر عن النار الإغريقية .

Zenghlis, C. : "Le Feu Grecquois" in Byzantion (1932) VII, 265-88.

القسطنطينية . فترى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك يجهز حملة عظيمة لغزو القسطنطينية ولكنه مات قبل أن يسيرها . فتولى أمر تلك الحملة خليفته سليمان بن عبد الملك . وحوصرت القسطنطينية بقيادة أخ الخليفة مسلمة ابن عبد الملك (٩٨ — ١٠٠ هـ = ٧١٦ - ٧١٧ م) وكان هذا الحصار أشهر حصار اكتثرة ما ذكر عنه في التاريخ . وساعد الأسطول المصري أسطول الشام في الحصار كما كان يحدث في معظم العمليات البحرية ولكن سر النار الإغريقية كان لا يزال مجهولا لدى العرب واستطاع الأسطول البيزنطي أن يتفوق على الأسطول الإسلامي ، وأن يرد العرب عن القسطنطينية .

الدولة العربية والبحر الأحمر والمحيط الهندي :

ولم تتركز مغامرات العرب البحرية في البحر المتوسط ، وإنما ارتاد العرب كافة البحار التي أصبحت أراضيهم تطل عليها والتي تصلهم بغيرهم من الأمم . ويروي البلاذري ^(١) أن عتبة بن غزوان حين فتح الأبله ^(٢) كتب إلى عمر بن الخطاب يعلمه ذلك ويخبره أن الأبله فرضة البحرين وعمان والهند والصين .

وذكر المسعودي ^(٣) أن خالد بن الوليد حين فتح الحيرة زمن أبي بكر، خاطب عبد المسيح بن عمرو بن نفيلة الغساني وقال له ما تذكر ؟ قال : « أذكر سفن الصين وراء هذه الحصون » .

(١) فتوح البلدان . ص ٢٤٩ (القاهرة ١٣١٩ هـ و ١٩٠١ م)

(٢) الأبله بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها : بلدة على شاطئ دجلة في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة وهي أقدم من البصرة لأن البصرة صارت أيام عمر ابن الخطاب (ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٨٩ - ٩٠ الطبعة الأولى طبع مطبعة السعادة ١٣٢٣ هـ) ويقول جلاز : أن ابولوجوس Apologus هي الإبله Ubulum منذ العرب وفي النقوش الأكادية . ولم تكن بعيدة عن مدينة الحمرة وهذه تبعد نحو ٧٥ كم. عن شاطئ الخليج الفارسي .

Glaser, E. : Skizze der Geschichte und Geographie Arabiens, Vol. 2. pp. 188-189. Berlin, 1890.

(٣) مروج الذهب ج ١ ص ٦٢ (طبعة مصر سنة ١٢٤٦ هـ) .

وأشار المؤرخون الصينيون^(١) إلى الدين الإسلامى أو الدين الجديد فى «مملكة المدينة» وذكروا مبادئ الإسلام قائلين إنها تختلف عن مبادئ بوذا، وإن أتباعها لا تماثل فى معابدهم ولا أصنام ولا صور، وأضافوا إلى ذلك أن فريقاً من المسلمين قدموا إلى «كنتون» فى فاتحة أسرة «تانج» التى حكمت الصين بين عامى ٦١٨ - ٩٠٥ م قبل الهجرة بأربع سنوات (٥٢٩٣ هـ)، وحصلوا من امبراطور الصين على الإذن بالبقاء فيها. واتخذوا لأنفسهم بيوتاً جميلة تختلف فى طرازها عن البيوت الصينية. وكانوا يطيعون رئيساً ينتخبونه من بينهم^(٢). وأكبر الظن أن وصول الإسلام بحراً إلى الصين كان أسبق من وصوله براً، وذلك على يد تجار ساروا فى الطريق البحرى الذى كانت تتبعه السفن التجارية. كذلك تؤكد المصادر الصينية وصول وفد رسمى من العرب إلى عاصمة الصين فى خلافة عثمان بن عفان فى سنة ٣٠ هـ (٦٥١ م) وذلك بطريق البحر^(٣) وكان معظم المسلمين فى الصين من التجار الذين نزلوا الثغور. ولا عجب فقد كانت التجارة بين الشرق والغرب فى يد المسلمين إلى نهاية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى). وكان التجار المسلمون يبحرون من الخليج الفارسى الذى كانوا يسمونه فى القرن الثالث

(١) محمد توضع : الصين والإسلام (القاهرة ١٣٦٤ هـ) ص ٦١٤ - ٦٢ . و
E. Bretschneider : On the knowledge possessed by the Ancient
Chinese of the Arabs & Arabian Colonies, p. 6 (London, 1871),
Th. Arnold : The Preaching of Islam, pp. 294-295 (Third edition.
London, 1935).

(٢) انظر : P. Dabry de Thiersant : Le Mahométisme en Chine.
باريس ١٨٧٨) ج ١ ص ١٩ - ٢٠ ، والدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الإسلام
(القاهرة ١٩٤١) ص ٨.

(٣) انظر : بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٥٨ - ١٥٩
مكتبة النهضة المصرية - الطبعة الأولى ١٩٥٠ و
Bretschneider : On the knowledge possessed pp. 9 & 46.

واقرا عن انتشار الإسلام فى الصين مقال الاستاذ هارتمان فى دائرة المعارف الإسلامية
عمادة « الصين » الطبعة الفرنسية ج ١ ص ٨٦٦ وما بعدها .

ألهجرى (التاسع الميلادي) ، الخليج الصيني ^(١) ، ويعبرون المحيط الهندي مارين بسرنديب (سيلان) وجزائر البحار الجنوبية إلى أن يصلوا موافى الصين التجارية . وقد قل مجيء الصينيين أنفسهم إلى الخليج الفارسي منذ بداية القرن الثالث الهجري وزاد سفر العرب إلى البحار الجنوبية ^(٢) . ولا نفي أن الفضل في قيام وازدهار تجارة بحرية بين الخليج الفارسي والصين في العصر الإسلامي يرجع إلى قيام امبراطوريتين عظيمتين على طرفي الطريق . فكان العالم الإسلامي زمن الأمويين يمتد من أسبانيا وجنوب فرنسا إلى حدود الصين ٤١ - ١٣٢ هـ ، ٦٦١ - ٧٤٩ م) وظل العالم الإسلامي متحدا قويا حوالى قرن أو يزيد تحت ظل الخلفاء العباسيين فيما عدا أسبانيا وشمال أفريقيا (١٣٢ - ٢٥٧ هـ ، ٧٥٠ - ٨٧٠ م) . أما في الصين فقد ملكت أسرة تانج على امبراطورية متحدة حتى آخر أيام هذه الأسرة . وكان الصينيون يطلقون على العرب كلمة « تاشي » . وقد تكون هذه الكلمة محرفة عن كلمة « تاجر » العربية . ذلك لأن معظم العرب الذين دخلوا الصين كانوا تجارا . وقد تكون كلمة « تاشي » منقولة عن كلمة « تازي » الفارسية التي يطلقها الفرس على العرب ^(٣) . أما كلمة تازي الفارسية فهي مأخوذة من كلمة تاجك في البهلوية ^(٤) .

والواقع أن تولى العباسيين الخلافة كان قوة جديدة دفعت إلى الامام التجارة البحرية الواردة إلى الخليج الفارسي والصادرة عنه وذلك لانتقال العاصمة من دمشق إلى بغداد فضلا عن اتساع التجارة زمن العباسيين اتساعا كبيرا . ونحن نعرف أن بغداد نمت نموا عظيما وأصبحت المدينة التجارية الأولى في الشرق ، وكان هذا من شأنه تنشيط التجارة بين موافى الخليج الفارسي إلى الشرق الأقصى .

(١) انظر :

Ph. Walter Schulz : Die Persisch-islamische Miniaturmalerei.

ج ١ ص ٤٨ .

W. Heyd : Histoire du commerce du Levant (Leipzig 1923). (٢)

ج ١ ص ٢٩ .

(٣) محمد تواضع : للصين والاسلام ص ٦٣ .

(٤) انظر هرتمان Hartmann في مقال China دائرة المعارف الاسلامية ومما ذكره «ان الصيغة الفارسية مأخوذة من Tāyyāye «عرب طيء» في الإرامية .

وكانت الأبله وسيراف^(١) أهم موانئ السفن البحرية . ولكن السفن
النهرية كانت تستطاع نقل السلع إلى بغداد . فكان الحال كما كان يذكر الخليفة
أبي جعفر المنصور منشيء بغداد : « هذه دجلة ، ليس بيننا وبين الصين شيء .
فيأتينا فيها كل ما في البحر »^(٢) .

ومن المسلمين الذين زاروا الصين والهند رحلة عربي اسمه سليمان السيرافي
لأنكادنعرف شيئا عن ترجمة حياته ، ولكن وصف سياحته في الهند والصين
وصل إلينا ، إذ كتبه في سنة ٥٢٣٧ هـ — ٨٥١ م . ولهذا الوصف ذيل وضعه
في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) مؤلف من سيراف اسمه
أبوزيد حسن ، اعتمد فيه على ما سمعه من قصص الرحالة والتجار في بحار الصين
وطبعت هذه الرحلة سنة ١٨١١م على يد المستشرق لانجلس Langlis ، ثم
نشرها المستشرق رينو Reinaud مع ترجمة فرنسية سنة ١٨٤٥م . كما أتى بها
المستشرق فران Ferrand في مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية العربية
والفارسية والتركية الخاصة بالشرق الأقصى والتي ترجمها إلى الفرنسية وعلق
عليها ونشرها في مؤلف من مجلدين^(٣) وفي هذه الرحلة بيانات عن علاقة
المسلمين بالصين في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة (التاسع والعاشر الميلاديين) .
ومن هذه البيانات والأخبار أن مدينة [خانفو]^(٤) وهي التي عرفت باسم « كاتون »

(١) سيراف : هي مدينة جلييلة على ساحل بحر فارس كانت قديما فرضة الهند ..
انظر : ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ١٩٢ (الطبعة الأولى مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٤هـ
١٩٠٦ م) . ويقول فران في بحثه :
Ferrand (G.) : L'élément Persan dans les textes nautiques Arabes.
في مجلة Journal Asiatique المجلد ٢٠٠ .

(٢) (أبريل — يونيو ١٩٢٤) ص ٢٥٦ — ٢٥٧ أنها كانت في موضع قرية الظاهرة الآن .
(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٩ ص ٢٢٨ .

(٤)
Relation de Voyages et Textes Géographiques Arabes, Persans
et Turks Relatifs à l'Extrême-Orient de VIIIe au XVIIIe siècles,
traduits, revus et annotés par Gabriel Ferrand. (Paris 1913-1914).

(٥) انظر مادة « خانفو » بدائرة المعارف الإسلامية ، الدكتور حزين ،
Huzayyin (S.A.) : Arabia and the Far East (Cairo, 1942)
pp. 158-160.

والتي كانت مجتمع التجار ، كان فيها رجل مسلم ، يوليه ، صاحب الصين .
الحكم بين المسلمين الذين يقصدون إلى تلك الناحية . . . وإذا كان في العيد
صلى بالمصلين وخطب ودعا لسلطان المسلمين^(١) وما ذكره هذا الرحالة ، أن
أكثر السفن الصينية تحمل من سيراف ، وأن المتاع يحمل من البصرة وعمان
وغيرها إلى سيراف ، فيعبي في السفن الصينية بسيراف ، وذلك لكثرة
الأمواج في هذا البحر وقلة الماء في مواضع منه ، ثم وصف بعد ذلك المحطات
المختلفة التي تقف عندها السفن في طريقها إلى الصين .

وتحدث الدكتور حسين فوزي عن هذه الرحلة في كتابه حديث
السندباد القديم^(٢) وقال أنها «تعد من أهم الآثار العربية عن الرحلات البحرية
في المحيط الهندي وبحر الصين في القرن التاسع (الثالث الهجري) وربما كانت
الأثر العربي الوحيد الذي يتحدث عن سواحل البحر الشرقي الكبير
والطريق الملاحى إليها على أساس الخبرة الشخصية مع التزام الموضوع
وعدم الخروج عنه إلى أحاديث تاريخية وغيروها بما عودنا الجغرافيون
والمؤرخون العرب ، وإذا رأينا فيما بعد ابن خرداذبه وابن الفقيه
والاصطخرى وابن حوقل والمسعودى يتكلمون على أساس من المعرفة
الشخصية لبعض المواضع التي يذكرونها ، فإنهم أيضا ينقلون الكثير عن ذلك
الأثر العربي الأول بلفظه ومعناه في بعض الأحيان ، وبما يكاد يكون لفظه
ومعناه في البعض الآخر .

والواقع أن رحلة سليمان والذيل الذى وضعه أبو زيد تمتاز فضلا عن
الأخبار الوافية عن علاقة المسلمين بالصين في القرنين الثالث والرابع بعد

(١) وفي بعض المصادر الصينية أن هذا النوع من الامتيازات الأجنبية امتد الى الجاليات
الإسلامية الأخرى في الصين ، فكان لكل منها قاضيها وشيوخها ومساجدها وأسواقها .

راجع

Chau Ju-Kua : Chu-fan-chi : translated from Chinese & annotated
by F. Hirth and W.W. Rockhill (Petersburg 1911) pp. 16-17.

(٢) ص ٢١ - ٢٢ القاهرة ١٩٤٢ .

البحر، تمتزج بما فيهما من وصف صادق للطرق التجارية، ولبعض العادات والنظم الاجتماعية والاقتصادية، ولأهم المنتجات في الهند وسرنديب وجاوه والصين، مع قلة الخرافات والأساطير التي تكثر في أحاديث البحارة^(١)

وسليمان السيراني أول مؤلف غير صيني أشار إلى الشاي . فذكر أن ملك الصين يحتفظ لنفسه بالدخل الناتج عن محاجر الملح ، ومن نوع من العشب، يشربه الصينيون في الماء الساخن ويبيع منه الشيء الكثير في جميع مدنهم ويسمونه « ساخ »^(٢) . وبما ذكره أبو زيد حسن ، في الذيل الذي وضعه لرحلة سليمان ، أن السفن القادمة من سيراف متجهة إلى البحر الأحمر كانت إذا وصلت جدة أقامت بها ، ونقل ما فيها من سلع إلى مراكب خاصة تحمله إلى مصر ، وتسمى مراكب القلزم ، إذ أن المراكب الأخرى كانت لا تستطيع الملاحة في شمال البحر الأحمر ، كذلك أنى أبو زيد بكثير من أخبار الهند وسائر الأقاليم المطلة على المحيطين الهندي والهادي ، وتحدث عن العنبر واللؤلؤ والمسك ومصادرها . وأشار إلى قلة الاتصال بالصين بعد رحلات سليمان وذلك بسبب قيام ثورات فيها^(٣) .

ويظهر أن المواصلات البحرية لم تكن متصلة تماما بين الصين والشرق الأدنى في عصر المؤرخ الجغرافي المسعودي (القرن ٤ هـ ، ١٠ م) فإن السفن من الجانبين لم تعد تبجر إلا حتى مدينة تسمى « كله » في منتصف الطريق بين البلدين . وأشار المسعودي إلى ذلك في حديثه عن رجل من التجار من أهل مدينة سمرقند « خرج من بلاده ومعه متاع كثير حتى انتهى إلى العراق ، فحمل من جهازه وانحدر إلى البصرة ، وركب البحر حتى أتى

(١) انظر : الدكتور زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى : ص ٢٤ .
(القاهرة ١٩٤٥ م) .

(٢) انظر المرجع السابق ص ٥٢ ، وبدر الدين حي الصيني : العلاقات بين العرب والصين
جز ٢١١ .

(٣) انظر : الدكتور زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون ص ٢٥ .

ألى بلاد عمان ، وركب الى بلاد كله ^(١) ، وهى النصف من طريق الصين وأبحر ذلك واليه انتهى مراكب الاسلام من السيرافيين والعمانيين فى هذا الوقت ، فيجتمعون مع من يرد من أرض الصين فى مراكبهم . وقد كانوا فى بدء الزمان بخلاف ذلك ، وذلك أن مراكب الصين كانت تأتى بلاد عمان وسيراف من ساحل فارس ، وساحل البحرين ، والأبلة ، والبصرة . فلذلك كانت المراكب تختلف فى المواضع التى ذكرنا الى ما هناك ، ولما عدم العدل وفسدت النيات ، وكان من أمر الصين ما وصفنا التقى الفريغان جميعا فى هذا النصف . ثم ركب هذا التاجر من مدينة كله فى مراكب الصينيين الى مدينة خانقو ^(٢) . كذلك أشار المسعودى الى بعض أقوام السند ينال لهم « المبد » وتحدث عن قرصنتهم فقال : « ولهم يوارج فى البحر تقطع على مراكب المسلمين المجتازة الى أرض الهند والصين وجدة والقلزم وغيرها ، كاشوا فى بحر الروم ^(٣) » .

وتؤكد المصادر التاريخية أن العلاقة السياسية الدبلوماسية بين الخلفاء العباسيين والصين كانت أقوى وأوثق مما كانت عليه زمن الخلفاء الأمويين . وكان من أهم السفارات تلك التى كانت من قبل أبى العباس السفاح رأس الخلافة العباسية ، وأبى جعفر المنصور وهارون الرشيد . وسجل تاريخ

(١) لعل كله فى ولاية كيدا Kedah بالملايو الآن ، وايد هذا الراى ناشر كتاب بزرك ص ٢٥٥ - ٢٦٤ : انظر بزرك بن شهر يار الناخداه ، الرام هرمزى ، كتاب عجائب الهند بره بحره وجزايره نشر النص ب. ا. فان دير ليت P.A. van der lith وترجمة الى الفرنسية مارسيل ديفيك Marcel Devic . لوبرى Ferrand فى بحثه L'élément persan dans les textes nautiques Arabes. فى مجلة Journal Asiatique المجلد ٢٠٤ (ابريل - يونية ١٩٢٤ م) ص ٢٥٤ ، وفى دائرة المعارف الاسلامية مادة « كله » انها « Kra » (تايلاند الحالية) على الساحل الغربى لشبه جزيرة الملايو وفى مادة « China » فى دائرة المعارف الاسلامية ان كله فى مروج النخب للمسعودى ليست كله بار فى ملقا ولكن ميناء جال Galle فى الطرف الجنوبى لسيلان .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ١٩ .

(٣) المسعودى : التنبيه والاشراف (طبع عبد الله اسماعيل الصاوى بالقاهرة سنة

١٩٣٨ م) ص ٤٩ .

(الصين) خمس عشرة سفارة من العباسيين في نصف قرن بين ١٣٣ هـ — ١٨٤ هـ (٧٥٠ م — ٨٠٠ م) ولم تفصل أغراض هذه السفارات فيما عدا أنها جاءت إلى الصين لزيارات ودية أو لتقديم الهدايا . والمعروف أن هذه السفارات لم تكن كلها واردة من دولة الخلافة من دمشق أو بغداد، إذ أن كلمة «تاشي» كانت تطلق على كل «العرب» أو جميع سكان الإمبراطورية الإسلامية.

ولعل معظم هذه السفارات كان لتحسين العلاقات التجارية بين العرب والصين . وكانت السفارات التي جاءت من قبل التجار أنفسهم أكثر من التي جاءت من قبل الخلفاء^(١)

ولاشك أن الطريق البحري بين الدولة الإسلامية وبين الهند والصين كان مرغوباً فيه لدى التجار أكثر من الطريق البري، فكان هناك منذ العصور القديمة الطريق البري الذي يأتي من الصين إلى نهر أكسوس أو جيحون ويلتقي بالطريق البري الذي يسير في الجبال من الهند إلى نهر جيحون، ويتفرع بعد ذلك عند بخارى أو سمرقند فيما وراء نهر جيحون أو فيما وراء النهر، ويؤدي فرع منه إلى شمالي بحر قزوين الذي سماه العرب بحر الحر، ثم نهر الفليجا، ويسير الثاني إلى جنوب بحر قزوين فالبحر الأسود عند طرابزون والقسطنطينية، وكان هذا الطريق يعبر الجبال العالية والمسافات الطويلة، فلم يكن يصلح إلا لنقل السلع الصغيرة الحجم والغاية الثمن . وكان هناك طريق برى آخر يبدأ جنوبي الطريق الأول عند الخليج الفارسي (أو خليج البصرة أو الخليج العربي أو الخليج الصيني)، أو من إحدى المدن على الدجلة أو الفرات ثم تنقل البضائع بطريق الصحراء إلى دمشق، ومنها إلى مرآني الشام على البحر المتوسط، أو إلى مصر. أما الطريق الرئيسي الثالث جنوب الطريقين الرئيسيين السابقين فكان بحرياً في جزء كبير منه .

(١) انظر Gibb : The Arab Conquests of Central Asia, pp. 63-67.

وبنر الدين الصيني وما ذكره من مراجع ص ١٨١ ، ١٨٥ - ١٨٩ .

وكان هذا الطريق يقلل ، إلى أدنى حد ممكن ، المصاعب والنفقات الطائلة التي يسببها النقل البرى . وكان من عيوب هذا الطريق المسافة الطويلة التي كان على السفن أن يجتازها في عرض المحيط الهندي من ساحل الهند إلى البحر الأحمر . وقد أمكن التغلب على هذا العيب حين كشف الملاحون إمكان الاستفادة من الرياح الموسمية . وأفادت مصر كثيراً من موقعها الممتاز بين قارات أفريقيا وأوربة وآسية ، وظهرت قيمة هذا الموقع الجغرافي العالمي منذ عهد الإسكندر المقدوني ، أى في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد حين اتصلت مناطق الحضارة المختلفة بعضها ببعض وامتدت بينها أسباب التجارة وصلات السياسة والثقافة . وظلت مصر منذ عهد الإسكندر الأكبر تتمتع بهذا المركز الممتاز العالمي فلم تكنف بتصدير ما يزيد عن حاجة البلاد من الزراعات أو الصناعات واستيراد ما تحتاج إليه البلاد ، بل كانت تلعب دور الوسيط بين الشرق والغرب ، فكانت مخزناً للبضائع الشرقية والغربية تصدر منتجات الأسواق الشرقية إلى الأسواق الغربية وبالعكس .

وكانت السفن التي لا تفرغ السلع في اليمن بل تتقدم في البحر الأحمر تلاقى صعوبة كبيرة في الملاحة في هذا البحر . وكان علاج هذا أن تتجنب السفن الملاحة في القسم الشمالى من هذا البحر ، وأن تتجه إلى بعض الموانئ المصرية الواقعة في غربى البحر الأحمر مثل ميناء برنيقه Berenice (رأس بناس الحالية) أو Leucos Limen (القصور الحالية) أو Myos Hormos (أبو شعر الحالية) ، أو عيذاب في العصر العربى التي اشتهرت شهرة واسعة في العصر الاسلامى ، ومن هذه الموانئ تتجه التجارة عن طريق الصحراء الشرقية إلى قفط على النيل ، وتتخذ طريق النيل حتى الإسكندرية ، ومن الإسكندرية تتصل التجارة الشرقية بأسواق الغرب عن طريق حوض البحر المتوسط . وكانت السفن التجارية تواصل السير أحياناً في البحر الأحمر إلى القلزم ثم تسير في القناة النيلية التي تصل بين البحر الأحمر والنيل عن طريق البحيرات المرة ووادى طميلات . وهذه القناة أتم بحفرها الفراغة

وأعاد حفرها البطالسة والرومان، وكانت تسهل كثيرا على التجار وبستخدمونها للوصول إلى الاسكندرية عن طريق النيل بعد أن ينتهى طريق البحر عند ميناء القلزم أو السويس .

واهتم العاملون من حكام مصر فى العصور المختلفة بإصلاح الطريق الصحراوى الذى تمر فيه قوافل التجارة بين البحر الأحمر والنيل وإقامته الحاميات فيه ، وحفر الآبار على طول ذلك الطريق ، وبالقبضاء على القرصنة فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وبإنشاء الموانئ على الشاطئ الغربى لذلك البحر فى أكثر المواقع صلاحية لرسو المراكب وللاتصال بالنيل ، وبشق طرق تجارية جديدة بين البحر الأحمر والنيل وبالاتمام بالقناة التى تصل أحدهما بالآخر إلى غير ذلك من ضروب الاهتمام بالتجارة .

وإذا استثنينا الشريط البرى الضيق بين البحر الأحمر والنيل ، كانت البضائع التى ترسل من بلاد الهند والصين تسلك دائما طريق البحر وتتبع الطريق المباشر ، أى أقصر الطرق للوصول إلى موانئ إيطاليا وفرنسا وأسبانيا . واستفادت مصر بموقعها المتوسط من ذلك الطريق ، ونستطيع أن نتول عن مصر ما قاله ولیم الصورى عن الاسكندرية بأنها كانت سوق العالمين .

forum publicum utrique orbi (١)

وقد زاد نشاط مصر التجارى فى فجر الإسلام نتيجة لاهتمام العرب بالتجارة على الخصوص . كذلك كانت سياسة الدولة الساسانية تحول دون ترسع تجارة مصر فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وبعد ما زالت تلك الدولة على يد العرب وأصبحت الدولة العربية وحدة واحدة ، عاد لتجارة الشرق أهميتها ، وساعد على نشاطها إعادة حفر القناة التى كانت تصل النيل بالبحر الأحمر فى زمن الخليفة عمر بن الخطاب والتى سميت خليج أمير المؤمنين .

وقد فطن المؤرخون المسلمون إلى ذلك الموقع الممتاز الذي تتميز به مصر فكتبوا أن من فضائل مصر ، أنها فرضة الدنيا يحمل من خيرها إلى سواحلها ، وذلك أن من ساحلها بالقلزم ينقل إلى الحرمين وإلى جدة وإلى عمان وإلى الهند وإلى الصين وصنعاء وعدن والشجر والسند وجزائر البحر ، ومن جهة تنيس ودمياط والفرما فرضة بلد الروم وأقاصى الأفرنجة وقبرص وسائر سواحل الشام والثغور إلى حدود العراق ، ومن جهة الاسكندرية فرضة اقريطش وصقلية وبلد الروم والمغرب كله إلى طنجة ومغرب الشمس ، ومن جهة الصعيد فرضة بلد النوبة والبجة والحبشة والحجاز واليمن ^(١) .

ولم يكن فتح العرب لمصر سبباً في قصر تجارتها على دول الشرق وضعف علاقاتها التجارية مع بلاد الغرب إذ يتضح من نصوص جغرافي العرب كيف كانت مصر طريقاً للتجارة بين الشرق والغرب . وكذلك لم تفقد الاسكندرية مكانتها التجارية العالمية التي كانت لها قبل الفتح . فقد زار الاسكندرية بعد فتح العرب لمصر بنحو ثلاثين عاماً (حوالي سنة ٥٠ - ٥١ هـ أو ٦٧٠ م) أركولف Arculf أحد حجاج بيت المقدس فتكلم عن الاسكندرية باعتبارها ملتقى التجارة العالمية حيث يتبادل البضائع فيها شعوب لاحصر لها ^(٢) .

ولم يحاول العرب عرقلة التبادل التجاري مع غيرهم من الدول أصدقاء كانوا أو أعداء . وبين لنا امتداد العلاقات التجارية في العصور الوسطى حكاية في باب فضل القناعة من كتاب « كالستان » لسعدى الشاعر الإيراني تحدث فيها عن تاجر ثرثار أخبره أنه يستعد لرحلة جديدة ، فسأله سعدى أين تكون تلك السفرة . وأجاب التاجر : « أريد أن أحمل الكبريت من إيران إلى الصين فقد سمعت أن له قيمة عظيمة فيها . ومن هناك آخذ

(١) التويرى : نهاية الارب في فنون الادب ج ١ ص ٢٤١ (طبعة دار الكتب المصرية - الطبعة الثانية ١٩٢٩ م) ، المقرئى : خطط ج ١ ص ٢٨ (بولاق ١٢٧٠ هـ) .
(٢) Kammerer : La Mer Rouge, T.I. pp. 12-13 (Le Caire 1929) ; Heyd : Histoire du commerce du Levant, T.I. p. 41.

الحزف الصينى إلى بلاد الروم ، ثم أحمل الديباج الرومى إلى الهند ، والفولاذ الهندى إلى حلب ، وآخذ الزجاج الحلبى إلى اليمن ، والأقشة اليمنية إلى إيران ،^(١) .

وبين عالمية التجارة فى العصور الوسطى ما كتبه الجغرافى المشهور ابن خرداذبة^(٢) عن التجارة فى أواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) إذ تحدث عن التجار اليهود الراذانية الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلية ، وذكر أنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ، ومن المغرب إلى المشرق برا وبحراً .

لماذا كثرت الرحلة فى الإسلام :

وكانت الرحلة عنصراً هاماً قوياً فى حياة المجتمع العربى الإسلامى فى عصوره الزاهرة . وأصبح المسلمون يرتادون البحر والبر على السواء ، فرحل الناس لزيارة مهبط الوحي ، ولقوا فى سبيل ذلك الكثير من صعوبات السفر التى تحملوها راضين مسرورين . ورحل الناس فى طلب العلم من قطر إلى آخر ، إذ كانت مراكز العلم منتشرة فى أنحاء العالم الإسلامى . واتسع نطاق التجارة عند المسلمين اتساعاً لم يعرف فى العالم قبل كشف أمريكا ، فانتشرت قوافل التجار المسلمين فى العالم المعروف آنئذ ، وخاضت سفنهم عباب البحار والمحيطات . وحسبنا أن نشير إلى الكنوز الوافرة من النقود الإسلامية التى عثر عليها فى روسيا وفنلندة والسويد والنرويج ، بل فى سويسرا وحزيرة آيسلندة والجزائر البريطانية . وترجع قطع العملة المذكورة إلى الفترة الواقعة بين نهاية القرن الأول وبداية الخامس الهجرى (السابع وبداية الحادى عشر الميلادى) وكانت الأسواق الإسلامية مرتبطة بعضها ببعض كل الارتباط فى مشارق الأرض ومغاربها ، وكان التجار يحملون متاجرهم وسلمهم إلى حيث يرجون الربح الوفير .

(١) الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين (القاهرة ١٩٢٧ م) ص ١٧٨ .

(٢) كتاب المسالك والممالك : ص ١٥٢ - ١٥٤ (المجلد السادس من مجموعة الكتب

الجغرافية - ليون ١٨٨٩ م) .

ولاننسى أيضاً رحلة الرسل المترددين بين الملوك والأمراء ، ورحلة المغامرين الذين يجدون في الرحيل لذة لا يعدلها لذة ، ورحلة الساعين في سبيل الرزق إذا ضاقت بهم أرضهم . وقد شجع المسلمون على الرحلة خضوع العالم الإسلامي برقعة الواسعة للدولة واحدة بادية الأمر ، فلما ذهبت الوحدة السياسية بقيت وحدة الدين ووحدة اللغة ، وهاتان الوجدتان ربطتا الحجاج وطلاب العلم ، ورسل السلاطين وحمل البضائع ، وزعماء الصنائع ، فاحتفظوا بالصلة ، بل لعل الرحلة كانت أقوى في عهد التفرق السياسي مما قبله لاعتناء العالم الإسلامي درجة من المعيشة ونوعاً من الحياة ولونا من التفكير تنحتم على أفراده الاتصال والاتجار والتبادل الفكري والأدبي^(١) . ولاشك أن ازدهار التجارة الإسلامية يرجع إلى اهتمام العرب بالبحار .

العباسيون والبحر المتوسط :

على أنه ينبغي ألا يتطرق إلى الأذهان أن قيام الخلافة العباسية واتخاذها جغداد قاعدة لها ، فضلاً عن الحركات الانفصالية في الدولة العباسية ، قد قلل من اهتمام العرب بالبحر المتوسط وزاد من اهتمامهم بالبحار الشرقية . إذ برهنت الحوادث على أن الدول المنفصلة عن الخلافة العباسية والتي تطل على البحر المتوسط ورثت اهتمام الخلافة الإسلامية بهذا البحر فضلاً عن اهتمام بعض الطوائف والأفراد الذين كانوا يعملون في ظل إحدى الحكومات المسلمة التي تتبع الخلافة أو المستقلة أو يعملون لحسابهم الخاص .

ونلاحظ أنه لما تم للعرب ملك الأندلس أنشأ أمراؤها دور الصناعة في طركونة واشبيلية والمرية على غرار دور الصناعة في مصر والشام وشمال أفريقيا ثم أصبح الأندلس قوة بحرية لها حسابها زمن عبد الرحمن الثالث

(١) انظر : الدكتور زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون ص ٥ - ١١ ، نقولا زيادة : رواد

الشرق العربي في العصور الوسطى ص ٦٠ - ٦١ (هدية المقتطف السنوية سنة ١٩٤٢ م) .

(الناصر) (٣٠٠ - ٥٣٥٠ - ٩١٢ - ٩٦١ م) إذ سيطر على جزر البليار والقواعد الأمامية على طول ساحل فرنسا الجنوبي .

ولم تكن نكبة العرب أمام أسوار القسطنطينية حائلا دون تقدمهم في البحار والحوص فيه للغزو أو للتجارة أو لتأمين بلادهم ، بل إن نكبتهم هذه في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) جعلتهم يفكرون في روعة البحر وأهواله . وكان القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) عصر التجارب البحرية والدفاع من ناحية المسلمين ، وظهرت جميع حواضر العالم الإسلامي بعيدة عن البحر لتكون في مأمن من مفاجآته فقيت عاصمة مصر في الفسطاط ، وكانت عاصمة الأغالبه في تونس ، وعاصمة الأدارسة في فاس ، وعاصمة الأندلس في قرطبة . ومنذ أوائل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) تبدل الحال وكانت الأساطيل الإسلامية تجوس خلال البحر المتوسط من أقصاه الى أقصاه . فكان هناك أسطول الأغالبه في شمال أفريقيا ، وأساطيل الطولونيين والإخشيديين في مصر والشام ، ثم أسطول الفاطميين الذين ورثوا أسطول الأغالبه - وكان هناك أسطول الأندلس . وأصبح العرب الذين يظلمون على شواطئ البحر المتوسط في أواخر القرن الثالث الهجري (أواخر التاسع الميلادي) في مأمن من أى غزو لأول مرة منذ عام ٢٥ هـ (٦٤٥ م) . وكان الذى كشف ضعفه بينظله البحرى بعد صراعه المبر مع دول البحر المتوسط الإسلامية من أجل الاحتفاظ بالسيادة في البحار ، جماعة من الأندلسيين كانوا قد خرجوا من وطنهم مطرودين في عهد ملكهم الحسك بن هشام الأموى على أثر وقعة الربض بقرطبة في رمضان سنة ١٩٨ هـ (٨١٤ م) ونزل فريق منهم بالاسكندرية وكان عددهم حوالى ١٥٠٠٠ شخص ، فيما عدا النساء والأطفال^(١) وأشأ.

(١) انظر :

Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne (Leyde 1932) T.I. pp. 296-300.

هؤلاء الأندلسيون في الاسكندرية جمهورية شبه مستقلة مستغلين الفوضى في مصر حينذاك أثناء النزاع بين الخليفة الأمين وأخيه المأمون ، وما تلا قتل الأمين من فوضى عمت أنحاء الدولة الإسلامية . ولما نجح قائد المأمون - عبد الله بن طاهر - في القضاء على النزعات الاستقلالية التي ظهرت في مصر حينذاك وفي إعادة مصر إلى حظيرة الخلافة ، سار إلى الاسكندرية في سنة ٥٢١٢ هـ (٨٢٧ م) ليتم نصره على مصر كلها وصالح الأندلسيين على أن يسيرهم من الاسكندرية حيث أحبوا فخرجوا إلى جزيرة أقيوطس (كريت) وعلى رأسهم زعيمهم أبو حفص عمر البلوطي وملكوهادون كبير مقاومة من البيزنطيين وكانت كريت قد تعرضت لغزو العرب في دور الفتوح الأول . لكن فتحهم اتم على يدهؤلاء الأندلسيين . وكان العرب قد حفرُوا في الجزيرة خندقاً يسترون فيه فلما تم احتلالهم للجزيرة قامت هناك مدينة سميت الخندق وهي مدينة قنديا الحالية . ولم يستطع البيزنطيون استرداد الجزيرة إلا في أواسط القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي ^(١) وتقهقرت قوة البيزنطيين البحرية أمام أسطول الأغلبة (١٨٤ - ٥٢٩٦ = ٨٠٠ - ٩٠٨ م) منذ القرن الثاني الهجري (التاسع الميلادي) ، إذ غنى الأغلبة في شمال أفريقية بأسطولهم واستطاعوا أن يقبضوا سيادة في مياه البحر المتوسط واستطاعت سفنهم أن تغير المرة بعد المرة على سواحل إيطاليا وفرنسا وجزر قورسيقا وسردينيا وكريت ، فضلاً عن نجاحهم في الاستيلاء على صقلية والقضاء على الحكم البيزنطي فيها كما استولوا أيضاً على مالطة .

فتح مالطة :

أما مالطة فغزاها إبراهيم بن الأغلب صاحب أفريقية (تونس الحالية) ومؤسس دولة الأغلبة في القرن الثاني الهجري (التاسع الميلادي) ثم تم

(١) انظر : سيده كاشف : مصر في فجر الإسلام ص ١٦٧ - ١٧٦ وما ذكرته من مراجع
وارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ص ١٦٩ - ١٧٠ ،
تقولا زيادة : صور من التاريخ العربي : ص ٤٤ - ٤٥ (دار المعارف بمصر ١٩٤٦) .

فتحها في أواسط القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) على يد الأسطول
الأغلبى . ومن مالطة كانت تخرج سفن الغزو العربية إلى بروفانس وإيطاليا
وما إليها . وظلت مالطة تابعة للعرب حتى سنة (٤٨٣ هـ = ١٠٩٠ م حين
انتزعها منهم النورمانيون الذين كانوا قد ظهوروا على مسرح السياسة والحرب
في البحر حينذاك .

وفي مالطة امتزج العرب بأهل البلاد ولا تزال آثار العرب في مالطة
واضحة في الألفاظ العربية الكثيرة الموجودة في اللغة المالطية . وفي أسماء
البلاد في الجزيرة وفي نقوش كثيرة وفي قطع من السكة العربية . وفي مالطة
ظاهر عالم اسمه المالطى كان أحد الذين نقل عنهم ياقوت الحموى ، صاحب
معجم البلدان ومعجم الأدباء ^(١) .

العرب في صقلية :

واحتفظ التاريخ للأغلبة بفتح صقلية التي كانت تتبع البيزنطيين . وعرف
العرب صقلية وخيراتها منذ أغار عليها أحد قواد معاوية سنة ٢٢ هـ (٦٥٢ م)
ثم في سنة ٣٤ هـ (٦٥٥ م) وهي السنة التي هزم فيها المسلمون أسطول بزنطة
عند الاسكندرية في معركة ذى الصواري . وفي القرن الثاني الهجري (الثامن
الميلادي) بدأت جماعات من غزاة المسلمين تتسلل من شمال أفريقية
والأندلس إلى بعض جزر البحر المتوسط وتوقع الرعب في قلوب سكان
صقلية وقورسقه وسردانية . لكن احتلال المسلمين لصقلية لم يتم إلا على
يد الأغلبة ، فإن زيادة الله بن الأغلب بعث سنة ٢١٢ هـ قائده ووزيره
أسد بن الفرات على رأس عمارة بحرية قوامها أربع مائة سفينة وثلاثون
ألف مقاتل استطاعت أن تفتح بلرم بعد حصار خمس سنين . وكتب زيادة
الله إلى الخليفة العباسي المأمون يبشره بالفتح . ثم تابع الأغلبة حملاتهم

(١) انظر : نيقولا زيادة : صور من التاريخ العربي ص ٤٦ و ٥٠ .

حتى وقعت الجزيرة كلها بأيدي العرب . وكان فتح صقلية عبارة عن عمليات حربية متقطعة استمرت نحو خمس وستين سنة .

ولما خلف الفاطميون بني الأغلب في شمال أفريقية أعادوا إخضاع صقلية . لكن المنافسات بين العرب في صقلية والحروب الأهلية فيها ، ثم ظهور النورمنديين ، كل هذا أدى إلى القضاء على سيادة العرب فسقطت الجزيرة في يد النورمنديين سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩٦ م) .

وما يستلقت النظر أن البحرية الإسلامية في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) أصبحت تجهز بالنار الإغريقية أو بتركيب نفطى مشابه للنار الإغريقية . فالحراقات التي استخدمها الأغلبة قرب صقلية عام (٨٢٢٠ = ٨٣٥ م) كانت سفننا من قاذفات اللهب ، تقذف مادة سريعة الاشتعال ^(١) .

حضارة العرب في صقلية :

وكان لفتح الأغلبة جزيرة صقلية شأن كبير في قيام الحضارة العربية الإسلامية فيها . وثبتت جذور هذه الحضارة في عهدهم ثم في عهد الفاطميين ، وحتى في عهد النورمنديين بعد أن زال سلطان المسلمين السياسى عنها . والواقع أن حضارة العرب في صقلية وصلتها بالآوريين الذين كانوا يتطلعون إلى علوم المسلمين في ذلك الوقت ، كانت أحد الأسس التي بانتقالها إلى أوروبا عملت على بعث الحياة الفكرية أيام النهضة الأوربية .

ومن الرحالة والجغرافيين المسلمين الذين زاروا صقلية وأعجبوا بالعمران والرخاء فيها ابن حوقل إذ زارها في سنة ٣٦٢ هـ وترك لنا في كتابه

(١) قارن : ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ص ٢١٤ .

« المسالك والممالك » وصفاً لمدينة يرم ، سجنل فيها إعجابه بعمارتها ولا سيما مسجدها الكبير .

وبقى اسم صقلية متصلاً بأعظم علماء الجغرافيا وراسمى الخرائط في العصور الوسطى وهو الشريف الإدريسي الذي ولد في سيبته بالمغرب الأقصى سنة ٤٩٣ هـ = ١١٠٠ م ، إذ وقع اختيار روجر الثاني (رجار) النورمندی عليه ليؤلف له كتاباً شاملاً في وصف مملكته في صقلية وجنوب إيطاليا ، وفي وصف سائر البلاد المعروفة حينذاك . وأصبح الإدريسي ألمع رجال البلاط النورمندی وصنف رسائلته المشهورة (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) المعروفة باسم « كتاب رجار » ، والتي ترجمت إلى اللاتينية في القرن للسابع عشر الميلادي .

غزو العرب لإيطاليا ولروما وغيرها :

وفي الفترة التي كان العرب فيها سادة البحر المتوسط ، اتخذوا من قواعدهم البحرية مركزاً للهجوم على شواطئ أوروبا ومدنها ، فسكّرت إغاراتهم في بحر أيجه والبحر الأدرياتي وأنشأوا قاعدة قوية للغزو في ثغر باري (بارة) في كالابريا في أقصى جنوب إيطاليا وهي التي سماها العرب قلورية أو الأرض الكبيرة أو البر الكبير .

غزو العرب لروما مرتين :

ولعل الغارة البحرية التي تستحق الذكر هي غزو العرب لرومة . والواقع أن المغامرين من أمراء البحر العرب كان لهم الفضل الأكبر في إحراز سيادة العرب في البحر المتوسط ، وفي القيام بمثل هذه الغارات والغزوات . وكان غزو العرب لروما عن طريق البحر في سنة (٢٣١ هـ - ٨٤٦ م) إذ سارت حملة كبيرة من صقلية نحو الشمال بحذاء الشاطئ الايطالي وهاجمت ثغوره ونهبت موانئه وحاصرت بعضها عند مصب التير . وانقضت البحارة العرب

على مدينة القيصرية ، وارتاع البابا سرجيوس الثاني ، واهتز الشعب الروماني رعباً . ولم ينقذهم في النهاية سوى الخلاف الذي دب بين البحارة المسلمين أنفسهم فرفعوا الحصار عن المدينة الخالدة وعادوا إلى الجنوب مثقلين بالغنائم والأسرى (٨٥٠ م) . وعاد العرب مرة ثانية إلى غزو رومة بعد نحو عشرين سنة (٥٢٥٦ - ٨٧٠ م) ، وأشرف الأغلبة والصقليون على تجهيزها واتخذت جزيرة سردينية مكاناً للاجتماع وقاعدة للهجوم .

والتقى الأسطول العربي وأسطول المدن الإيطالية عند مصب التيبر لكن العواصف حالت دون اشتباك قوى .

ولبت العرب زمناً طويلاً يهددون روما حتى اضطر البابا يوحنا الثامن أن يفاوضهم في الجلاء على أن يدفع لهم أتاوة مقدارها خمسة وعشرون ألف مثقال من الذهب^(١) .

ليون الطرابلسي :

وإذا كنا في معرض الكلام عن المغامرين العرب في البحار فجدد بنا أن نشير إلى بحار مسلم اشتهر باسم ليون الطرابلسي . وظهر هذا البحار في أواخر القرن الثالث الهجري (أواخر القرن التاسع الميلادي) . وتفويض الرواية البيزنطية في سرد حملاته وغزواته البحرية الجرئية على ثغور الدولة البيزنطية ، وما كانت تحدثه هذه الغزوات في الدولة وثغورها من الرعب والاضطراب . واجل أعظم غزوة قام بها ليون الطرابلسي هي غزوته لثغر

(١) انظر في غزوات البحارة المسلمين لروما : تاريخ ابن خلدون ، محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ، نقولا زيانة : صبور من التاريخ العربي . و Gibbon : Decline & Fall of the Roman Empire.
Finlay : Byzantine Empire.

سلانيك الذى كان من أعظم ثغور الدولة البيزنطية وأغناها بعد القسطنطينية وذلك فى سنة ٩٠٤ م (٥٢٩١) ولعل ليون الطرابلسى هذا هو الذى يسميه المؤرخ ابن الأثير « غلام زرافة »^(١).

والواقع أن احتلال العرب لجزر البحر المتوسط واتخاذها مراكز للغزو يكون فصولا ممتعة فى تاريخ المغامرات البحرية . وكان لأمراء البحر العرب حينذاك شأن كبير فى تقرير السياسة البحرية وتعيين طرق المراكب التجارية .

ونحن لا نشك أيضاً فى أن العرب اتخذوا الأساطيل فى المحيط الأطلسى للدفاع عن ملكهم فى المغرب والأندلس بل اتجهت بعض الأبحاث العلمية الحديثة إلى القول بأن المسلمين عرفوا أمريكا قبل أن يكتشفها كولومبس .

وطببعى أن العرب عرفوا شيئاً كثيراً عن سواحل هذا المحيط وعن الجزائر غير البعيدة عنها . ولكن نجد فى بعض المصادر التاريخية العربية ما يشهد بأنهم حاولوا النفوذ إليه والتوغل فيه . ومن ذلك حديث فتية من مدينة لشبونة قاموا فى المحيط برحلة جريئة فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وعادوا منها بعد تجارب قاسية وأحوال شديدة . وعرفت قصتهم فى التاريخ باسم « قصة الفتية المغربين » (أو المغربين ، من الاتجاه إلى المغرب)^(٢) .

والواقع أن سيادة المسلمين فى البحار كان لها أهمية عظيمة إذأنها أنعشت

(١) راجع : ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٦ ص ٦٠٩ (القاهرة ١٣٥٢ هـ) وفيما يتعلق بحملات ليون الطرابلسى راجع : مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام لفيسد الله عنان ص ٧٧ - ٨٢ .

(٢) انظر قصة الفتية المغربين ومناقشة هذا الموضوع فى : الدكتور زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٤٦ - ٥١ .

التجارة الدولية على طول طرق التجارة الدولية القديمة ، وزاد استقرار المسلمين في البر ، في نتائج وخطورة غزواتهم البحرية . وبفضل القوة البحرية انتشر التعامل بالذهب شرقاً وغرباً في أرجاء العالم الإسلامى فعدل الأندلس عن قاعدة الفضة ابتداء من القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) . وفى أواخر القرن التاسع الميلادى وأوائل العاشر أصبحت العراق وإيران وبلاد المحيط الهندى التى بين جزيرة مدغشقر وساحل ملبار تتبع قاعدة الذهب بدلاً من قاعدة الفضة ^(١) .

ويظهر أن الرخاء الوفير الذى نعم به المسلمون دعاهم إلى إهمال الغزو البحرى وأتاح هذا الإهمال لخصومهم أن ينتزعوا منهم السيادة في البحار شيئاً فشيئاً .



وبعد فهذا عرض يحمل عن خوض العرب في البحار وغزواتهم فيه . وأهمية البحار لحياتهم الإقتصادية ولتأمين إستقلالهم ، وعن فوائد البحار لتدعيم علاقاتهم بغيرهم من الدول والشعوب . ولعل من أمتع ما كتب في تخليد تفوق العرب في البحار ، وسيادة الأساطيل الإسلامية ، ما كتبه ابن خلدون في مقدمته في الفصل الرابع والثلاثين تحت عنوان « قيادة الأساطيل » .

ولا يزال تاريخ البحرية العربية يحتاج إلى بحوث طويلة لأن أحبار البحر وركوبه كثيرة في كتب الأدب والتاريخ وتكوين البلدان ، فضلاً عما دورته مصادر البلدان والأمم التى اتصل بها العرب . وهذه تمدنا بالمعلومات الكثيرة في مختلف النواحي الخاصة بالبحر وركوبه ، فضلاً عن وصفه

(١) انظر : ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٢٦١ .

وأسماء المراكب والأساطيل البحرية والتجارية في الأمم الإسلامية المختلفة ،
وما عرف عن تقاليد المسلمين في القتال في البحر ، واصطحاب نساءهم
في المعارك البحرية في بعض الأحيان .

ولا يزال المجال واسعاً أمام الباحثين في هذا الميدان المنشعب الذي
يعد بحق من الصفحات المشرفة في تاريخ العرب .

الحضارات الأفريقية .. وفكرة الانتشار الحضاري وطوره في أفريقيا

للدكتور كوتر عبد المبرك
الامتياز المساعد الجغرافيا
كلية البنات الإسلامية

من الموضوعات الهامة في دراسات الجغرافيا البشرية والجغرافيا الاجتماعية بالذات هجرات الحضارات وانتشارها ودراسة طرق هذه الهجرات . ذلك أن الهجرة البشرية من مكان إلى مكان — سواء كانت تلك الهجرة تمثل تحرك جماعة من البشر في صورة هجرة جماعية أو فردية ، أو سواء كانت تلك الهجرة تمثل انتقال نماذج من حضارة جماعة إلى جماعة أخرى — أمر معترف به من جميع مصادر البحث في علوم إنسانية عديدة أهمها الجغرافيا والأنثروبولوجيا والاجتماع .

ولا يتمصر دور الهجرة بهذا المفهوم الواسع على أنه أمر معترف به من جانب عدة علوم ، بل إنه بدون الإعراف به لا يمكن تفسير كثير من التشابه في درجاته المختلفة بين نظم اقتصادية إجتماعية سياسية في عديد من الشعوب ، وتفسير تطور وسائل الإنتاج من الكفاية الذاتية البدائية إلى الزراعة والصناعة الحديثة .

وقد عالج كثير من العلماء — كل في ميدان تخصصه — هجرات الناس والحضارات في العالم القديم والحديث . وفي فترة مامن الزمن اشتد شغف عدد من العلماء بمسألة هجرة الحضارات . وبالغ البعض مبالغة شديدة . ومن

وهؤلاء من تعصب لمصر كمرکز لا انتشار عدد من عناصر الحضارة العليا في العالم ومن أهمهم اليوت سميت Smith وبري Perry ومنهم من تعصب لحضارات ما بين النهرين على أنها مركز إشعاع الحضارة العليا في العالم ، مثل راجلان Raglan وهيليداي Hilliday ومنهم من أخذ عنصرا حضاريا وحاول تطبيقه على العالم بوصفه أنه مصدر الحضارات كلها ، ومن هؤلاء هو كارت Hocart^(١) الذي نادى بأن حضارة الملوك هي الأصل الذي استمدت منه حضارات العالم جميع أشكالها — ذلك أن الطبقات المختلفة تحاول دائما التطلع إلى أعلى وتقليد حضارة أعلى الطبقات ، وهذه هي حضارة الملوك . ولقد بلغ التعصب لمثل هذه النظريات الانتشارية حدا جعل العلماء التاليين ينفرون تماما من فكرة الانتشار ويذهبون إلى حد التطرف برفض كل انتشار حضارى وبشرى . وهؤلاء أيضا مخطئون . فهم قد كادوا أن يجعلوا العالم حضارات مختلفة منفصلة تماما عن غيرها في نشأتها وتطورها . وانتهى هذا التضارب في الآراء إلى الاعتراف مرة أخرى بالانتشار بين معظم الباحثين باستثناء عدد منهم معظمهم في إنجلترا ، وذلك بسبب سيادة نظرية الوظيفة في الدراسة الحضارية — وهذه النظرية وإن كانت قد أدت خدمة جليلة من أجل دراسة ناحية هامة من نواحي الحضارة — وهي التركيب الاجتماعى ودراسات القرابة في المجتمعات إلا أن هذه النظرية لم تولد الإنجليزية ، بل نشأت فرنسية على يد أميل دوركايم وطورها بولندى هو برونسلاو مالينوفسكى واحتضنها الانجليز بشيء كثير من التعصب والتطوير .

وسبب هذا الاختلاف المذهبي في مراحل الزمنية المختلفة إلى عصرنا الحديث يعود إلى عدد من الحقائق التى يتشبه كل منهج بإحداها على أنها

(١) يراجع هؤلاء المؤلفين الكتب التالية :

Smith, G. E., 1929. "The Migrations of Early Cultures"

Manchester.

Hocart, A. M., 1927. "Kingship" Oxford. And 1936 "Kings and Councillors". Cairo.

العامل الحاسم في نشأة وتطور الحضارة . وفوق كل هذا فإن هناك مبدأ معترف به هو مبدأ وجود عناصر حضارية متشابهة تنشأ نشأة منفصلة مستقلة عن بعضها في أقاليم جغرافية متباعدة . وهناك أيضاً مبدأ آخر يقول إن عدداً من العناصر الحضارية تنشأ مرة واحدة في منطقة واحدة ثم تنتشر من مركز نشأتها إلى مناطق جغرافية متقاربة ومتباعدة على حد سواء . وكلا المبدأين معترف به من جانب العديد من العلماء . ويكون الاتفاق على أشده في تطبيق المبدأ الثاني على عدد من العناصر الحضارية التي دفعت بالعالم دفعا إلى مراحل التطور الكبرى . مثال ذلك أن الزراعة عرفت أولاً في الشرق الأدنى وانتشرت منذ إلى بقية أرجاء العالم . وكذلك الصناعة نشأت في الإقليم الحضارى الذى كونه دول غرب أوروبا في القرنين الماضيين .

وعلى أية حال فإن الانتشار الحضارى — بعد الدفعة الاولى الفاشلة — قد أصبح له قواعد ثابتة علمية تجعل الباحث يقف كثيراً عندما يرى عنصرين حضاريين متشابهين . فقبل أن يقول كلمته الأخيرة عليه أن يحلل الموقف تحليلاً دقيقاً فلا يأخذ فقط بالتشابه الظاهرى بين العنصرين الحضاريين ، بل عليه أن يدرس تركيب ووظيفة مثل هذا العنصر الحضارى بين مجموع النظام الحضارى الذى يعيش فيه ، وأن يحلل دوره في عالم الفكر الكورزمولوجى والدينى ، أو في تنظيمات المجتمع الإقتصادية والاجتماعية . وفي هذا المجال نذكر الأستاذ كوبرز Koppers حين يقول بحملا فكرة الانتشار :

We speak of such parallels if we meet identical or similar cultural phenomena in different parts of the world. In any given case, the question whether or not we are faced with true relation will depend on the degree of conformity and the number of parallel traits, i.e., on the "criteria of form and of quantity". Whenever the question is to be answered in the affirmative, this will have to be considered as a proof of diffusion". (٢)

Koppers, W., 1955. "Diffusion : Transmission and (٢)
Acceptance" Year book of Anthropology. New York.

ولاشك أن التشابه في الصورة المتكاملة ليس موجودا في الطبيعة الحضارية بل أنه نظراً لأن هناك حضارات متفاوتة في الأسس والجذور والتكيف فإن التشابه لا يكون كاملاً في شكله ولا في وظيفته ولا في دوره تماماً في تنظيمات المجتمع الإقتصادية والاجتماعية . إنما يحدث تداخل ويطرأ على العنصر الحضارى كثير من التغيير ويتشكل في صورة جديدة ، وإن بقيت أصوله غير معروفة وتفسر دائماً في صورة أسطورية . ومن ثم فإن التوصل إلى دراسة التشابه الحضارى لعدد من العناصر يحتاج إلى وصف دقيق للعناصر الحضارية منفصلة ومتفاعلة ، وتحليل دقيق لوظائف العنصر الحضارى في حد ذاته وفي تشابكه وترابطه مع غيره من العناصر التي تكون البناء الحضارى . ثم هناك أيضاً ضرورة الالتجاء إلى دراسات أخرى لتأكيد القرار الذى سيتخذه الباحث . ومن أهم هذه الدراسات علم انثروبولوجيا الطبيعية الذى يدرس السلالة والجنس ، ودراسة ما قبل التاريخ وأركيولوجية ودراسة أو ثائق التاريخية إن وجدت والدراسات اللغوية الخ ...

والعادة أن تنتشر العناصر الحضارية من الحضارات العليا إلى الحضارات الأقل تطوراً وخاصة في أفريقيا . ولكن هذا لا يمنع إطلاقاً دخول عناصر حضارية بدائية إلى الحضارات العليا ، وتنتشر الحضارة بطرق مختلفة أهمها هجرة جماعات انسانية من أقليم إلى آخر حاملين معهم عاداتهم وبنائهم الحضارى . مثل هذه الهجرات تنتج لأسباب عديدة أهمها التوسع والغزو أو ازدياد السكان والبحث عن مناطق رزق جديدة ، أو الاضطهاد والظلم . وتتخذ الهجرة إما شكل موجة بشرية كبيرة وإما تسرب مستمر لجماعات قليلة العدد على مدى زمنى طويل . والهجرة التي تأخذ شكل موجة كبيرة تؤدي إلى عدم تجانس حضارى لفترة طويلة . أما التسرب المستمر لجماعات قليلة العدد فيؤدي إلى انسجام العناصر الحضارية الجديدة والقديمة معا . والهجرة الناجمة عن الغزو تؤدي إلى ثنائية في الحضارة : فيصبح هناك حضارة الطليقة الحاكمة وحضارة مجموع الشعب .

وليست الهجرة البشرية هي العامل الوحيد في هذا المضمار بل إن هناك النقل الحضارى نتيجة التجاور المكاني، أو العلاقات التجارية أو الاشتراك في المصالح الاقتصادية التي تستلزمها العلاقات المكانية — سواء كان ذلك الاشتراك سلمياً أم نزاعاً حربياً .

وعلى الرغم من التسليم بمبدأ الانتشار الحضارى بالنسبة لعدد معين من عناصر الحضارات إلا أنه يمكن القول بصفة عامة أن معظم الحضارات البشرية البدائية والعالية قد تأثرت ببعض بحيث يندر أن يوجد شكل حضارى لم ينقل عن غيره بعض العناصر . ومع ذلك فإن هناك في الوقت الراهن درجات من التأثير أيضاً كما كان في الماضي . وسبب ذلك متعدد النواحي ، لكن يكفي أن نقول هنا أن الموقع الجغرافي والأحوال الجغرافية الطبيعية للأقاليم المختلفة قد أدت إلى تباين مدى التأثير والتأثير . فمناطق العزلة الجغرافية هي أقل المناطق الحضارية اختلاطاً وأكثرها محافظاً ، في حين أن المناطق التي تقع على الطرق الهامة التي رسمتها الطبيعة ، والتي استغلها الإنسان في تحركاته كجموع مهاجرة ، أو في اتخاذها كطرق اتصال وتجارة ، قد أصبحت أكثر المناطق الحضارية تعقيداً في التركيب وأقلها جوداً . وهكذا تتميز مناطق الاختلاط والاحتكاك بمرونة العناصر الحضارية وقابلية المجموع الحضارى لاستيعاب مظاهر حضارية جديدة .

طرق الهجرات في أفريقيا

وأفريقيا تماثل آسيا في أنهما القارتان اللتان تتميزان بظهور الفوارق الحضارية ظهوراً واضحاً . وربما فاقت أفريقيا آسيا في هذا المضمار . وسبب ذلك راجع إلى الطبيعة الجغرافية للقارة من حيث وجود عدد كبير من مناطق العزلة والاتجاه ، والعوائق الطبيعية ضد الاتصال والاحتكاك بين الشعوب ، بل إن نصف القارة جنوب خط الاستواء.

يكاد أن ينفصل تماما عن بقية القارة بواسطة الغابات الاستوائية لولا وجود بحر طبيعي هو هضبة البحيرات التي تخلو من الغابات ، وبالتالي كونا طريقا هاما للمجرات التي عمرت جنوب القارة كما أن الصحراء الكبرى تكاد تفصل الهامش الشمالى للقارة عن بقية القارة لولا وجود طريق النيل وطريق الاطلنطى . وفي الوقت الذى ترتبط فيه آسيا بأفريقيا عبر برزخ السويس وتكاد تلمس شرق القارة فى منطقة خليج عدن ، نجد بقية القارة - بعوائقها العديدة تبعد عن منطقة الاختلاط الحضارى العالى القديم فى الشرق الأدنى .

هذه الظروف مجتمعة قد ساعدت على التباين الكبير فى أفريقيا ، وظهور أنواع ونظم من الاقتصاد والبناء الاجتماعى تتراوح بين البدائية الأولية فى نطاق أقاليم الأقزام والبشمن وبين التقدم الذى توجه تكوين الدولة فى وادى النيل الأدنى .

وعلى الرغم من أن دراسة الطرق الأساسية فى أفريقيا مقدمة لا بد منها لدراسة انتقال الجماعات والحضارات ، إلا أن ذلك لم يكن ممكنا فى بداية الدراسات الحضارية عن أفريقيا . ذلك أن معرفة الطرق تتطلب دراسات جغرافية طبيعية للقارة من ناحية ، ودراسات الآثار التى خلفتها حضارات ما قبل التاريخ ، ودراسة الوثائق التاريخية والتكوين الجنسى واللغوى فى أفريقيا . وكل هذه الدراسات لم تسكد تبدأ إلا فى أواخر القرن الماضى . وأوائل القرن الحالى . ولاشك أن كتابة تاريخ أفريقيا لم يكد يبدأ إلا بعد الحرب العالمية الثانية . ومن ثم فإن تقرير الطرق التى سلكتها الجماعات البشرية والحضارات لم يكن ممكنا فى قارة لم يتأخر كشفها الجغرافى فقط ، بل تأخرت فيها الدراسات الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية إلى فترة حديثة جدا .

وحتى ما نكتبه اليوم عن الطرق الأساسية فى أفريقيا ، مثل طريق النيل أو طريق السفانا ، ليست فى الواقع - وباستثناء طريق النيل - سوى استنتاجات واستقرارات من الخريطة النباتية لأفريقيا ، وتعليقات مستمدة

من واقع الدراسات المرتبطة بالمياه الجوفية في النطاق الصحراوي في الوقت الراهن واستنتاج ما كانت عليه في الماضي ، كذلك توزيعات الغابات الاستوائية في الوقت الراهن ليست بالصورة التي كانت عليها منذ عشرة آلاف سنة . وما نقوله باستمرار عن اختراق الصحراء لم يتم إلا في أوائل العهد المسيحي بعد دخول الجمل أفريقيا ليس سوى استنتاج منطقي فقط وهو معرض للتغير إذا ما عرفنا أن هناك فئة من العلماء تقول أن الجمل عرف في مصر منذ أقدم العصور مثل بترى Petri وشارف Sharff ، وكاتون تومسون Caton-Thompson^(٣) هذا فضلا عن أن هناك احتمالا في الماضي لاختراق الصحراء في مناطق محلية بواسطة الخير — اذ كانت الآبار أغني مياهها مما هي عليه في الوقت الراهن^(٤).

(٣) محمد رياض — كوثر عبد الرسول : الاقتصاد الافريقي : القاهرة ١٩٦٣ .

« على الرغم مما يقال باستمرار عن ان الجمل لم يدخل أفريقيا أفريقيا الا متأخرا جدا (حوالى ١٠٠ ق.م) الا ان ابحاث الكثير من علماء الدراسات المصرية القديمة مثل فلندرز بترى ، شارف ، كاتون تومسون ، قد قندوا هذه الأقوال واكدوا ان الجمل كان معروفا في مصر منذ أقدم العصور وقد سجل وجوده في كثير من الحالات في صورة تماثيل صغيرة ولكن لم يسجل على المعابد المصرية . ولنا ندري هل كان هناك مانع ديني ضد تسجيل الجمل على المعابد ، ولكن انه كان في عهد الرعامسة حيوانا شائعا لحمل الانتقال الكبيرة » . ص ١٤٠ .

W. M. F. Petri : "Social Life in Ancient Egypt". P. 139.

A. Scharff : "Das Vorgeschichtliche Graeberfeld von Abusir-el-Meleq". P. 40.

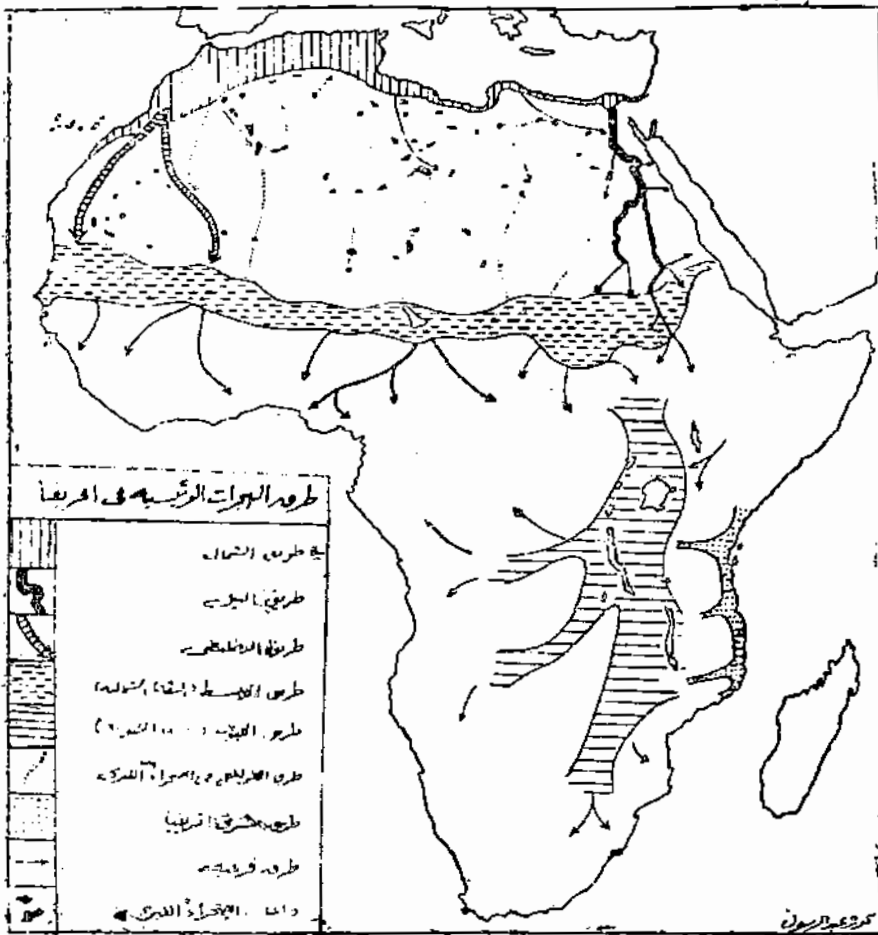
G. Caton-Thompson and Gardner : "The Desert Fayum". P. 88, 119, 128.

M. Riad : "The divine Kingship of the Shilluk and its (٤) Origin." Wien 1959.

"...it is more than certain that the pre-camel migrations took the route of the Nile southwards into the heart of Africa, though Seligman (Egypt and Negro Africa. London 1934. pp. 67-78) may be right in what concerns minor movements of population and trade accross the desert with the help of comparatively more rainfall and higher water sheet of desert wells in the past". P. 254.

فالواقع إذن أن الطرق التي نتكلم عنها ليست سوى صورة منطقية من الاستدلالات الجغرافية . وهي وإن كانت في حد ذاتها معقولة إلا أنها ليست بالضرورة الطرق التي لابد وأن الهجرات قد عبرتها ، إلا إذا استندنا إلى أدلة دامغة . هذه الأدلة كما قلنا ما زالت في مرحلة التجميع في صورة الدراسات الحقلية العديدة بين القبائل والدراسات التاريخية التي تكشف بواسطة الوثائق التي يعثر عليها بين الحين والحين وبواسطة استكمال دراسات ما قبل التاريخ . وحتى يتم ذلك ، فإن الطرق التي استخلصتها الجغرافيا والتي تأكدت بعض الشيء من جانب العلوم الأخرى ، لا تزال تكون الأساس الذي نبني عليه احتمالات الهجرات البشرية والحضارية في أفريقيا . وأهم هذه الطرق هي :

خريطة رقم (١)



- ١ - طريق الساحل الجنوبي للبحر المتوسط من سيناء إلى طنجة .
- ٢ - طريق النيل عبر الصحراء الكبرى من دلتا النيل إلى نطاق السفانا في أواسط جمهورية السودان .
- ٣ - طريق الأطلس من جنوب المغرب الأقصى حتى وادى السنغال والنيجر الأوسط .
- ٤ - طريق السفانا الشمالى من سفوح الهضبة الحبشية شرقا إلى سهول سنجامبيا غربا .
- ٥ - طريق السفانا الجنوبي من وادى النيل الجنوبي عبر هضبة البحيرات إلى جنوب شرق وجنوب غرب القارة .
- ٦ - طرق عديدة عبر الصحراء الكبرى من الشمال الى الجنوب عبر الواحات العديدة .
- ٧ - طرق نطاق الساحل الشرقى من زنجبار إلى موزمبيق تتوغل فى الداخل إلى شرق الكونغو وإلى روديسيا الجنوبية .
- ٨ - طرق من منطقة البحيرات العظمى جنوبا بغرب إلى جنوب الكونغو وساحل أنجولا .

هذا إلى جانب العديد من الطرق الفرعية التى تتوغل بعيداً عن مسارات الطرق الرئيسية وخاصة طريق البنوى وطريق الفواتنا فى غرب أفريقيا ، وطريق شارى إلى أطراف الغابات الاستوائية فى شمال الكونغو ، وطرق الأودية الجبلية فى الهضبة الحبشية .

والطريق الأول وهو طريق البحر المتوسط طريق مأمون سمل وقد سارت فيه الهجرات البشرية والحضارية منذ أقدم الوثائق المكتوبة . كما أنه كانت تشترك فيه المواصلات البحرية إلى جانب البرية . وكان بذلك الواجهة الرئيسية للاختلاط الحضارى فى محيط البحر المتوسط . ففيه اشتركت أولا الحضارات المصرية القديمة والبربرية ، ثم الاغريقية والفينيقية

والرومانية والسامية القديمة والاسلامية . كذلك لانستبعد وصول مؤثرات جنوبيّة إلى هذا الاقليم عبر طرق النيل والأطنطى . وللطريق تفرعات جنوبيّة محدودة إلى مجموعة الواحات الشماليّة في الصحراء الكبرى ، نذكر منها طريق وادى ساقورا أو طريق النخيل من جنوب شرق المغرب إلى واحات تيدكت ، وطريق طرابلس غدامس - مرزوق ، وطريق جغبوب - سيوه البحريّة - البهنسا أو الفيوم . والطريق عامّة محدود في الشرق بالشريط الساحلى من غرب الدلتا إلى تونس ، وبعد ذلك يتسع ويتشعب بإتساع مناطق الماء والنبات في أفريقيا الأطلسية .

أما الطريق الثانى فهو محدد واضح ومرتبط ارتباطاً شديداً بالوادى الضيق للنيل بين رأس الدلتا ومنطقة أسوان - دراو . وله في هذه المنطقة فرعين هامين : الأول بين ثنية قنا وساحل البحر الأحمر ، والثانى بين أسيوط والواحات الخارجة والداخلية ، ولستأعرف إذا كان إمتداد الطريق من الخارجة إلى كوبي في شمال دارفور — وهو المعروف بإسم درب الأربعين - قديم منذ العهود الفرعونية أم نشأ بعد انتشار العرب المهاجرين في القرن الثالث عشر في شمال السودان . وربما كان معروفًا في العهد الفارسي في مصر إذ نقرأ عن هلاك قبيل وجنوده في الصحراء . ولا ندرى هل كان متجهاً إلى واحة آمون (سيوه) أم إلى مملكة نباتا ؟^(٥)

وفيما بين دراو وأسوان يتشعب الطريق الرئيسى للنيل . فهناك شعبة هامة تسير محاذية لثنيات النيل حتى جنوب دنقله عند التقائه بوادى الملك ووادى مقدم ويتجه وادى الملك إلى الجنوب الغربى حتى شمال دارفور ، ويؤدى وادى المقدم إلى شمال كردفان ، وكلاهما ينتهيان بهذا الشكل في نطاق السفانا — أى الطريق الرابع — أما الشعبة الثانية فعالباً ما تستخدم وادى

Bovier-Lapierpe & H. Gauthier, & P. Jouguet, 1932. (٥)

"Précis de l'Histoire d'Egypte". Le Caire. P. 213.

Breasted, J. H., 1912. "History of Egypt". London. P. 383. أيضا .

قبة إلى ثنية النيل عند أبو حمد ، أو إلى بربر ومنها إلى البحر الأحمر أو ارتريا أو شمال أثيوبيا أو إلى الجزيرة . وهكذا فتشعب الطريق النيل من أسوان إلى الدبة شعبة هامة لأنها تنتهى إلى بدايات طريق السفانا العظيم . أما الشعبة الشرقية بين دراو وبربر فتنتهى إلى الجزيرة وشرق السودان وأثيوبيا فقط على الوجه الأغلب . وأخيراً فهناك من منطقة إدفو — أسوان طرق محلية عديدة إلى الشرق إلى البحر الأحمر . وربما كانت هناك طرق أخرى غرباً إلى الواحة الخارجة وخاصة من منطقة إدفو .

وطريق النيل على هذا النحو ضيق فيما بين الدلتا وأسوان ، ويتحدد بواسطة وادى النيل لأنه هنا يخترق نطاقاً شديد الجفاف من الصحراء الكبرى . واستمراره الجنوبي بين أسوان والدبة استمرار طبيعي لأنه يقطع أيضاً الصحراء الجافة . أما طريق دراو — قبة — بربر ، فهو وإن كان صعباً من حيث موارد المياه حتى بالنسبة لقوافل الإبل ، إلا أنه كان معروفاً منذ عصور سحيقة . فقد استخدم كطريق أساسى للوصول إلى مناجم الذهب والمعدن في الصحراء الشرقية والصحراء النوبية — ويبدو أن آباره كانت أكثر ملاءمة الآن لأن الخير كانت تمثل حيوان النقل الأساسى في المنطقة — مالم يكن الجمل قد ظهر أيضاً .

والطريق الثالث هو طريق الاطلنطى ، ولاشك أنه قد ساهم بشدة في نقل الهجرات والحضارات من شمال غرب أفريقيا إلى غرب أفريقيا — وعلى الرغم من أنه لا توجد مجارى نهرية فيه — مثل طريق النيل — إلا أن موريتانيا مليئة بالآبار الغنية لدرجة أن عدداً من قبائل موريتانيا من العرب والبربر ، مثل الترازوا وأولاد دليم والرقبيات يفتنون الأبقار ويرعونها متجولين في هذه الآفاق الصحراوية . ولاشك أن كثرة الأبقار والخيل تعطى فكرة جيدة عن مدى الأمان الذى يمكن أن تشعر به الهجرات البشرية من وادى دراع إلى سنغال — هذا إذا طرحنا من حسابنا عدم الأمان المرتبط بكثرة

العصابات في الاقليم ، وهي العصابات التي عانت منها فرنسا الشيء الكثير .
فمنها لا يمكن حصر العصابات في مناطق الواحات أو موارد الماء القليلة كما في
الصحراء الليبية مثلا ، بل هنا تتعدد وتنتشر موارد المياه وتوزع بكثرة .
ولاشك أن غنى موريتانيا بمصادر الماء قد جعلها محط أطماع القبائل العربية
أكثر من منطقة الحجارة - أو تيسى - ومن ثم نلاحظ أن العنصر العربي
وهو الذي كان يعد في تلك المناطق إبان الفتوح في أفريقيا العنصر الأقوى ،
وما زال له هذه الصفة حتى الآن . قد اختار وتركز في موريتانيا بدرجة
لا نظير لها في الصحراء الكبرى ، فاذا اختار العنصر ذو السيادة الثقافية
والسياسية هذه المنطقة ، فلا شك أنه بنى ذلك على مدى ما تعطيه له من أمان
اقتصادي وإبقاء على التنظيم القبلي التقليدي .

وينتهي هذا الطريق إلى السنغال وإلى أواسط النيجر . وقد كان طريق
النيجر الأوسط من الأهمية بحيث اختاره القائد المغربي دويدار عام ١٥٩٠
طريقا ليسير فيه جيشه إلى تمبكتو وجاء ليقضى على مملكة سنغاي^(٦) . ويمر
هذا الطريق من وادي دراع جنوبا إلى إقليم الحنك والجوف إلى تاوديني
أروان وأخيرا إلى تمبكتو . وكلا الشعبين لطريق الأطلنطي تنهى إلى الطرف
الغربي لطريق السفانا العظيم ، وبذلك يتماثلان مع طريق النيل .

الطريق الرابع هو طريق السفانا العظيم ، وهو يسير محاذيا لمنطق
العشبي بعرض القارة من الحبشة إلى الأطلنطي . ويكاد ينصفه منطقة
تشاد . هذا الطريق مازال يستخدمه الحجاج من السنغال إلى سواكن
وبورسودان ثم عبر البحر الأحمر إلى جدة ومكة . وبعد هذا الطريق - حسب
الدراسات الحضارية الجنوبية الحالية - من الطرق الهامة جداً في أفريقيا لأنه
يتلقى في طرفيه الشرق والغربي الهجرات المنتظمة البشرية والحضارية عبر
الصحراء الكبرى ، ليلتقي بها في نطاق عريض ضخم يغطي كل ما في
أفريقيا جنوب الصحراء .

(٦) راجع Westermann, D., 1952, "Geschichte Afrikas". Köln, P. 101.

ونظراً لضخامة الطريق وتشعب الطرق الفرعية منه فقد كان به أكثر من مركز ثانوى لانتشار الناس والحضارات . هذه المراكز الثانوية كان من أضخمها وأهمها دارفور ، تشاد ، السنغال ، إلى جانب مراكز أخرى في شمال كردفان ، وفي وادى ومنطقة الهوسا ، والنيجر الأوسط . وفي كل هذه المراكز نجد اختلاطاً هائلاً من السلالات والحضارات ، وأيضاً من الدول السياسية خلال العصور الوسطى . ومن هذه المراكز انتشرت الطرق الفرعية جنوباً . من دارفور جنوباً إلى بحر الغزال ودارفريت إلى أطراف الغابات الاستوائية . ومن تشاد مع نهري شاري واللجونى جنوباً في باغرمى وبنوى الأعلى وأدماوا . ومن السنغال جنوباً إلى فوتاجالون ومن شمال كردفان إلى النيل الأبيض والجزيرة . ومن الجزيرة مع النيل الأزرق وديدسا إلى كفا . ومن النيل الأبيض إلى السوبات وبحر الجبل إلى هضبة البحيرات ومن نطاق الهوسا إلى وسط وجنوب نيجيريا . ومن النيجر الأوسط إلى حوض الفولتا .

وعلى طول هذا الطريق هاجر الداجو وأحلافهم من الشرق إلى دارفور ومنها إلى شمال بحر العرب ودار سيلا . وقبلهم هاجرت العناصر الحضارية التى شكلت النظام الدينى السياسى للنيليين في جنوب السودان وأوغندا . وبعد الداجو هاجر التنجور بين دارفور وتشاد ثم العرب المسلمين الذين عربوا تماماً كردفان وجنوب دارفور وامتدوا إلى وادى وبرنو . وعلى الطريق أيضاً هاجر الفولاني من فوتاتورو في السنغال شرقاً إلى ماسينا وشمال نيجيريا وهضبة أدماوا في الكرون ، وجنوباً إلى فوتاجالون .

وعبر هذا الطريق أيضاً هاجرت عناصر حضارية لتعطى للجوكون في أعلى النوى واليوربا في جنوب غرب نيجيريا الأكان في وسط جمهورية غانا تلك المميزات المقدسة للزعامة السياسية وتلك الاتجاهات الفنية التى تميز صناعات صب النحاس وتشكيل الذهب والعاج في قبائل البنين واليوربا

والأشاتي ، وتنتشر زراعة الدخن وصناعة النسيج على الأنوال الضيقة والعريضة التي تميز أفريقيا الغربية^(٧) .

أما الطريق الخامس فهو طريق السفانا الجنوبية . ويبدأ من أعلى النيل في جنوب السودان إلى منطقة البحيرات العظمى متجنباً الحدود الشرقية لغابات الكونغو ومناطق شبه الجفاف حول بحيرة رودواف وشمال كينيا حيث يعيش البوران — أحد الفروع الهامة للجالا الرعاة . وعلى طول هذا الجزء من الطريق تكونت — كما في رأي معظم الانثروبولوجيين — شعب البانتو الذي عمر أفريقيا جنوب خط الاستواء . وكذلك يتشابه فيه النظام السياسي للحكم سواء كان ذلك عند البانتو في البحيرات العظمى أو غيرهم من الشعوب مثل تنظيمات التومسي والهيما السياسية حول منطقة كيفو .

وإلى الجنوب من منطقة البحيرات تتشعب الطرق ، منها ما يصل إلى الشاطئ الشرقي لأفريقيا ليحلب عدداً من العناصر الحضارية — وربما المجموعات البشرية — من آسيا . وهو الذي عبرنا عنه بالطريق السابع . وطرق أخرى تنجّه غرباً إلى المحيط الأطلنطي بعد أن تتجنب نطاق الغابات الإستوائية . وعلى طول هذا الطريق تكونت الممالك المقدسة التي تتشابه كثيراً مع مثيلاتها في منطقة البحيرات^(٨) . ومن أمثلة الممالك المقدسة هذه ملكة الباكوبا عند التقاء نهر كساي برافده زانكورا . وهذا هو ما أسميناه بالطريق الثامن . وهناك امتداد جنوبي عبر نطاق السفانا إلى روديسيا والفرنسفال . ولا شك أن مجموعة البشمن والهو تنتوت قد عبرت من شرق أفريقيا على طول الطريق الخامس هذا حتى وصلت إلى أوطانها الحالية تحت التأثير والضغط الناجمين عن توسع البانتو .

(٧) راجع في قائمة الكتب الملحقه بهذا المقال تحت اسم رياض ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ .

(٨) راجع رياض ١٩٥٩ .
وراجع أيضاً J. P. Grazzolari, 1950-51-53. "The Lwoo" Verona.

هذه هي أهم الطرق التي تتمشى مع المنطق الجغرافى وتسندھا فى أحيان الدراسات الاثروبولوجية وغيرها من العلوم التى سبق ذكرھا . وإذا كنا نذكرھا فى الوقت الحاضر ونحن غير متأكدين تماما ، فمن ثم لا نعجب أن الرواد الأول الذين تكلموا عن الحضارات فى أفريقيا قد أخطأوا أو جعلوا موجات الحضارة تسير حيث كاد السير يستحيل .

مراحل دراسة الحضارات الأفريقية

وقد مرت دراسة الحضارة فى أفريقيا بعدد من المراحل بعضها قضى عليه تماما والآخر ما زال بجالا للأخذ والرد . وعلينا أن نلاحظ من البداية أن معظم العلماء الذين عالجوا الموضوع الحضارى فى أفريقيا كانوا من الألمان . ذلك أن معظم الإنجليز حينما ساهموا بالدراسات الاثروبولوجية فى أفريقيا كانت فكرة المنهج الوظيفى قد سيطرت عليهم ، وبالتالى لم يعن اثروبولوجى انجليزى معاصر بدراسة الحضارات الأفريقية ككل ، إنما ركزوا جهودهم فى الدراسات التحليلية لعدد من الجماعات الأفريقية وعن طريق منهج محدود يجعل الكثير منهم لا يهتم بالدراسات الحضارية المتكاملة بما فيها أعماقها التاريخية . كذلك انشغل الاثنولوجيين الفرنسيين فى أفريقيا بعدد من الدراسات التى برعوا فيها ، وخاصة الدراسات المرتبطة بالحقيدة والديانة . أما الألمان فقد درسوا موضوع الحضارة المادية بما فيه من نظم اقتصادية ومناهج بناء المساكن وحرف صنع الأدوات والأسلحة والملابس والتخزين وما إلى ذلك إلى جانب الدراسات الحضارية الأخرى كنظم السن والزواج والدين والسياسة الخ . . . ومن ثم اكتملت لدى الألمان صورة أوضح عن الحضارات الأفريقية ككل متكامل . ونحن لا نكاد نشك فى أن ذلك الدافع الذى جعل الألمان يقفون هذا الموقف بالنسبة للدراسات الاثروبولوجية راجع إلى أن نشأة الاثروبولوجيا الأولى قد اشتقت من عدد من الدراسات الجغرافية الألمانية والجغرافيين الألمان الذين تخصصوا

بشدة وعمق في الجغرافيا الاجتماعية ، نذكر من هؤلاء الأستاذين « راتزل ، Ratzei و هان ، Hahn . وإن كان راتزل قد اشتد في فكرة الحتمية إلا أن هان كان له الفضل في تحطيم فكرة حتمية تتابع الجمع — الرعى — الزراعة كنظم اقتصاد لمراحل حضارية متتابعة . على أية حال فإن ارتباط الانثروبولوجيا الألمانية المبدئي بالجغرافيا قد أعطى ذلك العلم الجديد عند الألمان الدافع للبحث عن صور شاملة للحضارات المختلفة ودراسة توزيعات العناصر الحضارية ومحاولة تقصى أسباب التوزيع . هذا الإتجاه قد دفع بعدد من الانثروبولوجيين الألمان في البداية إلى فكرة الأقاليم الحضارية والدوائر الحضارية . ثم عدل الكثير من الألمان عن هذه النظرية وإن ظلوا يدرسون أعداداً كبيرة من الظواهرات الحضارية عما لا يدرسها الانثروبولوجي الإنجليزي وعدد من العلماء الأمريكيين .

أما المراحل التي مرت بها الدراسات الحضارية في أفريقيا فهي كما يلي :

١ - المرحلة الآسيوية ، وفيها افترض أن الحضارات الأفريقية قد استمدت من جنوب شرق آسيا وأوشينيا ، في صورة هجرات واسعة . وأوضح ممثلي هذه النظرية هما ليفروفينوس وبرنارت أنكرمان . ولم يعد أحد يؤيد هذه النظرية إلا فيما اختص بمدغشقر .

٢ - المرحلة الحامية . وقد بدأها سليجمان وأكد فيها أن عدداً من العناصر الحضارية في أفريقيا ترجع إلى العنصر السلالي الحضارى الحامى . وما زال هناك أخذ ورد فيما قاله سليجمان حتى الآن .

٣ - المرحلة السودانية : وهي التي بدأها فيلي شيلده وطورها باومان وأكدا فيها الأصل السوداني لعدد من العناصر الحضارية المنتشرة في أفريقيا . وهذه الفكرة أيضاً مجال للأخذ والرد بين المؤيدين وغيرهم .

٤ - وفيما بين هذه المراحل كلها كانت هناك نظرية الأصل المصرى القديم لعدد من العناصر المنتشرة في أفريقيا . هذه النظرية لا تمثل مرحلة قائمة بذاتها ولكنها شاعت خلال هذه المراحل الثلاثة وأكدها كثير

من الكتاب في دراساتهم المختلفة — حتى سليجمان وباومان لم يسلبا من التأثير بها .

وأياً كانت المرحلة فإن العلماء المختلفين قد انفقوا على فكرة واحدة : إن حضارات أفريقيا قد تعرضت لتأثير الهجرات البشرية والحضارية ، سواء كان ذلك من الداخل أو من الخارج . وفيما يلي نعرض لهذه المراحل الهامة في الدراسات الأفريقية .

النظرية الآسيوية

ليوفروبنيوس^(٩) Leo Frobenius

كان ليوفروبنيوس أقدم العلماء الذين حاولوا دراسة الحضارات الأفريقية وتقسيمها منهجياً إلى مجموعة من الحضارات ذات الصفات المتشابهة ولم يكن فروبنيوس أقدم الدارسين للحضارات الأفريقية فقط ولكنه كان أكثرهم كتابة عن أفريقيا ودراسة لمشكلاتها من واقع أبحاثه الحقلية العديدة التي بدأها مبكراً في الكنفو في الربع الأخير من القرن الماضي وترتب على دراساته العديدة أن غير وبدل في وجهة نظره عن الحضارات الأفريقية عدة مرات ، مما جعل دراسته تكاد تكون دراسة لتطور المعرفة عن الحضارات الأفريقية . ويمكننا أن نلخص آراءه العديدة على النحو التالي :

في سنة ١٨٩٧ انتهى فروبنيوس إلى أن أفريقيا قد استمدت حضاراتها من الحضارات التي توجد في أورشينا وجنوب آسيا الشرق ولهذا فإنه يسمي الحضارة الأفريقية باسم الحضارة الأفريقية الغربية لأنها قد هاجرت إلى

(٩) انظر في قائمة الكتب الملحق بهذا المقال تحت اسم فروبنيوس أهم مؤلفاته .

غرب أفريقيا تحت تأثير موجات بشرية وحضارية أحدث في شرق أفريقيا .

ولكنه سنة ١٨٩٨ يعود فينشر بحثاً عن ، أصل الحضارات الأفريقية
"Der Ursprung der Afrikanischen Kulturen"

وفي هذا البحث يرى أن هناك أربع حضارات في أفريقيا هي :

- ١ — الحضارة الزنجية .
- ٢ — الحضارة الزنجية الملايوية .
- ٣ — الحضارة الآسيوية .
- ٤ — الحضارة الأفريقية .

وقال إن الحضارة الزنجية الموجودة في أفريقيا مشتقة أصلاً من الحضارة القديمة التي توجد في غينيا الجديدة وجنوب شرق آسيا وأوشينيا . وقد وفدت إليها عناصر هذه الحضارة قديماً جداً . أما الحضارة الزنجية الملايوية وهي التي يعود فروبنوس فيطلق عليها اسم الحضارة الأفريقية الغربية فن المحتمل أن تكون قد نشأت في جنوب شرق آسيا ثم انتشرت سروراً إلى أفريقيا ولكن بعد أن ثبتت الحضارة الزنجية أقدامها في أفريقيا .

وفيما يختص بالحضارة الآسيوية فإن فروبنوس وإن كان في أحد المرات قد أدجها ككل مع حضارات آسيا سواء كانت الحضارة البالية أو الهندية أو الصينية إلا أنه يعود فيقسم الحضارات الآسيوية إلى قسمين : الحضارة الآسيوية الأصلية والحضارة الهندية — الصينية

"Die Eigentlich Asiatische und Die Indisch-Chinesische".

ويقول إن الحضارة الآسيوية التي توجد في أفريقيا يقصد بها الحضارة الآسيوية الأصلية التي توجد في جنوب غرب وغرب آسيا وليست الحضارة الهندية أو الصينية .

أما الحضارة الأخيرة وهي التي أطلق عليها فروبنوس اسم الحضارة الأفريقية فيقول إنها نشأت في أفريقيا على أثر الاختلاط والتشابك بين الحضارات الزنجية والزنجية — الملايوية والآسيوية .

ولعل أهم ما يميز آراء فروبنوس المبكرة هذه أنه ميز بين الحضارتين الزنجية والزنجية — الملايوية على أنهما حضارتا أخشاب في حين أن الحضارتين الآسيوية والأفريقية حضارتا جلود . وبعبارة أخرى النوعين الأولين من الحضارات الأفريقية تعيشان في مناطق الغابات ، أو السفانا الشجرية ويتكون اقتصادهما الأساسى من الزراعة ، على حين أن النوعين الآخرين تعيشان في مناطق الرعى الطبيعية في أفريقيا سواء كان ذلك شمال شرق القارة أو شمالها أو نطاقات السفانا الرعوية .

وأخيراً في الفترة ما بين أعوام ١٩٢١ و ١٩٢٩ يتابع فروبنوس أبحاثه ويعدل من آراءه عن الحضارة في أفريقيا ، وتكتمل صورة ذلك في أطلسه الأفريقى . Atlas Africanus وفي هذا يرى فروبنوس أن هناك حضارتين قديمتين Urkulturen هما الحضارة الآثيوبية والحضارة الحامية . وتفرعت عنهما أربع حضارات فرعية تاريخية هي :

- ١ - الارترية الشمالية .
- ٢ - الارترية الجنوبية .
- ٣ - السرتية (نسبة إلى خليج سرت) .
- ٤ - الأطلنطية .

وفي هذا التعديل الجديد نجد أن فروبنوس يدمج ما سبق أن ذكره عام ١٨٩٨ عن الحضارتين الزنجية وغرب أفريقيا في الحضارة الآثيوبية ، ويرى فروبنوس أن الحضارة الارترية الشمالية تظهر بوضوح في أثيوبيا وشمال أفريقيا أما الحضارة الارترية الجنوبية فتتركز في نطاق السفانا في جنوب القارة وخاصة في روديسيا حول حضارة مونوموتابا ومركزها زمبابوى . وعلى الرغم من انفصال موقع الحضارتين جغرافياً ، ووجود فاصل من حضارات أخرى فيما بينهما . مما يجعلنا نشكك في آراء

فروبنيوس ، إلا أنه يؤكد أن الحضارتين أصلاً حضارة واحدة يسميها الحضارة الإرتيرية الوسطى قبل أن تتفرع إلى فرعيها الشمالى والجنوبى .

أما الحضارة السرتية فتمثل عند فروبنيوس عناصر من الحضارة القديمة للبحر المتوسط دخلتها واندججت فيها مؤثرات حضارية من الشرق الأدنى . ثم تسربت هذه الحضارة جنوباً إلى السودان الغربى ، وغرب أفريقيا ، فأصبح أكبر مركز لوجودها هو تلك المنطقة الممتدة من مصب السنغال إلى بحيرة تشاد وجنوباً إلى دوالا وجبل الكمرون .

وأخيراً تنتشر الحضارة الاطلمنية — وهى أيضاً مكونات من عناصر حضارة البحر المتوسط القديمة — فى المنطقة الساحلية بين مصب السنغال ومصب النيجر .

هذه خلاصة لأراء فروبنيوس التى لا يقبلها سوى عدد من تلامذته نذكر منهم وعلى رأسهم الأستاذ A. Jensen^(١٠) .

برنارت أنكرمان B. Ankermann

وبعد أنكرمان فى البداية مرتبطاً ومتأثراً بأراء فروبنيوس ، ولكنه يعتمد اعتماداً كبيراً على دراسات وتحليلات جرابينر F. Graebner لحضارات البحار الجنوبية مما يؤدى به إلى الاعتقاد بوجود ست حضارات أولية فى أفريقيا هى :

(١٠) تخصص الأستاذ ينسن فى الدراسات الحضارية الإفريقية ونذكر من أهم مؤلفاته ما يلى :

Jensen, A., 1931-32, "Die Staatlich Organisation und historischen Überlieferungen der Barotse am Oberen Zambesi" Wurttemberg — 1936 "Im Land des Gada" Stuttgart. — 1959 "Altvolker Sud-Athiopiens" Stuttgart.

- ١ — الحضارة الزنجية التي تتفق مع أقدم حضارات أستراليا .
 - ٢ — الحضارة الغربية لأفريقيا التي تتفق مع الحضارة التي أطلق عليها جراييزر اسم حضارة ما قبل الملايو وشرق بابوا . ولكنها في أفريقيا تختلف . لوجود عناصر أحدث أخرى يحتمل أن تكون أصلا من أندونيسيا .
 - ٣ — حضارة تشابه تلك التي أسماها جراييزر حضارة بابوا الغربية .
 - ٤ — حضارة السودان الغربي وتشابه مع حضارات الهند البعيدة (بورما — سيام) ولكن أنكرمان لا يعرف الأصل الذي نشأت عنه . تلك الحضارة السودانية .
 - ٥ — الحضارة الحامية أو السامية القديمة في السودان وشرق وجنوب أفريقيا .
 - ٦ — الحضارة السامية أو العربية وتظهر في نطاقات الحضارة الحامية . وإن كانت أحدث .
- ويرى أنكرمان أن الحضارة الزنجية هي بقايا الحضارة الأصلية للسلاات السوداء عامة قبل أن تهاجر شعوبها إلى أفريقيا غربا وجنوب شرق آسيا وأوشينيا شرقا .
- أما الحضارة الغربية الأفريقية فلا يعنى أصلا أنها تنوطن في الأقليم الغربي الجغرافي من أفريقيا بل يسميها كذلك لأنها الانتشار الغربي للحضارة الأفريقية التي تظهر في جزيرة غينيا الجديدة . ولهذا فإن منطقة دخول هذا النوع الحضارى كان أولا مدغشقر ثم منطقة مصب الزمبيزي . ويقول إن

(١١) انظر في قائمة الكتب الملحقه بهذا المقال تحت اسم انكرمان اهم ما ألفه خاصا بأفريقيا .

الإتصال ظل مستمرأ فترة طويلة عبر مدغشقر ثم انقطع إتصال مدغشقر بالساحل الأفريقي المقابل وإن ظل اتصالحا فترة أخرى بجزائر الهند الشرقية والملايو . ثم جاءت هجرات الجماعات حاملة الحضارة الجديدة الحامية من مركز ثانوى لها فى منطقة البحيرات العظمى . وأدى ذلك إلى طرد بقايا السكان حاملي الحضارة الأفريقية الغربية إلى نطاق الغابات غرباً حيث انعزلوا تماماً فى تلك الأوطان الجديدة . وهنا يعود أنكرمان فيشير إلى أن هذه الحضارة تتوطن الإقليم الجغرافى الغربى من أفريقيا .

ولكى تتفق تلك الآراء فقد كان لابد على أنكرمان أن يؤكد أن منطقة شرق أفريقيا ومنطقة تنجانيقا على وجه الخصوص كانت عبارة عن المركز الخطير الذى تداخلت فيه الحضارات والموجات البشرية سواء تلك القادمة من الشرق عبر المحيط الهندى أو تلك القادمة من الشمال . وهو لهذا يجد بقايا عناصر حضارية تمتد إلى أصل الحضارات الزنجية والغربية الافريقية والحامية إلى جانب خليط من هذه الحضارات مع عناصر حضارية سامية عربية فى منطقة ساحل شرق أفريقيا .

ويؤكد أنكرمان أن إقليم إثيوبيا الجغرافى هو أقل أجزاء أفريقيا أفريقية ومع ذلك فلم ينبج من تأثيرات الاختلاط والتشابه نتيجة لوجود جيوب زنجية فيه . أما إقليم السودان الطبيعى فيرى فيه أنكرمان مشكلة المشاكل . فبين أعلى النيل وأعلى النيجر يعتقد أنكرمان بوجود حضارة متواحدة قديمة هى ما يسميها الحضارة السودانية القديمة . وعلى الرغم من تشابهها العام إلا أن توزيعها الجغرافى الشاسع قد أدى إلى وجود اختلافات نتيجة العلاقات المكانية . ومن ثم ظهرت ارتباطات حضارية كبيرة مع مصر وبدرجة أقل وفى تاريخ أحدث مع الهند . ثم خضعت هذه الحضارة بعد ذلك للحضارة الإسلامية وعديد من عناصر الحضارة فى شمال أفريقيا وفى آسيا . وقد وفدت تلك العناصر الحضارية إما عن طريق التوبة

وكردفان ودارفور إلى تشاد وإما عبر دروب الصحراء الكبرى العديدة التي
تصل البحر المتوسط بالسودان الغربي .

أما البانتو فيعتبرهم أنكرمان أما أنهم ممثلين للحضارة الغربية الأفريقية
أو حضارة الحاميين في شرق وجنوب أفريقيا . ويقول : إن حضارات
البانتو تماثل حضارات زنوج السودان . فقد تأثرت بالاختلاط فيما بينها ،
ثم تأثرت بالاختلاط مع عناصر الحضارة الآسيوية لدرجة أنها قد تحولت
وتبدلت بإضافة عناصر جديدة لدرجة لا نستطيع معها أن نشاهد لها شيئا
في أفريقيا . هذا الحل الذي يجده أنكرمان لحضارة البانتو يجعل من
مشكلة البانتو الحضارية معضلة غير قابلة للحل .

وإلى جانب هذه الآراء يرى أنكرمان أن الأقزام والبشمن سلالة واحدة
وأن الهوتنتوت هم سلالة خليطة بين البشمن والحاميين أو الساميين القدماء ،
وأن هذا الاختلاط قد حدث في المنطقة بين نهري الزمبيزي واللبوبو وأعلى
الأرجح إلى الشمال قليلا .

وآراء أنكرمان هذه وإن لم يأخذ بها أحد سواه إلا أنها عاشت في صورة
معدلة ومطورة في آراء تلميذه الأستاذ باومان كما سييجيء ذكره فيما بعد .
ويكاد يتفق معظم الباحثين على أن آراء باومان بالنسبة للحضارات الأفريقية
آراء مقبولة ومن ثم فإن بعض الفضل في نجاح باومان لا بد وأن يعود إلى
الأستاذ أنكرمان .

فاهام شميت^(١٢) W. Schmidt

لم يتكلم شميت عن أفريقيا نتيجة دراسة عقلية ، ذلك أنه كان من النوع

(١٢) انظر في قائمة الكتب الملحق بهذا المقال تحت اسم شميت أهم
ما ألفه خاصة بمشكلة الأقزام في العالم .

من الدارسين الذين يطلق عليهم أساتذة الدراسة النظرية . ومن ثم فإن شيمت لم يتخصص في دراسة الحضارة الأفريقية وحدها ، بل كان يعالج الحضارات العالمية ككل . ودوره في الدراسات الأفريقية وإن كان محدوداً بعدد من الموضوعات منها دراساته الكلاسيكية « لأصل فكرة الإله » ، إلا أن ذلك قد أثر على آرائه الخاصة بالحضارة الأفريقية . وأهم ما قاله شيمت في ذلك نظريته الخاصة بالأقزام . فقد قال إن الأقزام في أفريقيا (وهو يدرج تحت مصطلح الأقزام كل من أقزام الكنغو وشعب البشمن في جنوب غرب أفريقيا) يتحدثون في الأصل والنشأة مع أقزام أوشتنيا وجنوب شرق آسيا . وهذا القول إن كان ينطبق على أقزام الكنغو وأقزام الشرق إلا أنه لا ينطبق على البشمن إطلاقاً . وتطرق شيمت من أبحاثه عن الأصول الساللية للأقزام إلى القول إن حضارة الأقزام في الكنغو تمثل الصورة الأصلية للحضارات الأولى للإنسان . أما أقزام آسيا فقد تأثروا بعدد من العناصر الحضارية أثناء هجرتهم من موطنهم الأصلي في الكنغو إلى أوطانهم الحالية ، وكذلك تأثر البشمن بعناصر غريبة أثناء تحركهم جنوباً .

وعلى الرغم من أن أحداً لا يقبل آراء شيمت في الوقت الحاضر ، إلا أنه نشر كلامه هذا عام ١٩١٠ ، وبذلك كان أول من بدأ مشكلة الأقزام في الدراسات الأنثروبولوجية ووجه إليها من العناية ما جعل عدداً من الباحثين أن يتخصصوا فيها نذكر من أهمهم تلييداه الأستاذ باول شيبستا P. Schebesta والأستاذ فان بولك Gaston Van Bulck وعلى هذا فإن شيمت ، وإن لم يوفق في آرائه ، فإنه قد سد النقص الذي تركه كل من فروبنيموس وأنسكرمان ، وذلك بتوجيه الأنظار إلى مشكلة الأقزام .

هاري جونستون^(١٣) H. Johnston

على الرغم من أنه من الصعب القول إن جونستون قد تأثر بأراء كل من فروبنوس وأنكرمان إلا أن ذلك يبدو أقرب إلى الواقع . ذلك أن أبحاث جونستون محدودة بعض الشيء في مناطق معينة من أفريقيا ، خاصة شرق أفريقيا وأجزاء من غرب أفريقيا . وفي عام ١٩١٣ قال جونستون إن أقزام الكنغو عبارة عن نوع بدائي من الزوج قصرت قامتهم ، وأنهم ربما كانوا أقدم عناصر الزوج التي غزت أفريقيا . كذلك يقول أن البشمن نوع آخر من أشباه الزوج تدهوراً جسمياً وتخصصوا في صفاتهم الجسدية التي كسبوها . وقد صادفوا أثناء هجرتهم إلى جنوب أفريقيا سكاناً أقدم منهم فيهم تقارب طفيف بالقوقازيين هم مايسمون ستراندلوربرز Strandloopers أما الهوتنتوت فهم عنصر فيه شبه طفيف بالهاميين القوقازيين ، وأن هجرتهم جنوباً قد حدثت قبيل هجرة البانتو وتعميرهم جنوب أفريقيا .

أما العناصر الزنجية فيرى جونستون أنها أقدم سكان القارة ، وأنها كانت تحتل الاقليم العريض بين الصومال والسنغال ويحدها شمالاً الصحراء الكبرى وجنوباً حافة غابات الكنغو الاستوائية عند نهر الأوبانجي . في هذه المساحة الشاسعة يرى جونستون أن الزوج قد انقسموا في صفاتهم الجسدية إلى قسمين : زوج النيلين في الشرق ، وزوج الغابة في الغرب . أما زوج النيلين فقد تخصصوا في حياة السفانا المكشوفة المستنقعية في حين أن زوج الغابة قد تشعبوا وتكون منهم الأقزام والبشمن .

وقد وقع زوج النيلين تحت تأثير حضارى كبير من جانب الهاميين الذين يجاورونهم ، وإن كان هذا التأثير قد حدث في مرحلة متقدمة وبالتالي ساهم في إعطاء النيلين شكلهم الحضارى الراهن .

ويرى جونستون أن منطقة بحر الغزال الحالية وأعلى النيل تم فيها تكون أسلاف البانتو ، ومنها تحركوا جنوباً عبر منطقة البحيرات العظمى

التي أصبحت بعد ذلك مركزاً هاماً لتكوين البانتو وانتشارهم في بقية القارة. ويرى جونستون أن أفريقيا تعرضت لعدد من الهجرات البشرية والحضارية من جنوب غرب آسيا ، وأن مصر قد استقبلت معظم هذه الهجرات في عصور ما قبل التاريخ . وتصبح مصر في رأيه مركزاً هاماً تنتشر منه حضارات آسيا إلى السودان وأفريقيا الزنجية . أما الهجرات الفينيقية والرومانية فقد أثرت على شمال أفريقيا ، في حين أن الهجرات العربية الإسلامية كانت واسعة النطاق فشملت شمال وشرق القارة. وأخيراً فإن التأثير الحضاري والبشري القادم من الملايو وأندونيسيا قد تحدد بجزيرة مدغشقر دون الساحل المقابل لها . ويستند جونستون في افتراضه ذلك إلى أن أثر الملايو لم يصل إلى جزائر كومورو أو زنجبار وبالتالي لم يصل إلى ساحل موزمبيق أو شرق أفريقيا .

ونظريات جونستون الخاصة بالأقزام والبشمن لم تعد مقبولة ، ولكن آراؤه في مجموعها تكون بدايات طيبة للصورة العامة التي أخذتها الدراسات الأفريقية في مجالي السلالة والحضارة بعد ذلك .

النظرية الحامية

سليجمان^(١٤) C. Seligman

بعد الأستاذ سليجمان من الباحثين الذين كان لهم دور هام في الدراسات الحضارية الأفريقية ، بل إنه قد أثر على عدد من الدارسين اللاحقين له نذكر منهم^(١٥) G. Lidblom ، E. Brauer T. Irtam^(١٦) G. Murray

(١٤) انظر في قائمة الكتب الملحقه بهذا المقال تحت اسم سليجمان أهم مؤلفاته .

(١٥) من أهم ما كتبه الاستاذ Irtman في الموضوعات الأفريقية الكتاب التالي :

Irtam, T., 1944. "The king of Ganda. A study in the Institution of sacral Kingship in Africa" Stockholm.

(١٦) للاستاذ لندبلوم كتابات عديدة معظمها يتناول دراسة الحضارة المادية الأفريقية . ومن أهم مؤلفاته :

Lindblom, G. 1916. "The Akamba" Upsala.

H. Wieschoff . كما أن آراؤه كان لها صدى في أبحاث فروبنوس الحديثة وباومان ومعظم الدارسين الأحدث منه لأفريقيا . هذا الأثر الكبير لأبحاث سليجمان ترجع إلى أنه كان أول من درس وحلل الكثير من الأبحاث الحقلية والكتابات التي كتبها من سبقوه عن أفريقيا ، إلى جانب أبحاثه الخاصة في أفريقيا ، وخاصة منطقة النيلين في أعالي النيل .

وقد انتهى سليجمان إلى عدد من الآراء الخاصة بنشأة عدد من سلالات أفريقيا ، كان أهمها أن النيلين هم خليط بين الحاميين وزنوج الغابة ، في حين أن الباتو نتيجة خليط بين زنوج الغابة والحاميين القدماء . ويحدد سليجمان الصفات الأساسية للزنجي ويصف موطنه على أنه يشمل ماسبق أن ذكره جونغستون : من السنغال حتى أعالي النيل ومن الصحراء إلى الحافة الشمالية للغابات الاستوائية . ويحدد الحاميين ويقسمهم بين الشرق والشمال ويدرج الاختلاط بينهم وبين الزنوج والباتو حتى يصل إلى أنصاف الحاميين في شرق أفريقيا . وأخيراً يصف الهجرات السامية العربية ودورها الحضارية في شمال وشرق القارة .

وعلى الرغم من الجهد الذي قام به سليجمان في تصنيفاته السلالية في أفريقيا إلا أنه من التعسف أن نقول إنه قد قسم أفريقيا إلى سلالات معتمداً على الخصائص الجسدية . بل إننا نرى أثر التقسيمات اللغوية والحضارية تلعب دوراً خطيراً في أبحاث سليجمان بحيث أننا نرى نتائج مختلفة تماماً لأقسام السلالة والجنس في أفريقيا عند الباحثين الجدد المتخصصين في علم الأثروبولوجيا الطبيعية .

إذن دور سليجمان الحقيقي يكمن في آرائه عن الحضارات الأفريقية . وهو لم يول كل حضارات أفريقيا من الاهتمام مثلما أولى الحضارة الحامية من دراسة وبحث وتقصى وفلسفة . ومن ثم فإنه يمكننا في إيجاز أن نقول

إنه لا يذكر سليجمان إلا ويذكر معه نظريته عن الحضارة الحامية القديمة على أنها مصدر الإلهام والتطور والتشابه في الحضارات الزنجية والبانووية في بقية القارة . هذا الاتجاه إلى تضخيم الأثر الحامى في أفريقيا من جانب سليجمان ربما كان رد فعل لاتجاه جونستون إلى تضخيم أثر مصر في الحضارات الأفريقية . وقد قال سليجمان في ذلك :

"...I hold that many common customs are but expressions of the wide diffusion of old Hamitic blood and ideas". (١٧)

وعلى الرغم من رأى سليجمان الخاص بالأثر الحامى السابق للمصريين وتشككه في الأصل المصرى لكثير من المظاهر إلا أنه كان دائماً يعود فيقول إن هذه العناصر الحضارية قد انتشرت عن طريق مصر مما يعطى صورة مترددة بين الأصل الحامى والأصل المصرى لكثير من هذه العناصر الحضارية ذات الانتشار الواسع في أفريقيا . مثال ذلك أنه يقول : إن تشابه عصي الرمي ، بين قبائل الأنجسنا ودارفنج ومصر واضحة جداً وربما كان الاحتكاك السبب الرئيسى في نقلها . ولكن انتشار هذا السلاح يجعل من المحتمل الاعتقاد أنه سلاح حامى قديم قد انتشر من مصر إلى أثيوبيا ، (١٨) وفي المصدر نفسه يعتقد أن نوعاً من أنواع الفخاخ المسمى عجلة الصيد Spiked wheel-trap الموجودة بين العباددة واللانجو والأتشولى والنوير والناندى والشلوك والتركانا ، وكانت مستعملة في مصر القديمة ، من تراث الحضارة الحامية . كذلك ذكر عادة ثنى قرون الماشية التى تنتشر بين النوير والدينكا والشلوك ووجدت في مصر في الأسرة الخامسة ، هذا بجانب العاطفة الخاصة نحو الماشية والتي تصل إلى درجة التقديس . ومن المظاهر الحضارية التى ذكرها أيضاً وشبهها بالحضارة المصرية ، عبادة الشمس بين قبائل البرون على حدود

Seligman, C. G., 1934. "Egypt and Negro Africa" London, (١٧)
P. 8.

Seligman, C. G., 1932. "Egyptian Influence in Negro (١٨)
Africa" P. 457.

أثيوبيا. وحفلات قتل الملك المقدس وتجديد مدة حكم الملك التي شبهها بحفلات «السد» المصرية. والطهارة الفرعونية المنتشرة بين دنكا الريك . هذا بجانب وجود الهارب الصغير المسمى Kundi بين الزاندى والذي يشبه الى حد كبير مثيله في مصر القديمة .

هذا التردد في آراء سليجمان بين الأثر الحامى القديم والأثر المصرى يحاول أن يعلله مرة على أساس النشأة المزدوجة للظاهرة الحضارية المتشابهة — أى إمكان نشوء الظاهرة الحضارية فى مركزين منفصلين ، ثم يعود فيقول إن ذلك التشابه يرجع إلى الأثر الحامى المشترك فى أجزاء كثيرة من أفريقيا .

وفى مرة أخرى يحاول سليجمان تفسير التناقض بين نظريته الحامية وفكرة التشابه العديد مع مصر الفرعونية فيصل إلى حل وسط كما جاء فى قوله ^(١٩) : «إن مصر فيما قبل الأسرات هى أقدم وأحسن مثل للحضارة الحامية القديمة :

“...Hamitic Stock of which the pre-dynastic Egyptians are the oldest and best known representatives”.

النظرية السودانية (°)

فيلى شيلده ^(٢٠) W. Schilde

على الرغم من أن فيلى شيلده لم يعمر طويلا (ولد عام ١٨٩٤ وقاتل فى خلال

Seligman, C. G., 1934. Ibid P. 57.

(١٩)

(٢٠) راجع فى قائمة الكتب الملحقه بهذا المقال تحت اسم شيلده اهم

مؤلفاته .

(*) ليس المقصود جمهورية السودان وانما الحضارات التى تنتشر فى اقليم السودان الطبيعى الذى يمتد من حوض السنغال الى الهضبة الحبشية .

الحرب عام ١٩٤٢) إلا أنه ترك عدد من الأبحاث عن أفريقيا كلها كانت تنبئ عن فكر ثاقب ، ودراسات عميقة ، وإن لم يكون فكرة شاملة عن الحضارات الأفريقية كمثل . وقد كان موضوعه المحجب دراسة الحجرات الحضارية والبشرية . ومن أهم الأبحاث في هذا الموضوع مقاله المعنون ، « العلاقات الحضارية في السودان » سنة ١٩٢٩ .

“Ostwestliche Kulturbeziehungen im Sudan”.

وقد استخلص شيلده أن عادة القتل المقدس للملوك والزعماء الدينيين السياسيين التي تظهر في عدد من الشعوب الأفريقية عادة ترجع إلى الحضارة السودانية ، وليس إلى الحضارة الحامية القديمة كما اقترح سيليجمان . ذلك أن هذه العادة تتوزع أكثر بين الجماعات الزنجية التي تعيش على زراعة الفأس وبالتالي فإنها — بناء على نظرية فريزر — ترتبط بخصب الأرض الزراعية ووفاء المحصول . أما بالنسبة للرعاة الذين ينتشرون في إقليم السودان فإن هذه العادة لا تظهر بينهم . كذلك يقول إن عادة قتل الملوك بين الأسر الحاكمة الحامية الأصل في إقليم البحيرات العظمى والكنغو ليست حامية ، إنما أخذها الحكام عن الشعب الذين يحكمونه — وهم أصلاً الزنوج المزارعين .

وصحيح ما قاله شيلده عن اقتصار توزيع عادة قتل الملوك على المزارعين الوثنيين في الوقت الحاضر في إقليم السودان . ولكنه تناسى أوفات عليه أن الرعاة الحاليين في إقليم السودان إما عرباً مسلمين ، أو زنوج السودان الذين أسلموا وتأثروا بالحضارة والمفاهيم الإسلامية — وكلها تنافي تماماً اعتقادات التجسد الإلهي في الملك الحاكم — وهو الأساس الذي يبنى عليه تقليد قتل الملك قتلاً مقدساً . وهناك شواهد تاريخية عن قتل الملك ، في مملكة مروي والنوبة قبل أن تتحول إلى الإسلام . فالراجح إذن أن التفسير على أساس تحليل الوضع الراهن فقط ليس كاملاً وقد يؤدي إلى أخطاء كما وقع ذلك لشيلده .

ولكن يبدو أن شيلده يعود ثانية ليقول إن عادة قتل الملوك تنتشر في

الاماكن الهامشية الانتشار مؤثرات الممالك الشرقية . وهو يحاول في هذه الجملة أن يفسر ظهور هذه العادة في أفريقيا ، وجنوب الهند معاً فيعيد أصلها البعيد إلى دول الشرق القديمة فيما بين دجلة والنييل في عبارة مباشرة خشية الزلل .

وهكذا نرى أن شيلده يرفض النظرية الحامية ، ويحبذ نظرية جديدة عن الأصل السوداني لعادة هامة . ثم يعود في مواربة ليتكلم عن انتشار حضارى من دول الشرق القديمة الذى تمثله في أفريقيا مصر الفرعونية أو فيما قبل الأسرات .

هيرمان باومان^(٢١) H. Baumann

بعد باومان من العلماء الألمان الذين كان لهم في الفترة الحديثة دوراً هاماً في الدراسات الحضارية الأفريقية ، أدت إلى تغيرات جذرية في دراسة اثنوجرافية وأثروبولوجية أفريقيا . وأهم ما نشره كان عام ١٩٣٤ . ثم عام ١٩٤٠ . وهو في عام ١٩٣٤ يقول إن هناك الحضارات السبعة التالية :

- ١ — الحضارة القرمية .
- ٢ — حضارة الصيد في نطاق الأعشاب الفقيرة (السكان الأورو — أفريقيين أو البشمن) .
- ٣ — الحضارة الزنجية القديمة . ويسميا أحيانا الحضارة الأفريقية القديمة (وهى تشابه حضارة السودان القديمة في تصنيف أستاذه أنكرمان) .
- ٤ — حضارة غرب أفريقيا وهى مكونة من تداخل عناصر حضارية عديدة .

(٢١) راجع في قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم باومان أهم مؤلفاته.

- ٥ — حضارة الحاميين الشرقيين ويمثلها الرعاة في شرق أفريقيا .
- ٦ — حضارة الحاميين الشماليين وهي خليط بين حضارة البحر المتوسط القديمة وعناصر حضارية من الشرق الأدنى .
- ٧ — الحضارة السودانية الحديثة وهي تتمثل في أبرز صورها في نطاق السفانا الشمالية والجنوبية .
- وفي عام ١٩٤٠ أعاد باومان النظر في آرائه بناء على تكامل معلومات عديدة ودراسات وفيه ولكنه لم يغير من أسماء الحضارات التي ذكرها عام ١٩٣٤ . وتتلخص أهم نتائج أبحاثه العديدة في النقاط التالية .
- هناك تشابه غير عادي واتفاق شبه كامل بين حضارة الأقزام والحضارة الزنجية القديمة .
- يؤكد باومان أن الحضارة الزنجية القديمة هي أقدم حضارات أفريقيا وتكون الأساس الذي أخذت منه حضارة غرب أفريقية والحضارة السودانية الحديثة .
- ويؤكد أن النوبيين هم زنوج أفريقيا القدماء واسكنهم اختلطوا بشدة مع الحاميين الأثيوبيين .
- أما الهوتنتوت فهم خليط بين الأورو — أفريقيين (البشمن) والعناصر الحامية الشرقية .
- ويقول إنه من الصعب أن نميز في إقليم السودان بين عناصر الحضارة السودانية الحديثة وعناصر حضارة البحر المتوسط القديمة ، وتلك العناصر التي تستمد أصولها من الشرق الأدنى القديم وأخيرا المفردات والتركيبات الحضارية العربية الإسلامية . فهو يرى عن حق أن كل هذه العناصر

والطبقات الحضارية قد تداخلت معا مكونة حضارة متناسقة ومتفاوتة في آن واحد .

— ويؤكد باومان أخيرا أن هذا الخلط الشديد الذي حدث في أقليم السودان له نظير أشد تداخلا في النطاق الساحلي لشرق أفريقيا حيث اختلطت عناصر حضارية أفريقية مع عناصر عربية وفارسية وهندية وعناصر أخرى مشتقة من الملايو وأندونيسيا .

وهكذا نرى أن باومان — على الرغم من تأثره بأنكرمان وفروبنوس وبعض الشيء بسليجمان ، إلا أنه وفق فعلا إلى حل عدد من المشكلات الهامة في الدراسات الأفريقية . وقد أفادت هذه الحلول كثيرا مما ثبت صحتها حتى الآن .

وعلى الرغم من أن باومان يجمع العديد من العناصر الحضارية في النطاق الزنجي والسوداني من أفريقيا ويشبها بما كان في الحضارة المصرية القديمة إلا أنه يعود في النهاية فيرجع عدد منها إلى الحضارة السودانية كما ذكر شيلده . ومن أهم الأمثلة على ذلك أنه يرفض نظرية سليجمان عن الأصل الحامي لفكره القتل المقدس لذلك ويربطها فقط بالحضارة السودانية ولكن باومان ينسى أنه قد وصف الحضارة السودانية بأنها اشتراك معقد لعدد من الحضارات منها ماهو مرتبط بالشرق الأدنى ومنها ماهو مرتبط بحضارة البحر المتوسط . فموقف باومان في ذلك موقف يشابه موقف سليجمان حينما يتردد كثيرا بين الأصول المصرية لعدد من الظواهر الحضارية والأصول التي يفترضها . الفارق الوحيد أن سليجمان يعود إلى النظرية الحامية وباومان وشيلده يعودان إلى النظرية السودانية .

النظرية المصرية

سبق أن أشرنا إلى أن معظم الكتاب الذين حاولوا تفسير التشابه

الحضارى لعدد من العناصر فى أفريقية فى صورة نظرية أو أخرى لم يستطيعوا أن ينكروا فى كتاباتهم العديدة وجود التشابه الكبير بين هذه العناصر الحضارية والحضارة المصرية القديمة . ونستعرض فيما يلى آراء عدد من الباحثين بناء على مشاهداتهم لهذه العناصر التى لاحظوا أوجه الشبه بينها وبين الحضارة المصرية القديمة .

ميك (٢٢) C. K. Meek

لاحظ التشابه فى نواحى الحضارة الاجتماعية والمعادية والمعتقدات بين زنوج نيجيريا ومصر القديمة . فذكر أن ديانة قبيلة جيبو Jibu — وهى إحدى قبائل الجوكون ذات الحكم الملكى المقدس تدور حول عبادة الشمس ، فلهيهم الإله الأعلى Shido وهو وإله الشمس انيوانو Anyunu شىء واحد ، وتعمل له المراسيم الدينية خصوصا مراسيم الشمس التى تقام سنويا قبل بذر التقاوى للزراعة . وتقام الحفلات عند شروق الشمس وغروبها حيث يقوم الكاهن ومساعدوه بتقديم القرابين للإله فى هيكله .

كذلك يقول ميك إن مام Mam أحد آلهة الجوكون هو تحريف للإله Maat المصرى ، ويرتبط هذا الإله بالخلقة وهو حاكم الآموات فى العالم السفلى . ثم يعمم ميك فىقول إن عبادة الشمس منتشرة فى جهات كثيرة فى غرب أفريقية حيث يسمى إله الشمس Shui وهو شبيه بالإله المصرى القديم شو ^٧ Sw .

ويذكر ميك أنه يوجد أيضا تقليد « فك قماش الفم » الذى يوازى تقليد « فتح الفم » عند المصريين opening of the mouth

تالبوت^(٢٢) P. A. Talbot

درس تالبوت قبائل جنوب نيجيريا مثل الأيبو والأيبيبو والبوربا وغيرها ولاحظ الكثير من المفردات الحضارية التي شبهها بالحضارة المصرية القديمة ونذكر منها مايلي .

(١) عمل المقابر ذات الأنفاق والسراديب والتي تستعمل حاليا لدفن الزعماء وعليه القوم .

(٢) قتل زوجات وخدم وحيوانات الزعيم الميت ودقها معه ومع ممتلكاته الخاصة .

(٣) تخفيف جسد الميت بالدخان كما في الأيبو كطريقة لتحنيطه .

(٤) لف الجسد في نسيج من لحاء الشجر مما يعطى فكرة المومياء .

(٥) وضع الجثمان على ظهره وذراعيه فوق صدره وأحيانا توضع في يده عصا

(٦) يرسل الأيبيبو مائدة قرابين يوميا إلى المقبرة حتى نهاية مراسيم الدفن .

(٧) يقيم الأيبيبو كوفا صغيرا يسميه تالبوت بيت الكا Ka house ويوضع فيه تمثال يمثل الميت جالسا فوق مقعده كما في الحياة الدنيوية وبملابسه الكاملة وفوق رأسه قبعة رمز السلطة وتوضع أمامه مائدة القرابين .

باومان H. Baumann

أما الأستاذ باومان Baumann فقد ذكر عدد من العناصر الحضارية

الشبيه بالحضارة المصرية السائدة في أفريقيا الزنجية نذكر منها مايلي :

١ — مجمع الاله والتفكير الكوزمولوجى عند اليوربا يشابه كثيراً مصر الفرعونية .

٢ — تعتقد جماعات Mungo-Kundu في شمال الكونغو بوجود قوى غير مادية تسمى Elima يمتلكها كبار السن في العشيرة ويمكن لغيرهم أن يمتلكوها اذا اجتهدوا وترتبط هذه القوى بكل الذكاء ونواحي النجاح والقوة . هذه القوى تتشابه كثيراً مع فكرة « الكا » عند الفراعنة وتساوى الطاقة التي تهبط من الأسلاف الى الأحفاد والأبناء . وتختلف الفكرة الراهنة عند المونجو عما كانت عليه عند المصريين في أن القوى غير المادية قاصرة على كبار السن بينما لكل شخص في مصر « كا » خاصة به .

٣ — يستخدم المونجو — كوندو التوابيت في الدفن ، كما يصنعون تماثيل من الصلصال لتوضع مع الأموات في القبور — مما يعيد إلى الأذهان بعض عقائد الدفن عند المصريين القدماء .

٤ — عند المالبانكة في النيجر الأعلى ما يسمى بالروح الثانية ، وهي تصحب الشخص منذ مولده حتى وفاته ثم تنتقل بعد ذلك إلى تماثيل المتوفى . وتحتل الروح الثانية من الشخص أثناء النوم أو الوفاة . وهذه الروح تساوى الطاقة الحية أو طاقة الحياة . وإذا صادفت الروح حادثاً سبباً صادف الجسم شيئاً سبباً هو الآخر . ومثل ذلك نجده أيضاً بين سكان الفولتا العليا . فهناك روح تحرس الشخص طوال حياته تسمى Nyama عند قبيلة Bobo ، وتسمى Sera Segera عند قبيلة Nankanse .

٥ — تنتشر في مناطق الفولتا العليا أيضاً وفي مناطق ساحل الأطلسنطى من غرب أفريقيا عبادة الثعبان ، ويرتبط ذلك بالخصوبة ، وإن كان الثعبان يمثل الشيطان ويشابه ذلك العداء في مصر بين الإله رع والثعبان .

٦ - عند المازاي في شرق أفريقيا إله أسود طيب وإله أحمر شرير يتقابلان خلال العواصف الرعدية . وفي مصر الفرعونية إله الشر «ست» يرمز إليه باللون الأحمر كما أن اللون الأسود يغلب على الحيوانات المقدسة.

تاوونج^(٢٤) G. Thausing .

ذكرت الأستاذة جرتروود تاوونج أنه في نطاق الحضارات السودانية الجديدة في وسط وغرب إقليم السودان الطبيعي مركبات حضارية مرتبطة وتتشابه مع الحضارات العليا ، تماماً كما هو الحال في حضارات شرق أفريقيا عند الكافا في الحبشة وباتو البحيرات في أوغندا التي توصف دائماً بأنها مستودعات للحضارة المصرية القديمة .

في حضارات السودان الجديدة نجد دائماً حاكم مقدس ، وزواج الملك بشقيقته ، والدور الهام للملكة الأم ، والقتل المقدس للملك ، والنار المقدسة التي ترتبط بحياة الملك بل تمثلها . والمحرمات العديدة على الملك ، والفوضى التي تدب بعد وفاة الملك أو ما يسمى مرحلة الانتقال بين وفاة الملك والفترة التي تنقضي حتى يتم لخليفته ارتقاء العرش .

وكما أشياء نلاحظها بطرق مختلفة في مصر الفرعونية : ألوهية الفرعون ، زواج الشقيقات في البيت المالك ، مركز الملكة الأم .

أما حفلة الحب سد hb-sd التي سجلت على المعابد المصرية فقد قيل إنها أصلاً كانت تعني قتل الملك قتلاً مقدساً ثم تحولت بعد ذلك إلى أن أصبحت تجديداً لحكم الملك كلما انقضى عليه في الحكم عدد معين من السنين .

(٢٤) راجع في قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم تاوونج »

كذلك النار المقدسة تمثل حياة الفرعون ولو أن Pr-Nsr « بيت اللهب » ،
في عقائد الدلتا كانت ترتبط بالحياة القديمة أو الآلهة التي تنفث اللهب .
كذلك نعرف في مصر القديمة وصف الملك بأنه النار Der König, das
Feuer zu seinerzeit ولهذا نجد في كتابات الاهرامات أن الملك هو
اللهيب الأحمر ، وأنه جاء من جزيرة النار ليحل العدالة محل الظلم . كذلك
عند وفاة الملك كان يقال : أنظر إلى اللهب قد صعد إلى السماء ... ، والنار
المقدسة التي لا تنطفئ إلا عند وفاة الملك ظاهرة شائعة بين عدد كبير من
القبائل الأفريقية .

وعلى الرغم من أن الأستاذ تاوزنج توافق الأستاذ باومان على فكرة
الأصل الحامي للتشابه بين مصر وبقية أفريقية ، إلا أنها تعود فتؤكد أنه
لم يحدث أبداً في أفريقيا مثيلاً لمصر غير مصر واحدة .

بيبر^(٢٥) F. Bieber

يقول إن الملك في كافا Kaffa يسمى Heqo وهو يساوى عند
المصريين اصطلاح hk بمعنى الملايين اللانهائية من طبقات الجو . ولكن
الأستاذ تاوزنج تقول إن هكو عند كافا يساوى hkz عند الفراعنة وهي
تساوى حاكم .

أما الأستاذ جيفريز^(٢٦) M. D. W. Jeffreys فقد بنى حكمه على التشابه بين
مصر الفرعونية والجماعات شبه البانتوية والزنجية من دراسته لنظام الحكم
الثنائي أو الحكم المزدوج في قبائل اليوروبا والايبو .

(٢٥) راجع في قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم بيبر

(٢٦) راجع في قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم جيفريز

روسكو (٢٧) J. Roscoe

كتب روسكو عن قبائل أوغندا وذكر الكثير من المظاهر الحضارية
التي يشهدها بالحضارة المصرية فقد لاحظ النظام الملكي المقدس بما فيه من قتل
أخوة الملك الحاكم عندما يتولى العرش وقتل أية واحدة من بناته إذا
تزوجت أو أنجبت طفلا . كذلك المركز الممتاز للملكة والوالدة والملكة
الأخت ، فكل منهما بلاطها الخاص ووزرائها وموظفو البلاط مماثلين
زملائهم الذين في خدمة الملك سواء في اللقب أو في اختصاص العمل .
كذلك المراسيم والطقوس الكثيرة الخاصة بالملك في حفلات الدفن حيث
تحفظ الجثة ويقدم الرعايا الملابس المصنوعة من لحاء الشجر قرابين للملك
الميت ، ويقتل أربع من زوجاته وخدمته ، الخصوصيين ومئات من العبيد
الأسرى . ويذكر روسكو أن الملك الحاكم يقوم بزيارة قبر والده ويقدم
القرابين البشرية لروح أبيه وذلك مرة خلال حكمه .

ومما ذكره روسكو أن كل ملك يحتفظ بالنسر كطوطم له بجانب
طوطم العشيرة . وذلك على الرغم من عدم وجود عشيرة النسر . كما لاحظ
تقليد رمى الأمم ، Shooting the nations التي يقوم بها ملك الباجندا في
حفلات تنويره حيث يقذف السهام على الأمم المجاورة .

لينتون (٢٨) R. Linton

ذكر رالف لينتون أن الحضارات الأفريقية الزنجية فيها عناصر حضارية
من مصر وساحل البحر المتوسط ، مستنداً إلى العلاقات التجارية المصرية
القديمة مع القبائل الزنجية في أعالي النيل منذ ٢٥٠٠ ق . م على الأقل ، كما

(٢٧) راجع في قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم روسكو
(٢٨) راجع في قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم لينتون

أشار إلى فتح المصريين لبلاد النوبة واحتلالها في عهد الأسرة الثامنة عشر ١٥٧٠ — ١٢٠٠ ق . م واتخاذ النوبيون عبادة آمون رع المصرى والحضارة المصرية عموماً . ثم هروب كهنة طيبة إلى نباتا عندما استقر الليبيون في مصر ، وزيادة نشر الحضارة المصرية هناك .

وبناء على هذا فإن لينتون يعتقد أن العناصر الحضارية دخلت أفريقيا الزنجية عن طريق السودان النيلي . ثم هو يذكر الكثير من هذه العناصر مثل انتشار فكرة ألوهية الملك الذى يعتمد رخاء البلاد وسعادتها على قوته ، وعادة زواج الملك بأخته وهى العادة التى كانت منتشرة فى كثير من ممالك وسط أفريقية وتدل دلالة قوية على الصلة بمصر ، وطبقاً لهذا النظام كانت على الملكية واجبات ولها امتيازات ومركز وثروة تشبه ما كان للملك « وهذه العادة متبعة فى قبائل الباهيا فى أوغندا .

كذلك يشير إلى أن الديانة فى قبيلتى اليوربا والأشانتى بما فيها من نظام كهنوتى متقن وآلهة متعددة يعبد كل منها على حدة ، وحيوانات مقدسة تشبه ما كان فى ديانة مصر . كذلك فإن الأشانتى يعتقدون فى وجود قرين روحانى يزور القبر بعد الموت ويقدمون له القرابين كما كان يفعل المصريون الذين كانوا يعدون قبورهم من أجل راحة الـ « كاه » ويقول لينتون إنه مما يزيدنا إيماناً بوجود هذه الصلة القديمة أن الأشانتى يطلقون على هذا القرين اسم « كرا » .

ولكن الأستاذ لينتون بعد أن ذكر الكثير من العناصر المتشابهة بين مصر وأفريقية الزنجية نجده متأثراً إلى حد كبير بالأستاذ سليجمان عن الأصل الحامى لهذه المظاهر حيث يقول . . هذه الأشياء التى ذكرناها وغيرها من العناصر الأخرى التى توحى بأثر مصر نراها موزعة توزيعاً غير منتظم ولهذا يصعب علينا تفسيرها على أساس انتشار التأثير المصرى . ويبدو من الأرجح أن وجودها فى كل من مصر وأفريقية الزنجية كان نتيجة لتطور

مستعمل في كل منهما بعد أن تفرعا من أصل واحد ، من حضارة حامية قديمة .

هيرشبرج (٢٩) W. Hirschberg

حدد فالتر هيرشبرج أهم العناصر الحضارية المصرية القديمة الموجودة في الممالك الزنجية فيما يلي :

١ - إطالة الجمجمة إلى الخلف - هذا التشويه يوجد أقدم نموذج له في تمثال أخناتون الذي يعود الى ١٣٧٠ ق . م - هذه الظاهرة توجد بين الطبقات الحاكمة في كثير من القبائل الأفريقية في الجزء الغربي من وسط أفريقيا مثل أنجولا وتظهر بوضوح بين قبائل المانجبوتو . وتحدث هذه الإطالة بواسطة ربط الرأس بلفائف من الأقشة في سن الرضاعة وبهذا لا يصبح للرأس اتجاه للأمتداد إلا إلى الخلف وأعلى . كذلك تحدث الإطالة في نيجيريا والكرتون بواسطة تدليك الرأس لكي تنمو في الاتجاه المطلوب . وهذه الحالات من تعديل النمو الطبيعي للرأس يعتبر مبدءاً جمالي يسير وفقه الطبقة الحاكمة وقد يقلدها في ذلك طبقات الشعب .

٢ - عمل المومياة وتحدث غالباً بالنسبة للزعماء والملوك فقط . فقد وجد في الحضارات العليا في مصر وشمال أفريقيا عديد من أنواع التحنيط وعمل المومياة وفكرة لف الجثمان في كثير من الأقشة أو غيرها من المواد كي تقلل إلى الحد الأدنى احتكاك الجسد بالأرض . ونلاحظ أن هذه الظاهرة قد تطورت بشكل واضح في مناطق معينة مثل ساحل لوانجوشمال مصب الكونغو وعند جماعات بابوينده Babwende شمال نهر الكونغو قرب برازيل . وقد شاهد أحد الكتاب سنة ١٩٢٧ عمل المومياة عند البابوينده ، بعد أن جفف الجسد تماماً لف في كميات هائلة من النسيج والحصير والقش ثم يخاط عليه

جلد أربع أو خمس ثيران بحيث تحولت المومياة الى كتلة هائلة فى صورة إنسان يبلغ حوالى خمسة أمثال الانسان العادى فى سمكه ومثلاثة أمثاله فى طوله . وفى القرن ١٧ و ١٨ كان سكان ساحل لوانجوى يلقون جسد الحاكم فى كميات هائلة من المواد فى شكل شرنقة الفراش . كذلك يحتمل أن يكون ملوك مملكة الكونغو القديمة استعملوا طريقة لف جثمان الميت بكميات كبيرة من المواد . والغالب بين الحكماء وملوك القبائل الأفريقية أن الجثمان يلف دائماً بجلود الماشية .

٣ — عمل التماثيل التى تشابه الميت كما فى المقابر الفرعونية حيث توجد التماثيل بجوار المومياة . فملوك مملكة الكونغو القديمة كانوا يصنعون تماثلاً أثناء عملية تجفيف جسد الملك بواسطة الدخان التى كانت تستغرق وقتاً طويلاً . ويذكر هيرشبرج بيت الـ « كا » الذى كتب عنه تالبوت حيث يوضع فيه تماثيل من الطين الجيد يشبه الزعيم المتوفى ويضعون فوق التماثيل ملابس الزعيم كما يضعون على رأسه القبعة ويجلس هذا التماثيل على كرسى وفى كل صباح تقدم له التضحيات ، وهناك اعتقاد بأن الروح ترتبط بالتماثيل ولذلك يتكلم الناس مع التماثيل كما يتكلمون مع الشخص الحى .

٤ — التشابه بين الفن الإفريقى الحديث والفن المصرى القديم ، ومن أوضح الأمثلة منطقة لوانجوا — كساي فى الكونغو حيث توجد التماثيل دائماً وبها الذقن المستعار وهى ظاهرة تمثل التماثيل المصرية القديمة . كذلك تماثيل الملك Kata-mpula ملك باكوبا Bakuba على نهر كساي (وكان يحكم فى نهاية القرن ١٨ وأوائل ١٩) — حيث يبدو فيه بوضوح طابع التماثيل المصرية القديمة الهدوء والحكمة . ويدخل فى هذا الموضوع أيضاً مسألة الذقن الملفوفة فى جديده على أنها مظهر من مظاهر الرئاسة فى أفريقيا الزنجية . مثال ذلك ما يفعله ملوك البانيورو حينما يضعون ذقناً مستعاراً من شعر أبيض من القرده ، وكذلك جماعات الباكراجوى فى غرب أوغندا حيث يلبس الزعيم ذقن مستعاراً تربط إلى الرأس بواسطة عقد من الخرز .

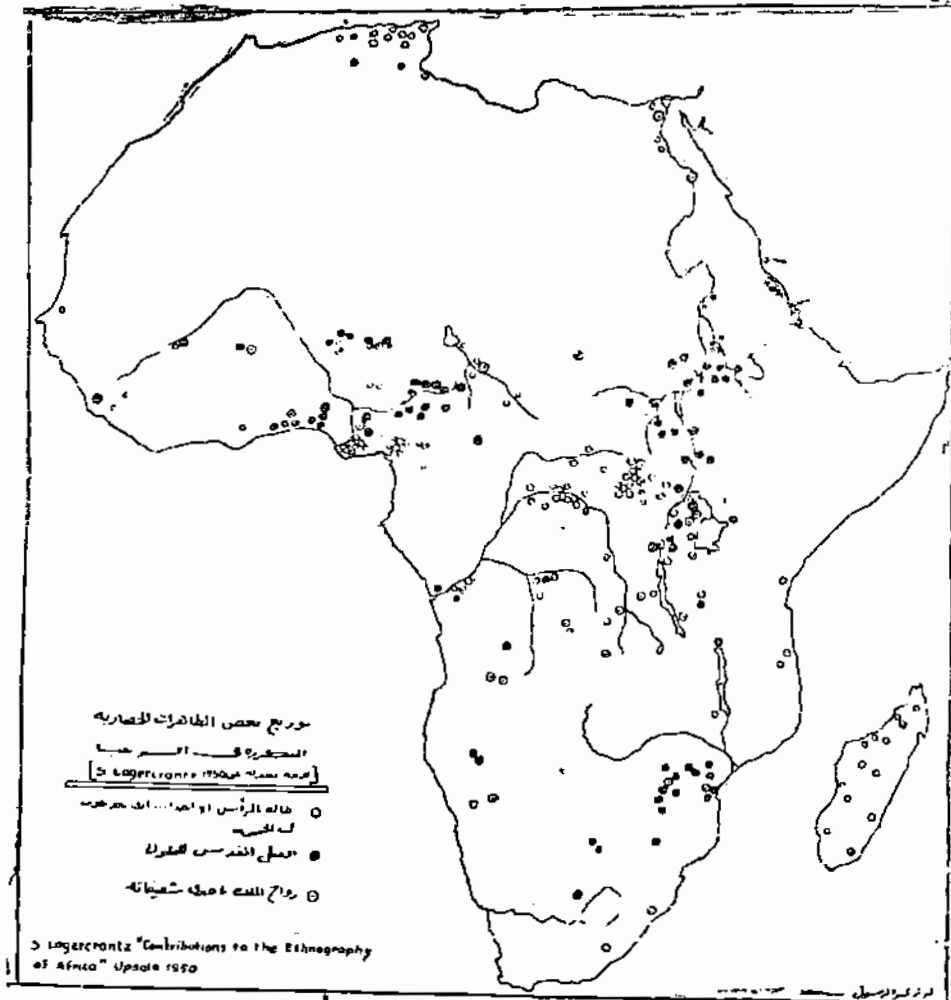
ثم يقول هيرشبرج إن هذه المظاهر الفرعونية دخلت أفريقية الزنجية لا من أرض مصر نفسها إنما من الإقليم النوبي في بناتا ومروى^(٢٠).

“Das grosse Tor, durch das der pharaonische Gedanke in Negerafrikas Einzug hielt, bildete nicht Altägypten selbst, sondern das obere Nilgebiet, Napata und Meroe. Das mag im ersten Augenblick ein wenig uberrasschen”.

وقد نشأت مملكة مروى حوالى الألف ق. م. وملوكها أصلاً من كهنة آمون الذين هربوا من طيبة. وظلت مروى تحت الحكم المصرى قرابة ألف سنة ثم تحولت إلى المسيحية تدريجياً بعد أن دهرتها قوات ملك أكسوم المسيحى فى القرن الرابع الميلادى وبعد قرنين أى فى أواسط القرن السابع أصبحت مسيحية وبذلك انتهى عهد الوثنية ونفوذ الكهنة وقد اضطروا هؤلا للهجرة أو ربما طردوا وسلكوا طرقاً إلى شمال كردفان ودارفور. ويؤكد ذلك بقوله إننا نجد كثيراً من مميزات وعناصر الحضارة الملكية فى مراحل مختلفة تمتد فى توزيع جغرافى من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب فى مناطق منعزلة مما يدل على اتجاه الهجرات ولهذا نجد كثيراً من التماسك الحضارى بين مصر القديمة ومروى من ناحية وتلك الدول والأقاليم التى توجد على طريق الهجرات من ناحية أخرى. ونجد أن هذا النفوذ المصرى المروى القديم يصل إلى ممالك الهيبا فى هضبة البحيرات وزيمبابوى فى روديسيا وقبائل باروتسى Barotsi وممالك الكوبا واللوبا واللوندا والكنغو البلجيكي جنوباً. وإلى الغرب نجد هذه العناصر الحضارية تمتد من دارفور إلى السودان الأوسط فى ممالك القديمة التى ازدهرت فى العصور الوسطى والهوسا وقبائل ثنية النيجر والسودان الغربى وممالك ساحل غانة. وهذه الدول كلها كانت ترتبط فيما بينها ومن أهم وسائل هذا الارتباط التبادل التجارى. وأن هذه الممالك والقبائل تجمع فيما بينها نموذج حضارى

Hirshberg, 1959. “Altägyptische Kultureinfluss in Neger-Africa”. P. 50.

خاص يميز من أهم عناصره الملك الكاهن، أو الملك المقدس، أو القتل المقدس
لذلك تم المركز الهام للمملكة الأم في إدارة شئون المملكة إلى جوار ابنها
وبعض مظاهر النظام الأبوي في الوراثة، ونظام زواج الملك بشقيقة .
كذلك بعض مظاهر في الملابس والزينة خاصة بالأسرة الحاكمة مثل الذقن
المستعمارة والطرق المختلفة لتجفيف جسد الملك أو الزعيم ولفه بكثير من
المواد محاولة منهم في عمل مومياء له . والمركز الممتاز الذي يصل إلى حد
التقديس المباشرة ، وطريقة عمل مدافن الملوك... إلى آخر ذلك من العناصر.
الخريطة رقم (٢) .



ثم يحاول غير شبرج أن يبين إذا كانت هذه العلاقات بين مصر وأفريقية الزنجية قديمة جداً إلى ما قبل التاريخ أو أنها حديثة تعود إلى الهجرات ، فيقول إننا نجد اشتراكاً في الجنس والعادات واللغات وبالتالي قرابة قديمة جداً تربط بين مصر وأفريقية الزنجية ، ويوجد من بين الكتابات الحديثة كتابين يؤيدان هذه العلاقات الحضارية منذ ما قبل التاريخ والمؤلفان هما H. G. Mukarovsky ، E. Zyhlarz وهما من علماء اللغة ومن أم ما ذكره ويبحثوا فيه الترابط ما بين كلمة شمس Na — Nge وكلمة ماشية Nag — ge في لغة الفولاني في السودان الغربي — وقد أوضحنا أن الجذر Nag يرجع إلى طبقة لغوية قديمة ترتبط باللغة المصرية القديمة . وإلى جانب هذه الاكتشافات اللغوية نجد أيضاً تشابهاً في حضارات ما قبل التاريخ فمثلاً الطبقة الثانية القديمة من رسومات الصخر في صحراء مصر العليا نجد ماشية شمس حيث القرون في شكل قرص أو بين قرونها قرص — وبماثل هذا الكشف التي قام بها ليفرو وبنيوس في الصحراء حيث وجد كثير من الرسوم على الصخر ومن بينها ماشية قرونها على شكل قرص أو فيما بين قرونها حلقة .

ويمكننا أن نربط بين ماشية الشمس هذه أو ماشية السماء وبين مثيلاتها في مصر ، ويؤكد هذا ما استخلصه العالمان اللغويان الذي سبق ذكرهما عن الارتباط الجنري وارتباط المعنى والمدلول بين الماشية والشمس في لغة الفولاني . ويمكننا أن نتذكر في هذا المجال الآلهة هاتور Hator التي تصور في شكل بقرة تحمل فيما بين قرناها قرص للشمس ، أو نتذكر صورة عجل أيبس المقدس الذي كان يظهر في العصور الأخيرة من تاريخ مصر مرتبطاً بقرص الشمس دائماً . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقول إن هناك احتمال ارتباط قديم يعود إلى عصور ما قبل التاريخ بين مصر وبقيّة أفريقيا .

والواقع أنه من الصعب الإجابة على التشابه الحضارى بين مصر وأفريقية
الزنجية لإجابة صحيحة تماما ، وربما كانت العلاقات القديمة جداً فيما قبل
التاريخ هى السبب وربما كانت هذه العلاقات أحدث من ذلك تعود الى
الهجرات التاريخية .

وفى كتاب ميروقتس^(٢١) عن قبائل الأكان Akan أن هذه القبيلة
أو على الأقل فى تاريخها وهو تاريخ حكامها ما يشير الى أنها أتت من جهة
الشمال وخاصة من منطقة واحة بلما على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى .

وفى أبحاث محمد رياض^(٢٢) عن الشلك والجوكون والنظام الملكى
المقدس دراسة تحليلية لهجرة هذه المظاهر الحضارية من مصر إلى مروي
ومنها إلى دارفور ثم الى السودان الغربى ، وكذلك من دارفور إلى أعالي
النيل وهضبة البحيرات .

(٢١) راجع فى قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم ميروفتيس
(٢٢) راجع فى قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم رياض

خاتمة

بعد عرض هذه الآراء العديدة التي ترمى كلها إلى ظهور وتوزيع عدد من الظواهر الحضارية المترابطة في نواح مختلفة من أفريقيا ربما أمكننا أن نختم هذا المقال برأى قد يكون بعيدا عن أن يحسم الموضوع ، ولكنه من قبيل الإدلاء بدلونا في هذا الموضوع .

خلاصة القول انه من الملاحظ أن كل الكتاب قد أجمعوا على وجود التشابه في عدد من العناصر الحضارية ، وإن اختلفوا في تفسير أصلها ، ولكن الكثير من الكتاب الذين ذكرناهم يميلون إلى تأييد التشابه الكثير بين مصر الفرعونية ومروى وبين بقية أفريقيا مما يجعل لهذه النظرية الكثير من الثقل . وعلى أية حال فإن الدراسات التفصيلية الدقيقة لعدد من الظواهر الحضارية من الناحيتين الوظيفية والتاريخية يجب أن تتم قبل أن يحسم هذا الجدل الكبير . وقد لا نكون مباغين إذا قلنا إن الدراسات الأركيولوجية والدراسات الفنية قد تصبح عاملا حاسما في الموضوع ، لأنها سوف تلقى الكثير من الضوء على العلاقات المكانية في الماضي وربما ساعدتنا على دراسة موضوع الهجرة البشرية والحضارية في أفريقيا . ومن الأمثلة التي أسوقها على تدعيم هذا الرأي الدراسة التي قامت بها السيدة الدكتورة أناماريا هيفل A. Hefel عن الآثار المصرية وآثار شمال أفريقيا والبحر المتوسط الغربي في تشكيل فنون صب النحاس وطرقه في تلك المنتجات الفنية الرائعة التي نشاهدها في ساحل غانة بين اليوروبا والبنين والاشاتي . وملخص بحثها^(٣٣) أن النحاس - صهره وطرقه - كان معروفا في غرب أفريقيا قبل وصول البرتغاليين ، ففي كتابات ابن بطوطة والبكري وصفا شيقة

للمعامل صهر النحاس في كيلي Killi في دلتا النيجر الداخلية وفي لوبي Lobi في الفولتا العليا . وهذه المصاهر يرجع تاريخها إلى القرن الثاني عشر وربما أقدم من ذلك . والراجح أن مصنع كيلي يعود إلى القرن التاسع أو العاشر .

كذلك تبرهن هيفل بطريقة أخرى غير الكتابات التاريخية على قدم صناعات النحاس في غرب أفريقيا فنقول إنه لا يمكن أن يكون الأوريون قد أثروا على طريقة عمل النحاس في قوالبه المعروفة لأرمثل هذه القوالب الفنية لا يمكن أن تكون قد ظهرت مرة واحدة فجأة أثر وصول الأوريين . ذلك أن الاتجاهات الفنية تستغرق وقتا طويلا قبل تكاملها واستقرارها في صورة فن جديد .

وتوضح هيفل إرتباطات متعمقة في القدم لفنون النحاس في غرب أفريقيا عن طريق الدراسة التفصيلية للمنتجات الأفريقية في بنين والفولتا . ونتيجة لهذه الدراسات خرجت إلى نتائج هامة ملخصها أن فن بنين الأول وهو الذي يطلق عليه فن (يوربا — جيبا — بنين) يرتبط ارتباطاً وثيقاً في تفصيلاته ودقائق صنعه بمثيله من الفنون المصرية الفرعونية في أواخر الدولة الحديثة وأوائل العصور اللاحقة له — أي قبل العصر البطلمي في مصر — وهذا يعني أنه كان هناك اتصال بطريقة ما خلال الألف الأولى قبل الميلاد بين حوض النيل وبين جنوب نيجيريا . وتستمر التأثيرات المصرية حتى العهد القبطي التي تظهر آثارها واضحة جلية في منتجات الفترة الفنية الثانية لبنين ، وهي التي تسمى « فن بنين » فقد لاحظت هيفل من الدراسة المقارنة كيف تتشابه اتجاهات القوالب والرسومات بين الفن القبطي الذي بلغ أوجه في القرنين الثالث والرابع الميلاديين وبين فن بنين ، وتقترح هيفل أن يكون الاتصال بين النيل وغرب أفريقيا قد تم عن طريق حفرة النحاس في جنوب دارفور إلى تشاد إلى النيجر الأدنى . وتقول أيضا بأنه ربما كان هناك اتصال من مصر القبطية عن طريق آخر هو ليبيا —

مرزوق — كانو — نيجيريا . أما الفنون التشكيلية للنحاس في ألا كان —
أشانتى فتربطها هيفل بشمال غرب أفريقيا وحوض البحر المتوسط الغربى .
وهذا النوع من الفنون يختلف عن فن البنين في مرحلتيه ويتشابه مع مؤثرات
من ابريا وإيطاليا وشمال أفريقيا عبر دروب الصحراء الكبرى إلى تمبكتو
وحوض الفولتا الأوسط .

هكذا توضح لنا هذه الدراسة أهمية الأبحاث المستمرة في جوانب
عديدة من الحضارات الأفريقية الترابط والتأثير الذى يشير كله إلى ضرورة
البحث عن أصول عدد كبير من المفردات الحضارية فى مصر وشمال أفريقيا.

قائمة بأهم الكتب المؤلفين

أوردنا ذكرهم

- 1 — **Ankenman, B.**, 1905. "Kulturkreise und Kulturschichten in Afrika" in Zeitschrift für Ethnologie. Berlin.
- 2 — **Baumann, H.**, 1936. "Schöpfung und Urzeit des Menschen im Mythos der afrikanischen Völker" Berlin.
- 3 — **Baumann, H.**, 1940. "Volkerkunde von Afrika" Essen.
- 4 — **Baumann, H.**, 1944. "Zur Morphologie des afrikanischen Ackergerätes" in Wiener Beiträge zur Kulturgeschichte und Linguistik. Wien.
- 5 — **Bieber, F.**, 1920-1923. "Kaffa". Munster.
- 6 — **Frobenius, L.**, 1898. "Der Ursprung der afrikanischen Kulturen" Berlin.
- 7 — **Frobenius, L.**, 1910. "Kulturtypen aus dem Westsudan" Gotha.
- 8 — **Frobenius, L.**, 1912-1913. "Und Afrika Sprach" Berlin.
- 9 — **Frobenius, L.**, 1921. "Atlas Afrikanus" München.
- 10 — **Frobenius, L.**, 1921. "Spielmannsgeschichten der Sahel" Jena.
- 11 — **Frobenius, L.**, 1924. "Volkserszählungen und Volksdichtung aus dem Zentralsudan" Jena.
- 12 — **Frobenius, L.**, 1924. "Volksdichtungen aus Oberguinea" Jena.
- 13 — **Frobenius, L.**, 1925. "Dichten und Denken in Sudan" Jena.
- 14 — **Frobenius, L.**, 1926. "Die atlantische Götterlehre" Jena.
- 15 — **Frobenius, L.**, 1931. "Erythraea, Länder und Zeiten des heiligen Königsmordes" Berlin.
- 16 — **Frobenius, L.**, 1933. "Kulturgeschichte Afrikas" Wien.
- 17 — **Hefel, A.**, 1943. "Der afrikanische Gelbguss und seine Beziehungen zu den Mittelmeerländer" in Wiener Beiträge zur Kulturgeschichte und Linguistik. Wien.
- 18 — **Hirschberg, W.**, 1929. "Die Plejaden in Afrika" in Zeitschrift für Ethnologie, Berlin.
- 19 — **Hirschberg, W.**, 1934. "Wanderungen und Herkunft nilotischer Völker" in Forschung und Fortschritt.

- 20 — **Hirschberg, W.**, 1935. "Die Zeitrechnung der Masai und verwandeter Völker" in Zeitschrift für Ethnologie, Berlin.
- 21 — **Hirschberg, W.**, 1943. "Asiatistische Kultureinflüsse an der Ostküste Afrikas" in Kolonial Rundschau.
- 22 — **Hirschberg, W.**, 1954. "Die Völker Afrikas" in "Die Neue Grosse Völkerkunde" Frankfurt.
- 23 — **Hirschberg, W.**, 1959. "Altägyptischer Kultureinfluss in Negerafrika" in Die Umschau in Wissenschaft und Technik, Frankfurt.
- 24 — **Jeffreys, M. D. W.**, 1946. "Dual Organisation in Afrika" in African Studies, Johannesburg.
- 25 — **Jeffreys, M. D. W.**, 1951. "The Origin of the Benin Bronzes" in African Studies, Johannesburg.
- 26 — **Johnston, H.**, 1902. "The Uganda Protectorate" London.
- 27 — **Johnston, H.**, 1906. "Liberia" London.
- 28 — **Linton, R.**, 1955. "The Tree of Culture" New York.
- 29 — **Meek, C. K.**, 1925. "The Northern Tribes of Nigeria" London.
- 30 — **Meek, C. K.**, 1931. "Tribal Studies in Northern Nigeria" London.
- 31 — **Meek, C. K.**, 1931. "A Sudanese Kingdom" London.
- 32 — **Meyerowitz, L. R.**, 1958. "The Akan of Ghana. Their ancient beliefs" London.
- 33 — **Riad, M.**, 1959. "The Divine Kingship of the Shilluk and its Origin" in Archiv für Völkerkunde, Wien.
- 34 — **Riad, M.**, 1960. "The Jukun: an example of African migrations in the sixteenth century" in Bul. de l'Institut Française d'Afrique Noire, Dakar.
- 35 — **Roscoe, J.**, 1907. "The Bahima" in the Journal of the Royal Anthropological Institute.
- 36 — **Roscoe, J.**, 1911. "The Baganda" London.
- 37 — **Roscoe, J.**, 1915. "The Northern Bantu" London.
- 38 — **Roscoe, J.**, 1925. "The Banyankole" Cambridge.
- 39 — **Roscoe, J.**, 1923. "The Bakitara or Banyoro" Cambridge.
- 40 — **Roscoe, J.**, 1924. "The Bagesu and other tribes of the Uganda Protectorate" Cambridge.
- 41 — **Schildt, W.**, 1926. "Beiträge zur Hamitenfrage" in Tagungsbericht der Anthropologischen Gesellschaft, Augsburg.
- 42 — **Schildt, W.**, 1929. "Die afrikanischen Hoheitszeichen" in Zeitschrift für Ethnologie, Berlin.

- 43 — **Schilde, W.**, 1929. "Die Ostwestliche Kulturbeziehungen in Sudan" Im Memoriam Karl Weule" Leipzig.
- 44 — **Schilde, W.**, 1939. "Die Völker, Sprachen und Rassen am oberen Nil" in Otto Reche Festschrift.
- 45 — **Schilde, W.**, 1943. "Kulturen mit europäischen Einschlag in Afrika" in Wiener Beiträge zur Kulturgeschichte und Linguistik, Wien.
- 46 — **Schmidt, W.**, 1910. "Die Stellung der Pygmäenvölker in der Entwicklungsgeschichte des Menschen" Stuttgart.
- 47 — **Seligman, C. G.**, 1913. "Some aspects of the Hamitic Problem" in the Journal of the Royal Anthropological Institute, London.
- 48 — **Seligman, C. G.**, 1932. "Egyptian Influence in Negro Africa" in "Studies Presented to Griffith", London.
- 49 — **Seligman, C. G.**, 1932. "Pagan Tribes of the Nilotic Sudan" London.
- 50 — **Seligman, C. G.**, 1934. "Egypt and Negro Africa" (Frazer Lecture) London.
- 51 — **Seligman, C. G.**, 1939. "Races of Africa" London.
- 52 — **Talbot, P. A.**, 1926. "The Peoples of Southern Nigeria" London.
- 53 — **Talbot, P. A.**, 1930. "Tribes of the Niger Delta" London.
- 54 — **Thausing, G.**, 1943. "Ägyptisches religiöse Gedankengut im heutigen Afrika" in Wiener Beiträge zur Kulturgeschichte und Linguistik. Wien.

المجوسية والمجوس

للكبير على حسن الخبر بطي
المدرس بقسم التاريخ

أسس الديانة المجوسية :

اشتهر الفرس — والجنس الآري عامة — بأنهم ميالون إلى عبادة المظاهر الطبيعية ، فالسما الصافية ، والضوء ، والنار ، والهواء ، والماء ينزل من السماء ، جذبت أنظارهم ، وجعلتهم يعبدونها ، على أنها كائنات إلهية ، وسموا الشمس « عين الله » والضوء « ابن الله » ، كما أن الظلمة والجذب ونحوهما كائنات إلهية شريرة ملعونة (١) .

عبد الفرس أول أمرهم ما عبده قدماء الآريين من قوى الطبيعة ، وخاصة الشمس التي تبدو لهم ظاهرة في السماء ، وأسبغوا عليها صفات الألوهية ، واعتبروها أعظم الموجودات ، وأنها خير محصن . ووقف الفرس أمام آلهة الخير يستمدون منهم المعونة ، يتوجهون إليها بالصلاة ويقدمون لها الضحايا . ورأوا أن آلهة الخير في نزاع دائم مع آلهة الشر ، وأعمال الإنسان ، من صلاة ونحوها ، تعين آلهة الخير في منازلها آلهة الشر ، واتخذوا النار رمزا للضوء ، وبعبارة أخرى رمزا لآلهة الخير

«يشعلونها في معابدهم ، حتى تقوى على آلهة الشر وتنتصر عليها ، وكانت هذه النار منبعاً لخيال شعري خصب .

عرف الشهرستاني^(١) المجوس فقال : « المجوس وأصحاب الاثني المائتين وسائر فرقهم المجوسية ، يقال لهم الدين الاكبر والملة العظمى ، إذ كانت دعوة الأنبياء بعد ابراهيم الخليل عليه السلام في العموم كالدعوة الخليلية ولم يثبت لها من القوة والشوكة والملك والسيف مثل الملة الخنيفية إذ كانت ملوك العجم كلها على ملة ابراهيم ، وجميع من كان في زمانه كل واحد منهم من الرعايا في البلاد على أديان ملوكهم ، وكان لملوكهم مرجع هو مربذ موبدان أعلم العلماء وأقدم الحكماء يصدر عن أمره ولا يرجعون إلا إلى رأيه ، ويعظمونه تعظيم السلاطين لخلفاء الوقت . وكانت دعوة بني اسرائيل أكثرها في بلاد الشام وما وراءها من المغرب ، وقل ما سرى من ذلك إلى بلاد العجم » .

الزرادشتية :

ظهر زرادشت — نبي الفرس — فدعا إلى تعاليم جديدة أسست على الديانة القديمة بعد إصلاحها . وزرادشت من قبيلة ميديا في شمال غربي فارس ، وظهر أمره نحو منتصف القرن السابع قبل الميلاد ، ومات نحو سنة ٥٨٣ ق . م . بعد أن عاش ٧٧ سنة ، وكان موطنه أذربيجان ، ولكن أول نجاحه كان في بلخ ، على أثر اعتناق الملك « بشتاسب » لدينه ، ثم انتشر دينه من بلخ إلى جميع أرجاء فارس .

وجوهر مبادئ زرادشت ، أن في العالم حوادث كثيرة متنوعة : فنها الخير ومنها الشر ، وهذه الحوادث لا توجد نفسها ، بل لا بد لها من أصل

تستند عليه . ويرى زرادشت استحالة نسبة الخير والشر إلى أصل واحد . ولهذا كان من الضروري عنده لتغير مايجرى في العالم الإيمان بوجود قوتين متضادتين مختلفتين جوهرًا وفعلاً . فواحدة طاهرة مقدسة ، تفيض عنها الحياة والعناصر الطيبة وكل ما في الوجود من نور ، والآخرى خبيثة دنسة ، تصدر عنها الآفات والأمراض ، والهلاك والتدمير ، وكل ما ينزل بالإنسان من شر وبلاء . فالأولى تسمى (أهريمان) ومعناه إله الشر أو الشيطان . وقد ورد في كتبهم المقدسة : أن (مزدا) قال (لأهريمان) ما معناه وليس علينا ، ولا شرائعنا ، ولا مداركنا ، ولا كلماتنا ، ولا أفعالنا ولا حياتنا ، أنا وأنت ، متفقة في شيء ، ولذا فنحن أضداد .

وبين هذين الإلهين - مزدا وأهريمان - عداة دائمة وحرب مستمرة . فهما يتنازعان الإنسان ويحاول كل واحد منهما أن يسكون له الغلبة دون صاحبه . ولكن في النهاية يسكون النصر لأهورا مزدا ، إله الخير والنور والقوة والحياة عندهم ، ويحمي جميع ما في العالم من شرور وقتل . جاء في كتاب (الملل والنحل) (١) . « زعموا أن الدنيا كانت سليمة من الشرور والآفات والفتن ، وكان أهلها في خير ونعيم خالص ، فلما وجد أهريمان حدوث الشرور والآفات والفتن » . وللفرق المختلفة آراء متباينة في وجود (أهريمان) وسببه وأصله وقدمه وحدوثه . وكان الفرس يعتقدون أن لكل واحدة من هاتين القوتين - مزدا وأهريمان - جنودا وأنصارا ، يأترون بأمرها وينفذون إرادتها في الوجود .

تحدث ' ماسبيرو ' في كتابه (تاريخ المشرق) عن مذهب الزرادشتية فقال : يرون أن مزدا قد خلق الأشياء بكلمة ، واتخذ لنفسه ستة أرواح

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٤٩ .

أو آلهة من طبقات عليا يعينونه على حفظ نظام العالم وتدير شئونه —
وهم المعروفون بأميثاسبتاس — وهؤلاء الآلهة اتخذوا لهم جنوداً من
الأرواح يحكمون عليهم . وهم منتشرون في الكون للمحافظة على بقاء أدله .
ودوران دولابه فجعل أهريمان — عكس ذلك — إله ظلمات وشرور ،
وعارض الآلهة الست ب ستة أرواح شريرة تعاد لها في القوة والشوكة .
وهؤلاء جعلوا لهم أعواناً من الأبالسة، وهم لا ينفكون عن محاصرة الكون،
ومنع انتظام حركاته ، ولا يزال مستمراً بين هذه الأرواح المتكافئة في
العزيمة والبطش إلى انقضاء الزمن . ولا ينتهى كفاحها إلا بانقراض العالم ،
لما يتم النصر لأهورا مزدا .

لزرادشت كتاب مقدس يسمى (أفستا Avesta) وعليه شرح يسمى
(زندافست) قال المسعودى (١) : « واسم هذا الكتابات (أليستا) وإذا
عرب أثبتت فيه قاف فليل (الياستاق) وعدد سورته إحدى وعشرون
سورة تقع كل سورة في مائتي ورقة . . . وأنه كتب باللغة الفارسية الأولى
وأن أحداً اليوم لا يعرف معنى تلك اللغة ، وإنما نقل لهم إلى هذه الفارسية
شيء من السور في أيديهم يقرءونها في صلواتهم ، في بعضها الخبر عن مبتدأ
العالم ومنتهاه ، وفي بعضها مواضع . »

وتحدث الشهرستاني (٢) عن هذا الكتاب المقدس فقال : وله كتاب
قد صنّفه وقيل أنزل ذلك عليه وهو (زندوستا) يقسم العالم قسمين (مينه)،
(و كيتي) يعنى الروحاني والجسماني ، والروح والشخص . وكما قسم الخلق
إلى عالمين يقول إن ماني العالم ينقسم قسمين (بخشش) و (كشش) يريد به
التقدير والفعل وكل واحد مقدر على الثاني . ثم يتكلم في موارد التكليف

(١) مروج الذهب .

(٢) الملل والنحل

وحركات الانسان فيقسمها ثلاثة أقسام : (منش) و (كونس) و (كنش) .
يعنى بذلك الاعتقاد والقول والعمل . وبالثلاث يتم التكليف ، فإذا قصر
الانسان فيها خرج عن الدين والطاعة ، وإذا جرى في هذه الحركات على
مقتضى الأمر والشريعة فاز الغوز الأكبر .

كان الفرس يدينون بالبعث والنشور ، ويؤمنون بالحياة الآخرة ،
ويعتقدون أن روح الميت الصالح إذا فارقت الجسد استقبلها الديان في
صورة فتاة حسناء تحف بها الأزهار ذات الرائحة الطيبة . وعندهم أن السراط
فوق جهنم ، وأن الأشرار يقعون في نار جهنم ، ويعنى أهريمان وجنده
وجميع من في الوجود من الأحياء ، ويبقى مزدا وسائر قوى الخير . ويرون
أن نهاية العالم تتحقق عند اصطدام الأرض بكوكب نارى ، وعندئذ يجمع
مزدا الخلائق ويعدهم بحياة جديدة .

من أبرز مبادئ زرادشت أن أشرف عمل للانسان الزراعة والعناية
بالماشية ، فحب إلى الناس أن يزرعوا ويعتنوا بماشيتهم ، وأن يحدوا ويعملوا ،
حتى أنه حرم على أتباعه الصوم لأنه يضعفهم عن العمل . ويرى أن الماء
والهواء والنار والتراب عناصر طاهرة لا تنجس ، فقدس النار واتخذها
رمزا ، وحرم تنجيس الماء الجارى ، وحرم دفن الموتى في الأرض .

وإلى جانب هذه التعاليم الدينية نرى للديانة الزرادشتية أبحاثا فيما وراء
المادة ، ولكن لم يكن بحثهم فيها شاملا — كالذى كان عند اليونان — بل كان
بحثاً جزئياً متفرقا ، كذلك نرى لهم في هذا خاصية تشبه التي كانت للعرب
بعد الإسلام ، وهى امتزاج أبحاثهم — فيما وراء المادة — بالدين والتوفيق
بينهما ، ولم يبحثوا فيها بحثاً مستقلا كما فعل اليونان مثلا^(١) .

فن أبحاثهم الفلسفية بحثهم في النفس ، فالديانة الزرادشتية ترى أن نفس

الإنسان قد خلقها الله بعد أن لم تكن ، وتستطيع أن تنال الحياة الأبدية السعيدة إذا حاربت الشرور في العالم الأرضي ، وقد منحها الله حرية الإرادة فهي تستطيع أن تختار الخير أو الشر . وللنفس الإنسانية قوى مختلفة : (١) الضمير أو الوجدان (٢) القوة الحيوية (٣) القوة العقلية (٤) القوة الروحية (٥) القوة الواقعية . وهذا النوع من الفلسفة يجعل الحياة ميدان جد وعمل .

تساءل العلماء والفلاسفة : هل دين زرادشت ثنوى يرى أن العالم يحكمه الهان : إله الخير وإله الشر ، وأن لكل إله ذاتا مستقلة ؟ أم هو موحد يرى أن العالم يحكمه إله واحد وأن الخير والشر مظهران لإله واحد . يرى كثيرون أنه ثنوى ، وقد ذهب إلى هذا الرأي بعض كتاب الفرنج ، ومنهم من كتب في دائرة المعارف البريطانية مادة زرادشت ، ومنهم من يرى أنه موحد مثل الشهرستاني^(١) والقلقشندي^(٢) وبذكر الأستاذ هوج (Haug) أن زرادشت كان من الناحية اللاهوتية موحداً ، ومن الناحية الفلسفية ثنويا .

سادت الديانة الزرادشتية في بلاد فارس وماجاورها حتى انتصر الاسكندر المقدوني على الفرس سنة ٣٣١ ق . م فانحط شأنها . ثم نهضت في عصر الأسرة الساسانية التي ابتداء حكمها في البلاد سنة ٢٢٦ م وبقيت الزرادشتية دين الفرس حتى كان الفتح الإسلامي ، ففر بعض أتباعها إلى الهند حيث لا تزال طائفة (الفريسيين) منهم قائمة حتى الآن . وبقيت فئة فارس تقيم شعائر دينها وتوقد النار في المعابد في كل ولاية فارسية تقريباً من بعد انتشار الإسلام بنحو ثلاثة قرون للهجرة .

(١) الملل والنحل .

(٢) صبح الاثنى .

المانوية :

من أشهر المذاهب المانوية نسبة (مانى) مؤسس المذهب ، وهو رجل فارسى ولد سنة ٢١٥ او ٢١٦ م^(١) . وكان لهذا المذهب أتباع كثيرون في آسيا وأوربا ، يتمسكون بمبادئه على الرغم من الاضطهادات ، إلى أواخر القرن ١٣ م (٥٧) .

التعاليم المانوية مزيج من الفلسفة الفارسية القديمة والمبادئ المسيحية ، وقد وصفها (براون)^(٢) بأنها زردشتية منصرة أكثر منها نصرانية مزدشنة . يرى مانى أن العالم نشأ عن أصلين : النور والظلام . فنشأ عن النور كل خير ، وعن الظلام كل شر فى العالم . وقد امتزج الخير بالشر امتزاجا تاما . وما يصدر عن الإنسان من خير فصدره الله الخير ، وما يصدر من شر فصدره الله الشر .

هذه التعاليم تشابه إلى حد كبير تعاليم زرادشت ، ولكنهما يختلفان فى أمر جوهرى . ذلك أن زرادشت كثير الأمل فى المستقبل ، فهو يتوقع أن يتغلب الخير على الشر وإن طال الأمر . ومن هنا أخذ (برجسون) الفيلسوف الإسرائيلى فى العصور الأخيرة فلسفته ، ويتابعه فيها الفيلسوف الألماني (نيتشه) الذى ألف كتاب (زوراواستر) الذى أعجب به (هتلر) واتخذته مثالا لفلسفة ، حيث قال نيتشه بارادة القوة ، وأراد نيتشه معنويتها فعكسها هتلر إلى الفكرة المادية . وكان مستمد الاثنين — نيتشه وهتلر — فى الحقيقة فلسفة (شوبنهاور) بمذهبه فى الإرادة .

كان زرادشت متفائلا ، أما مانى فكان متشائما يائسا يرى أن هذا

(١) البيرونى : الآثار الباقية .
Lit. Hist. of Persia. ٢٧

الامتزاج لا يخلص منه إلا بالموت. يرى زرادشت أن يعيش الإنسان حياة طبيعية ، فيتزوج وينسل ، ويعنى بزرعه ونسله وما شئته ويقوى بدنه ولا يصوم وأنه بهذه المعيشة ينصر إله الخير على إله الشر . أما ماني فإنه ينزع منزعا آخر هو أشبه ما يكون بالرهينة . وقد كان ماني — كما يقولون — راهبا بخران ، فرأى أن امتزاج النور بالظلمة في هذا العالم شر ، ومن أجل هذا حرم النكاح حتى يستعجل الفناء ، ودعا إلى الزهد ، وشرع الصيام سبعة أيام أبدا في كل شهر ، وفرض صلوات كثيرة ، يقوم الرجل فيمسح بالماء ، ويستقبل الشمس قائما ، ثم يقوم ويسجد وهكذا اثنتي عشرة سجدة ، ويقول في كل سجدة منها دعاء ، ونهى أصحابه عن ذبح الحيوان لما فيه من إيلا م ، وأقر بنبوة عيسى وزرادشت ، وقال إن (ماني) النبي الذي بشر به عيسى .

يرى ماني أن وجود الإنسان جناية جناها أهله ويجب انقراضه ، ويشابه أبو العلاء المعري تشابها كبيرا ، وفلسفة ماني فلسفة تشاؤمية تتفق مع فلسفة (شوبنهاور) في العصور الحديثة . وأمر ماني أتباعه بعدة أوامر أو ذكرها الشهر ستاني (١) : « وقد فرض ماني على أصحابه العشر في الأموال والصلوات الأربع في اليوم والليلة ، والدعاء إلى الحق وترك الكذب والقتل والسرقة والزنا والبخل والسر وعادة الأوثان . وأن يأتي على ذي روح ما يكره أن يؤتى إليه بمثله . »

اعتنق هرمن ملك الفرس مذهب ماني وأيده ، ودخل في دينه كثير من الناس ، فلما مات هرمن وخلفه بهرام الأول لم يرتح إلى تعاليمه وقتله وشرد أصحابه ، ولكن لم تمت تعاليمه ، وكان لدينه أئمة يتعاقبون ، وكان مركز الإمام أولا في بابل ، ثم تحول إلى سمرقند .

(١) الملل والنحل .

المزديكية -

ظهر في القرن الخامس الميلادي (حوالي سنة ٤٨٧ م) رجل فارسي من أهل نيسابور دعا الناس الى مذهب ثنوي (ثنائي) جديد ، فكان يقول بان نور والظلمة . ولكنه تميز بدعوته الى الاشتراكية المتطرفة أو الشيوعية . كان يرى أن الناس ولدوا سواء فليعيشوا سواء ، وأنه ليس هناك مبرر للفرقة بين شخص وآخر ، وأهم ما تجب فيه المساواة المال والنفس . كان مزدك ينهى الناس عن البغض والحسد والقتال ، وجعل علاج هذه الأمور أن يبيع النساء والأموال ، بل جعلها شركة شائعة بين الناس جميعا يشتركون في الماء والنار وللكلأ والهواء (١) .

تحدث الطبري (٢) عن المزديكية فقال : « قال مزدك وأصحابه إن الله جعل الأرزاق في الأرض ليقسمها العباد بينهم بالتأسي ، وليكن الناس تنظما فيهم ، وزعموا أنهم يأخذون للفقراء من الأغنياء ، ويردون من المكثرين على المقلين ، وأن من كان عنده فضل من الأموال والنساء والامتنعة ، فليس هو بأولى من غيره ، فافترض السفلة ذلك واغتنموا وكانوا مزدكي . وأصحابه وشايعوهم فابتلى للناس بهم ، وقوى أمرهم ، حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله ، وحملوا (قباذ) على تزوين ذلك وتوددوه بخلقه ، فلم يابشرا إلا قليلا حتى صاروا لا يعرف الرجل منهم ولده ولا المولود أباه ، ولا يملك الرجل شيئا مما يتسع به .. وكان مما أمر به الناس وزينه لهم وحثهم عليه ، التأسي في أموالهم وأهلهم .. »

قارن الشهرستاني (٣) بين المزديكية والمناوية فقال : « إن قول المزديكية

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ -

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٨٨ وما بعدها -

(٣) الملل والنحل ج ١ -

كقول كثير من المانوية في الكونين والأصلين ، إلا أن مزدك كان يقول إن النور يفعل بالقصد والاختيار والظلمة تفعل على الخبط والاتفاق ، والنور عالم حساس والظلام جاهل أعمى ، وأن المزاج كان على الاتفاق والخط لا بالقصد والاختيار ، وكذلك الخلاص إنما يقع بالاتفاق دون الاختيار ... ومذهبه في الأصول والأركان أنها ثلاثة : الماء والنار والأرض . ولما اختلفت حدث عنها مذهب الخير ومذهب الشر ، فما كان من صفوفهم مذهب الخير ، وما كان من كدرها فهو مذهب الشر .. ، .

اعتنق المزدكية آلاف من الناس إرضاء لشهواتهم ، ولكن قباذنكل بمزدك وأتباعه ، فذهب لهم مذبحة سنة ٥٢٣ م . كاد يستأصلهم بها .
الديبانية :

أتباع ديمان ، ويقولون بأن للعالم أصلين : النور والظلام . فالنور يفعل الخير قصدا واختيارا والظلام يفعل الشر طبعاً واضطراباً . والخير مصدره النور والشر مصدره الظلام . والنور حى عالم قادر حساس ومنه يكون الحركة والحياة . والظلام ميت جاهل عاجز وجاد لا فعل ولا تمييز .
فرق مجوسية أخرى :

ترى فرقة المرقونية أن للعالم ثلاث أصول ، النور والظلمة والثالث هو المعدل الجامع ويعرفه الشهر ستاق^(١) بآته « سبب المزايج » ، فإن المتنافرين المتضادين لا يمتزجان إلا بجامع ، . ويحرم المرقونية النكاح وذبح الحيوان أما فرقة الكينوثية فتري أن الأصول ثلاثة : النار والأرض والماء . فالنار مصدر الخير باعتبارها مضيئة ، والماء مصدر الشر لأنه يطفى النار ، والأرض

(١) المل والنحل ح ١

وسط بين بين الإثنين . أما فرقة الصيامية فهم من أمسكوا عن طيبات الحياة وتفرغوا لعبادة النيران ، وأمسكوا عن النكاح والذبايح . أما فرقة التناسخية فقالوا بتناسخ الأرواح في الأجساد ، وما يترتب على ذلك من راحة الروح أو تعبها ، فيصاب المحسن بالراحة ، ويعاقب المذنب بانتقاله إلى جسد آخر يلقى فيها التعب ، فكان هذه الأبدان هي الجنة والنار .

دوقف الأكاسرة الساسانيين من المجوسية :

يظن البعض أن الساسانيين لكثرة خوضهم غمار الحرب مع الروم أو الترك قوم لاهم لهم إلا الحرب مثل الآشوريين والأسبرطيين والترك العثمانيين . ولكن الحقيقة غير ذلك ، فإن عظمة الساسانيين الحقيقية تتجلى زمن السلم أكثر مما تتجلى زمن الحرب . لقد كان لهم سياسة داخلية مقررة بحكمة تدل على أن ملوكهم كانوا رجالا موفوري الحظ من الخبرة العملية يشؤون الناس وعلى علم تام بطلباتهم . فن أسس هذه السياسة عملهم على التمكين للنظام الملكي في فارس وجعله عقيدة تملك على الشعب الإيراني . لبه وقلبه على السواء ، فألقوا في نفسه أنه سلالة الملوك الكيانين العظام الذين كانوا يحكمون في الأرض بتفويض من إله النور^(١) ،

كان الفرس ينظرون إلى ملوكهم كأنهم كائنات الهية اصطفاهم الله للحكم بين الناس وخصهم بالسيادة وأيدهم بروح من عنده ، فهم ظل الله في أرضه ، أقامهم على مصالح عباده ، وليس للناس قبلهم حقوق ، وللملوك على الناس السمع والطاعة . وهو معنى يشبه ما عرف في أوروبا بنظرية الحق الإلهي^(٢) وسادت فيها في القرنين السادس عشر والسابع عشر .

(١) المبدأي : صور من التاريخ الاسلامي ص ٨٩ .

Divine Right.

(٢)

ويذكر (براون^(١)) : « لم تعتنق نظرية الحق الإلهي بقوة كما اعتنقت في فارس في عهد الملوك الساسانية » . وقد كان الآكاسرة يزعمون أن لهم الحق وحدهم أن يلبسوا تاج الملك بما يجرى في عروقهم من دم إلهي^(٢) .

من الأسس التي عني بها الساسانيون لمصلحة الملك والرعية على السواء الدين . والدين الفارسي القديم هو الزرادشتية التي ظهرت قبل الدولة الساسانية بأزمان طويلة . ولقد أدرك الساسانيون القيمة العملية لهذه الديانة فعملوا من أول أمرهم على مناصرتها وجعلها الديانة القومية للأمة الفارسية ، فأنشأوا في كل مدينة ، بل في كل قرية ، بيوت النار حيث يعبد الناس النار ، مبعث النور الذي هو رمز الخير وطاردة الظلمة التي هي رمز الشر . وقد أدت تلك العناية بالدين الزرادشتي إلى رفع شأن رجاله المعروفين بالموبدين على سائر رجال الدولة .

فلما ظهر ماني ، ودعا إلى مذهبه ، وهو مذهب سابي يرى الخير في الزهد وعدم الإنتاج والإمتناع عن الزواج والنسل ، فإن بهرام الأول (٢٧٣ - ٢٧٦ م) تجرد لمحاربته فقتل ماني وكنل بأصحابه شر تنكيل وقد قابل رجال الدين الزرادشتي هذا الصنيع من الساسانيين بأن أيدوا سلطانهم السياسي بمالهم على الشعب من نفوذ وروح عظيم .

ومن المبادئ المقررة في سياسة الساسانيين الداخلية المحافظة التامة على النظام الاجتماعي الفارسي القديم القائم على الأسرة والملكية ، فلما ظهر مزدك في أوائل القرن الخامس ، ودعا إلى نحلته الشيوعية الهادمة لنظامي الأسرة والملكية ، وافتن بها العامة ، فإن كسرى أنوشروان تجرد لمحاربة

تحلته ، ففضى على مزدك وأتباعه كما قضى من قبل بهرام الأول على مانى وأصحابه (١) .

إن انتصار الدولة الفارسية للزرادشتين والمبالغة فى رفع أقدار رجالها قد أدى فى نهاية الأمر إلى قيام طبقة كهنوتية متعصبة مستبدة لا تعرف الرفق بالناس فى مسائل الدين ، ولا التسامح نحو أهل الديانات الأخرى التى كان يعتقها فى فارس جماعات كبيرة .

يرى (أرنولد) (٢) أن مما أثار غضب الأهالى الفرس وجعلهم ينظرون إلى حكاهم نظرة تنطوى على الكراهية والبغضاء ، أن هؤلاء الحكام كانوا يناصرون ديانة زرادشت التى غدت دين الدولة الرسمى ، والتى كانت من قبل بخيضة عند الأهالى ، ويفسحون المجال لاهميتها ، حتى أصبح لهم نفوذ كبير فى الدولة ، وصاروا على جانب عظيم من القوة فى مجالس الملك وادعوا أن لهم نصيبا كبيرا فى إدارة الشؤون المدنية ، واستغلوا نفوذهم فى اضطهاد كل الديانات المخالفة لهم . فإلى جانب هذه الجماعات الكثيرة من معتقدى المذاهب الفارسية القديمة ، كانت هناك طوائف من المسيحيين واليهود والصابئة وأحزاب مختلفة . تأثرت بتأملات الأوريين والبوذيين والمناوية . وقد أثار هذا الاضطهاد شعور الكراهية المريرة الذى أحسه الشعب الفارسى نحو هذا الدين الذى تغلغل فى بلاد الفرس ، ونحو تلك الدولة التى وقفت من ذلك الاضطهاد موقف الرضا والتشجيع ، كما كان ذلك علة ذلك الانتصار الذى حالف الفتح العربى ، وجعله يظاير فى صورة تخليص الأهالى الفرس مما أصبحوا فيه .

لماذا اضطهد الساسانيون المناوية ؟ دعا بهرام إلى قتل مانى وأصحابه

(١) رانولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٣٦ .

(٢) العبادى ص ٩١ .

الناحية العملية ، فقد كان زرادشت يدعو إلى العمال ، وكان في تعاليمه مؤيدا للقومية والنزعة الحربية ، مما يتفق وميول فارس إذ ذاك ، وعلى العكس من ذلك تعاليم ماني ، فهي أميل إلى الزهد والرغبة عن ملاذ الحياة واستعجال الفناء ، وهي - ولاشك - في منتهى الخطورة لملكه حرية كفارس .

المجوس في عصر الخلفاء الراشدين والامويين .

لم يكد ينصف القرن السابع الميلادي حتى كانت الأسرة الساسانية قد سقطت ، ودخلت في حوزة المسلمين تلك الإمبراطورية الفارسية الشاسعة ، التي ناهضت روما وبرزنطة أربعة قرون . ولما تشتت شمل جيوش الدولة الفارسية . لم يلق المسلمون مقاومة تذكر من الشعب الفارسي الذي كان قد استبد بحكمه ممثلو الدولة الساسانية في أواخر أيامها استبدادا يتميز بكثير من ضروب الفوضى والظلم .

رأينا كيف غضب الفرس لمناصرة الحكام الساسانيين لديانة زرادشت وافساح المجال لسكرتها حتى أصبح لهم نفوذ كبير في الدولة ، ثم اضطهدوا كل الديانات الأخرى . ولذا نرى الفرس بعد انتصار المسلمون يتنفسوا الصعداء : فأقبلوا يرحبون بالعرب ، حبا في الخلاص من ظلم الحكام أولا ، ورغبة في اعفائهم من الخدمة العسكرية ثانيا ، ثم أملا في تمتعهم بالحرية الدينية آخر الأمر ، وذلك لأن الإسلام كان يبيح لغير المسلمين من يهود ومسيحيين ، ومن زرادشتيين وصابئة أن يتدينوا بما يرضون لأنفسهم من دين على أن يدفعوا للمسلمين الجزية . ولقد قيل إن الرسول أوصى بالزرادشتيين خيرا وأمر المسلمين أن يعاملوهم معاملة أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ، وأن تؤخذ منهم الجزية كذلك كفاء حمايتهم . ويرى أرنولد أن هذا الحديث قد ذاع في القرن الثاني للهجرة حين تلمس المسلمون حديثا نبويا يبيح

التسامح الديني في معاملة أهل الديانات المختلفة الأخرى التي وجدها العرب في البلاد التي فتحوها ، سواء أدخل معتنقوا هذه الديانات في عداد أهل الكتاب أم لم يدخلوا .

لم يكتف العرب الفاتحون بإسقاط الدولة الساسانية ، بل أزالوا نظام الطبقات والدين اللذين كانا مهيمنين في إيران قبل الإسلام ، فلم يبق من المعتنقين للزرادشتية القديمة إلا قليل من الأتباع يسمون « كبر » أو « پارت » و عددهم قليل . على أن الإسلام لم يكن خالياً من تأثير فيهم أيضاً ، فإن وحدة الإله التي جاء بها الإسلام انتصرت على العقائد الزرادشتية القديمة . وزالت عادة زواج الأب من البنت والأم من الإبن والأخ من الأخت التي تبعتها الزرادشتية ولو أن الإيرانيين وبالأخص الـ « كبر » لم يحجموا مدى القرون الوسطى عن ادعاء « عدم وجود الزواج من الأقارب في العقائد المجوسية » في فارس مخالفين بذلك الحقيقة الواقعة .

وصفت كثير من الأمور التي ترجع إلى تاريخ فارس قبل الإسلام في صور جميلة كهذه ولكنها بعيدة عن الحقيقة وقد كانت عظمة قصور الساسانيين وشوكة دولتهم ، وعقل الملوك والوزراء وتديبرهم ، وحضارة البلاد ، موضع إعجاب الفرس المسلمين و غبطتهم دائماً . ولقد انفقوا أنواعاً من شجرات النسب الخيالية ليصلوا رجال الإسلام العظام بتاريخ الساسانيين بأي شكل ^(١)

ضاع استقلال فارس بالفتح العربي الإسلامي ، وأصبحت ولاية عربية إسلامية ووقع كثير من الفرس في أيدي العرب أسرى واسترق بعضهم ووزع على العرب ، ودخل كثير من الفرس في الإسلام ، وتعلم كثير منهم اللغة العربية ، حتى كان منهم في الجيل الثاني من يتكلم العربية كأحد

(١) بارنولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٩٥ .

أبنائها ، ولكن برغم هذا كله لم يربحوا في جمالتهم كالعرب في عقيدتهم ، ولا كالعرب في مطامعهم وطموحهم ونزعاتهم ، ولا كالعرب في عقليتهم بل اعتنقوا الاسلام فصبغوه بصبغتهم الفارسية ، ولم يتجردوا من كل عقائد الدين القديم وتقاليده ، ففهموا الاسلام بالقدر الذى يسمح به دين قديم اعتنقه قومه أجيالا ونشأ فيه ناشئهم وشب عليه ، وكذلك تعلم الكثير منهم العربية ولكن لم يترك خياله الفارسى . ولم ينس ما كان لقومه من شعر ومثل وحكمة .

كان من أثر ذلك طبيعيا أن تدخل تعاليم في الاسلام جديدة ، ونزعات دينية جديدة ، ظهر أثرها فيما بعد ، وأظهرها في الاسلام التشيع والتصوف ، وكان من أثر ذلك أيضا أن يغمر الأدب العربى بالحكم والقصص الفارسية (١)

لم يتخذ المسلمون الحروف العربية وحدهم بل اتخذوا الزرادشتيون أيضا ، فنشأت لغة فارسية حديثة ومحتوية على كثير من الكلمات العربية . أما بقايا الآداب الفهلوية القديمة فقد كثر الغلط في فهمها ، لأنها فهمت بصعوبة كثيرة وبدراسات العلماء الأوروبيين (٢)

كانت لغة الفرس في عهد الدولة الساسانية هي اللغة الفهلوية ، وهذا الذى هو شرح للأفستا مكتوب بهذه اللغة ، وكان لهذا الكتاب الدينى أثر فى حفظها . ولكن لم يصل إلى عصرنا هذا كثير من ثروة الفرس الأدبية الفهلوية التى كانت منتشرة فى الدولة الساسانية وصدر الإسلام والسبب فى ذلك أن دين الاسلام ظفر بدين زرادشت وحل محله ، كما حلت اللغة العربية والحروف العربية محل اللغة الفهلوية والحروف الفهلوية ، فذهب الحكومة الفارسية ودينها ، وحكمها بالعرب ، وتحولها من مملكة إلى ولايات إسلامية ، ودخول كثير من الفرس فى الاسلام ، واضطرهم إلى تعرف

(١) أحمد أمين : فجر الاسلام ص ٩٨ .

(٢) بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٩٩ .

اللغة العربية ، للدين أو الدنيا أولهما معا ، وازدراء المسلمين لبيوت النيران التي هي شعائر الثنوية ، كل هذا عرض الديانة الفارسية واللغة الفهلوية للاضمحلال ثم الفناء (١) .

رحب سكان المدن ، وخاصة الصناع وأصحاب الحرف وأهل الطبقة العاملة بالدين الاسلامي ، واعتقه عدد عظيم منهم في حاسة كبيرة وذلك لما تتطلبه أعمالهم من تركهم ديانة زرادشت وتقبيح عبادة النار والأرض والماء ، وهم الذين كان ينظر اليهم أمام القانون باحتقار وازدراء ، ولما في اعتناقهم الاسلام أيضا من تركهم في الحال أحراراً ومساواتهم في المذهب الديني .

لم يكن إرتداد الفرس الزرادشتين عن ديانة زرادشت بالأمر الصعب ، فقد تبع سقوط الأسرة الساسانية تدهور هذه الديانة ، حتى إنه لم يعد لاتباعها هناك مركز يجتمعون حوله ، فوجدوا السبيل سهلاً ميسوراً لتدينهم بالإسلام . ويرى أرنولد (٢) أن تشابه الإسلام والزرادشتية في بعض الوجوه قد مهد الطريق أمام الزرادشتيين لاعتناق الإسلام . فالفارسي يستطيع في رأي أرنولد — أن يجد في القرآن كثيراً من التعاليم الأساسية في ديانته القديمة وإن كان ذلك بصورة مختلفة كثيراً . وبعبارة أخرى فإنه يعادل بدل لاسم (أهورمزدا) و (أهرمان) في ديانته القديمة لاسم الله . وإبليس في القرآن ، كما يجد أيضاً أن الله خلق العالم في ستة أيام ، ويقرأ عن الملائكة والشياطين ، كما يقرأ قصة براة الإنسان القديم ، وبعث الجسد بعد الموت ، والاعتقاد بوجود الجنة والنار . بل هناك تشابه في تفصيلات العبادة اليومية ، فأصبح على أتباع زرادشت بعد اعتناقهم الإسلام أنه

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ١١٣ .

(٢) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٢٧ .

يؤدوا على وفق تعاليم دينهم الجديد ، الصلاة خمس مرات في اليوم كما كانوا يفعلون من قبل على وفق كتابهم الديني القديم المسمى (أفستا) . وكانت هذه القبائل التي تقيم شمال فارس ، والتي قاومت النظام الكنسي لدين الدولة الرسمي في عناد مستمر بحجة أن كل شخص كان قيسا في بيته ، وأنه لم يكن عليه من حاجة لأى واعظ آخر ، ثم لاعتقاده بوجود كائن أعظم وبخلود الروح، ولأنه عرف أن الانسان يجب أن يحب الخير لجاره، وأن يكبح جماح شهواته ويسعى في صبر وأناة إلى حياة أفضل ولا غرو فإن أمثال هؤلاء الناس ليسوا بحاجة إلى كثير من الاقناع لهم على قبول الإسلام^(١) .

والى جانب هذا العامل الديني الذي أدى الى سرعة انتشار الاسلام بين الفرس والمجوس ، كان ثمة عامل آخر ، هو الشعور السياسى والوطنى للشعب الفارسى . فقد تأثروا بزواج الحسين بن على من (شاهبانو) إحدى بنات يزورد وآخر ملوك الأسرة الساسانية . وقد رأى الفرس فى أولاد شاهبانو والحسين وارثين لملوكهم الأقدمين ، كما رأوا فيهم ورثة لتقاليدهم القومية . وهذا الشعور الوطنى يفسر لنا تعلق الفرس الشديد بعلى ابن أبى طالب من جهة ، كما يفسر لنا ظهوره فى فارس حزبا منفصلا من جهة أخرى .

يؤكد أرنولد^(٢) أن القوة والعنف لم تكن السبب فى اتساع نطاق تحويل الناس إلى الاسلام ، بدليل هذه المعاملة التى عامل بها العرب من ظل من الفرس على تمسكه بدينه القديم . ولا يزال إلى الآن فى بعض جهات فارس بعض جماعات صغيرة من عبدة النار . ومع أنهم قاسوا فيما بعد كثيرا من الاضطهادات ، كان أسلافهم فى القرون الأولى للهجرة يتمتعون بقسط وافر من الحرية . وبالنظر إلى الحقائق التاريخية السابق ذكرها يكون من المستحيل

(١) يشارك أرنولد فى هذا الراى ايضا كل من دوى ودى جوينو .

(٢) الدعوة الى الاسلام ص ٢٣٨ .

قطعاً أن نقول إن انتمحلال ديانة زرادشت كان سببه أن الفاتحين المسلمين استعانوا بالقوة على حل الناس على اعتناق الاسلام . من المحتمل أن يكون عدد أهالي فارس الذين اعتنقوا هذا الدين في السنين الأولى من الحكم العربي كبيراً جداً للأسباب المختلفة التي ذكرناها . بل إن في بقاء مذهبهم القديم وما أثر عن ارتداد الناس عنه تدريجياً في خلال القرون المتتابعة مما يقوى في نفوسنا مذهبنا اليه من احتمال تدينهم الاسلام بمحض اختيارهم وفي جو من الهدوء والسلام .

أما عن معاملة المسلمين للمجوس من الناحية المالية ، فقد اختلف المؤرخون في اعتبار المجوس من أهل الكتاب . فالماوردي^(١) يذكر أن « أهل الكتاب هم اليهود والنصارى وكتابتهم التوراة والانجيل ويجرى المجوس مجراهم في أخذ الجزية منهم وإن حرم أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم . وتؤخذ من الصابئة والسامرة إذا وافقوا اليهود والنصارى في أصل معتقدهم ، ويؤكد البلاذري^(٢) أن المجوس من أهل الكتاب ، فيروى أن عمر بن الخطاب جلس إلى بعض صحابة الرسول فقال : ما أدرى كيف أصنع بالمجوس ؟ فوثب عبد الرحمن بن عوف فقال : أشهد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (سنوا بهم سنة أهل الكتاب) أما الشهرستاني^(٣) فذكر أن المجوس لهم شبهة كتاب ، ولكن الثابت تاريخياً أن الرسول صالح مجوس أهل هجر على أن يأخذ منهم الجزية^(٤) فذكر أبي عبيد^(٥) « كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مجوس هجر ، يدعوهم إلى الاسلام ،

(١) الاحكام السلطانية ص ١٢٧ .

(٢) فتوح البلدان ص ٢٧٦ .

(٣) الملل النحل ج ١ ص ٤٨ .

(٤) أبو يوسف : الخراج ص ٧٤ .

(٥) الاموال ص ٢١ .

فمن أسلم قبل منه ومن لا ضربت عليه الجزية ، على أن لا تؤكل له ذبيحة ولا تنكح له امرأة . كما صالح الرسول أهل البحرين ومعظمهم من المجوس ، وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي وبعث أبا عبيدة بن الجراح ليجتمع الجزية منهم ^(١) .

روى أبو يوسف : « عن علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر أخذوا الجزية من المجوس . قال علي كرم الله وجهه : وأنا أعلم الناس بهم ، كانوا أهل كتاب يقرأونه ، وعلم يدرسونهُ فنزع من صدورهم » .

كان أخذ الجزية من المجوس واعتبارهم من أهل الكتاب سببا لاثارة كثير من الجدل والنقاش ، فروى أبو يوسف ^(٢) « أن فروة بن نوفل الأشجعي قال : إن هذا لأمر عظيم ، يؤخذ من المجوس بالجزية وليسوا بأهل كتاب ؟ قال : فقام إليه المستورد بن الأحنف فقال : طعنت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتب وإلا قتلتك والله . وقال : قد أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من مجوس أهل هجر الجزية ، قال : فارتفعنا الى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فقال : سأحدثك بحديث ترى ضيانه جميعا عن المجوس : إن المجوس كانوا أمة لهم كتاب يقرأونه ، وأن ملكا لهم شرب حتى سكر فأخذ بيد أخته فأخرجها من القرية واتبعه أربعة رهط فوقع عليها وهم ينظرون اليه ، فلما أفاق من سكره قالت له أخته إنك صنعت كذا وكذا وفلان وفلان وفلان وفلان ينظرون اليك . فقال : ما علمت بذلك . فقالت : فانك مقتول ولا نجاه لك إلا أن تطيعني ، قال : فإني أطيعك ، قالت : فاجعل هذا دينا وقل هذا دين آدم ، وقل حواء من آدم ، وادع

(١) الاموال ص ٢٢ .

(٢) الخراج ص ١٢٩ .

الناس اليه واعرضهم على السيف فمن تابعك فدعه ومن أبى فأقتله ففعل ، فلم يتابعه أحد فقتلهم يومئذ حتى الليل . فقالت له : إني أرى الناس قد اجترؤا على السيف وهم على النار لكع فأوقد لهم نارا ثم اعرضهم عليها ، ففعل ، فهاب الناس النار فتابعوه . قال علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الخراج لأجل كتابهم وحرّم منّا حتّهم وذبا حتّهم لشركهم .

وكان هناك من المسلمين من يرى أن المجوس ليسوا من أهل الذمة فلا يجوز أخذ الجزية منهم . فروى أبو عبيد^(١) أن أبا موسى الأشعري قال : لولا أنى رأيت أصحابي يأخذون من المجوس الجزية ما أخذتها . وكتب عمر ابن عبد العزيز إلى الحسن يسأله : ما بال من مضى من الأئمة قبلنا أقروا المجوس على نكاح الأمهات والبنات ؟ وذكر أشياء من أمرهم قد سماها . فكتب إليه الحسن : أما بعد ، فإنما أنت متبع ولست بمبتدع . وكتب عمرو ابن الحرث إلى ربيعة بن عبد الرحمن يسأله عن المجوس : وكيف يثبت عليهم الجزية ؟ وكيف تركوا مشركى العرب ؟ فكتب ربيعة : قد كان لك فى أمر من قد مضى ما يغنيك عن المسئلة عن مثل هذا .

ظل الولاة الأمويون يجمعون الجزية من المجوس مثل سائر أهل الذمة ، وقد حفظ أبو يوسف^(٢) لنا خبر أخذ عدى بن أرطاة عامل الخليفة عمر بن عبد العزيز فى العراق الجزية من المجوس .

يرى كل من المرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادى ، والمرحوم الأستاذ أحمد أمين أن أباذر الغفارى كان متأثراً فى بعض مبادئه ببعض آراء مزدك . فيقول الأستاذ العبادى^(٣) : وعندى أن حركة أبى ذر الاشتراكية تمت

(١) الاموال ص ٢٦ .

(٢) الخراج ص ١٢١ .

(٣) صور من التاريخ الإسلامى ص ١١٤ .

بسبب قوى إلى حركة مزدك الشيعوى الذى ظهر بفارس على عهد قباد وكسرى أنوشروان ، والذى كاد يقلب نظام المجتمع الفارسى رأسا على عقب لولا عزم أنوشروان وحزمه .

أما الأستاذ أحمد أمين^(١) فيقول « تلح شبه بين رأى أبى ذر الغفارى وبين رأى مزدك فى الناحية المالية » . ويؤيد رأيه برواية للطبرى^(٢) جاء فيها عن أبى ذر أنه « قام بالشام وجعل يقول : يامعشر الأغنياء واسوا الفقراء ، بشر الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكائيل من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأرجوه على الأغنياء ، وحتى شكوا الأغنياء ما يلقون به والناس » . ويتهم الطبرى أبى ذر بأنه تلقى تعاليمه عن عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء ، وكان يهوديا من صنعاء تظاهر بالإسلام فى عهد عثمان بن عفان . وحاول أن يفسد على المسلمين دينهم ، وبث فى البلاد عقائد كثيرة ضارة ، ونشر مبادئه فى الحجاز والبصرة والكوفة والشام ومصر . ويعلق الأستاذ أحمد أمين على آراء أبى ذر ، فيقول : فمن المحتمل القريب أن يكون قد تلقى هذه الفكرة من مزدكية العراق أو اليمن ، واعتنقها أبو ذر حسن النية فى اعتقادها وصبغها بصبغة الزهد التى كانت تبتلع إليها نفسه ، فقد كان من أتقى الناس وأورعهم وأزهدهم فى الدنيا ، وكان من الشخصيات المحبوبة التى أثرت فى الصوفية ،

تميز العصر العباسى بشيوع لفظ « الزندقة » وارتباطه بالمجوسية فى معظم الأحيان ، وإن كان هذا اللفظ قد شاع فى أواخر العصر الأموى إلا أن ذلك كان على نطاق محدود . وفى العصر الأموى ، اتهم عبد الصمد

(١) فجر الإسلام ص ١١٠ .

(٢) الطبرى ح ٥ ص ٦٦ .

ابن عبد الأعلى مؤدب الوليد بن يزيد بن عبد الملك بالزندقة في العصر الأموي، وأتهم الوليد بن يزيد كذلك، كما كان الجعد بن درهم الذي ينسب إليه مروان ابن محمد آخر خلفاء بني أمية، فيقال مروان الجعدي زنديقا . وقد ذكر ابن النديم ^(١) « أن الجعد كان مؤدبا لمروان ولولده، وأنه أدخله في الزندقة وكان خالد بن عبدالله القسوى، على الرغم من اتهامه بالزندقة شديدا على الزنادقة، حتى أنه حبس الجعد بن درهم وقتله يوم عيد الأضحى في عهد هشام ابن عبد الملك الأموي .

ويرجع السبب في عدم انتشار الزندقة في العصر الأموي، أن الدولة الأموية كانت دولة عربية دما ولحا، فالخليفة عربي يختار ولاته من العرب، ويحرص على صبغ الدولة في شتى النواحي بالصبغة العربية . بينما الموالي في منزلة أدنى بكثير من العرب . ليس لهم من أمر الدولة شيء . والعرب لا تعرف الزندقة كثيراً ولا تميل إليها، فهم مطمئنون إلى ملكهم وإلى دينهم . فلما قامت الدولة العباسية انتعش الموالي وخاصة الفرس، وأصبح أكثر السلاطين في أيديهم، وغلبوا على العرب، وقد كانت لهم ديانات سابقة لم ينسوها جميعها لما اعتنقوا الإسلام، وكانوا لا يجرءون في الحكم الأموي أن يرفعوا أصواتهم، فكان مهمهم الأول أن يتحرروا سياسيا لادنيا، فكانت دعوتهم السرية واجتماعاتهم وتدابيرهم للسياسة لالدين، والزندقة إنما هي في الدين لا في السياسة، فلما نجحوا واطمأنوا وغلبوا بدأت تلعب في رؤسهم الديانات القديمة والجديدة فكانت الزندقة .

تميز العصر العربي الأموي بتعصب العرب على الموالي والفرس . ومن أسباب تعصب العرب غيرتهم على الإسلام واللغة العربية . أما غيرتهم على الإسلام : فقد شعر العرب في قرارة نفوسهم أن بعض الموالي لم يعتنقوا الإسلام لاقتناعهم بمبادئه القويمة، ولكن لمصالح شخصية ذاتية . فيذكر

كريم^(١) أن بعض الموالى ظلوا مخلصين في قرارة نفوسهم لمعتقداتهم الدينية القديمة ، وقبلوا الإسلام ظاهرياً فقط . ويقول ديمومبين^(٢) إن الملاك من الموالى إعتنقوا الإسلام ليخضعوا للنظام الإسلامى ولكنهم احتفظوا بدينهم وعاداتهم .

المجوس في العصر العباسى :

كانت هناك دوافع سياسية لثورات الموالى الفرس على الحكم الأموى العربى . فقد ظهر بين الموالى الفرس نزعة قومية تدفعهم إلى إحياء المجد الفارسى القديم ، وفي ذلك يقول ابن حزم^(٣) : « إن الفرس كانوا من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر في أنفسهم حتى أنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأبناء ، وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم . فلما أمتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب ، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطراً ، تعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة » .

ظهرت حركات الزندقة في العصر العباسى الأول بصورة خطيرة ، تهدد كيان الدولة العباسية والمجتمع الإسلامى ، فتعاليم الزندقة تبعد تماماً عن تعاليم الإسلام وعقائده ، وتقوم على نوع من الديمقراطية الفاسدة ، التى تبيح المحرمات وتعبث بالآداب الاجتماعية ، وتعرض الحياة السياسية والاجتماعية للانحيار .

اختلف معنى الزندقة على مر العصور ، فقد كان العرب يطلقون لفظ

(١) الحضارة الإسلامية ص ٧٤ .

(٢) النظم الإسلامية ص ٧٤ .

(٣) الفصل فى الملل ح ٢ ص ١١٥ .

زنديق على من ينفي وجود الله سبحانه وتعالى أو ينكر حكمته ، أو يقول إن له شريكاً . وقيل لب الزنديق من يبطن الكفر ويظهر الإيمان . وكان لفظ زنديق يطلق أول الأمر على كل من يتأثر بالفرس في عاداتهم وحضارتهم ويسرف في العبث والمجون . ثم صار يطلق بعد ذلك على كل من يتخذ عقائد المانوية شعاراً له ، ويتمسك بعقيدة الثنوية ، وعبادة إلهين اثنين ، واتباع تعاليم ماني ، ثم توسعوا في العصر العباسي في إطلاق لفظ الزندقة ، فأصبح يطلق على من ينكر الألوهية أو يتظاهر بالظرف^(١) ويرى الأستاذ أحمد أمين^(٢) أن كلمة الزندقة لم تكن ذات معنى واحد ، وإنما كانت تطلق على معان أربعة (١) التبتك والاستهتار والفجور مع تبجح في القول ، يميل أحياناً إلى ما يمس الدين ، ولكنه قائله لم يقله عن نظر ، وإنما قاله عن خلاعة ومجون . (٢) إتباع دين المجوس ، وخاصة دين ماني ، مع التظاهر بالإسلام ، كالذي أنهم به بشار وحاد وابن المقفع (٣) إتباع دين المجوس وخاصة ماني ، من غير التظاهر بالإسلام كالذي يرويه الجاحظ عن كتب الزنادقة . (٤) ملحدون لا دين لهم ، كالذي يحكيه المعري . ولكن يبدو أن الكلمة — أكثرها كانت — تطلق على من اعتنق المانوية باطنياً والإسلام ظاهراً ، ثم توسعوا في معناها فأطلقوها على الإباحي ، والملاحد الذي لا دين له .

كانت السكوفة — التي ظهر منها الدعاة العباسيون — في مستهل القرن الثاني للهجرة مهداً لتشيع متطرف غير إسلامي . وهكذا لم يلبث الإسلام أن أصبح خليطاً من ديانات شتى ، على أثر اتصاله بالديانات والعقائد التي كانت سائدة في بلاد العراق قبل ظهور الإسلام (كديانة الفرس القدماء

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ١٠٥

(٢) معني الإسلام ج ١ ص ١٦١ .

Parsees والمناوية والصابئة وغيرها) . وذلك للتوفيق بينه وبين تلك الديانات المختلفة . وكان الدعاة يقومون بنشر الدين الإسلامى بين الناس بحماس وحمية رغم هذا التغير الذى طرأ عليه فى ذلك الحين ويدافعون عنه بإخلاص وغيره . يدل على ذلك ما كان الحكم بالإعدام على كثير من الغلاة والمبتدعين منذ أيام على بن أبى طالب إلى عصر المنصور العباسى^(١) .

ارتبطت الزندقة بالمجوسية عامة والمناوية خاصة . فالجاحظ الذى عاش عصر المأمون تحدث عن كتب الزندقة فوصفها وصفاً دقيقاً ، يشابه تماماً ما نعلمه عن كتب المناوية . ثم جاء الأصفهاني بعده (+ ٣٤٨ هـ) فتحدث عن الزنادقة فى كتابه الأغاني^(٢) فقال إنهم « كانوا يعرفون بالثنوية وعبادة إلهين اثنين ، واتباع تعاليم مانى » . كما أن ابن النديم فى كتابه (الفهرست) يذكر أن كلمة الزنادقة كانت تطلق على أصحاب مانى ومعتنقى مذهبه ، وليست كلمة عامة تطلق على كل كافر أو ملحد .

أما من الناحية اللغوية ، فيذكر الجوهري فى الصباح : الزنديق من الثنوية وهو معرب ، والجمع الزنادقة ، وقد تزندق ، والاسم الزندقة . وجاء فى لسان العرب . « الزنديق القائل ببقاء الدهر ، فارسى معرب (زَندَكَّر) أى يقول ببقاء الدهر . ويرى البعض أن كلمة زنديق فى الأصل معناها بالفارسية الذى يتبع زند ، ثم أطلق على المناوية ، لأنهم كانوا يأخذون زند وغيره من الكتب المقدسة ، ويشرحونها على مذهبهم بطريقة التأويل .

كانت الدوافع الى الزندقة فى العصر العباسى مختلفة متنوعة ، فقوم دعاهم إليها دين ألفوه قديماً وهو دين المجوسية . وكان لهم فيه آباء عديدون

(١) فان فلوتن : السيادة العربية ص ٩٦ . (٢) الأغاني ح ٣ ص ٧٢ و ٨٦ .

وكانت لهم عادات وتقاليدها أخذها الخلف عن السلف ، ولكنهم أسلموا ليصلوا إلى المناصب الكبرى ، دون أن يدخل الإيمان قلوبهم ، واتخذوا الإسلام ثياباً ظاهرياً يخلعونها إذا خلوا إلى أهلهم ، وهم إذا أمكنتهم الفرصة كادوا للإسلام والعرب ، ودعوا للشعوبية والمجوسية ^(١) .

من الأسباب التي أدت إلى انتشار الزندقة ، أنها كانت وسطاً بين النصرانية والزرادشتية ، أتباع زرادشت أحد أبناء الفرس ، وأن ذلك كان سبباً في تأثير الزندقة في أهل هذه النحل ، كما أن شعائرها كانت قريبة الشبه بشعائر الإسلام ، فإن المانوي كالمسلم له عدد من الصلوات في اليوم والليلة (أربع أو سبع) ، كما كانت لهم طهارة قبل الصلاة كالوضوء عند المسلمين .

وأشهر أنواع الزنادقة في العصر العباسي من كانوا يتظاهرون بالإسلام بينما هم لا يزالون على الدين الفارسي وهو المجوسية ، وخاصة مذهب ماني . ذلك أنه كان في ذلك العصر طائفة لم تؤمن بالإسلام ولكن آمنت بسلطانه ، ورأت أن لا سبيل لنيل الجاه والسلطان والمال إلا بالإسلام فاعتنقته ظاهراً وظلت تخلص لدينها القديم . وقوم من هؤلاء كان لهم غرض أعمق من هذا ، إذ رأوا أنهم لا يستطيعون إفساد العقيدة الإسلامية إلا بالإلتصاف بها أولاً حتى يؤمن جانبهم ، وحتى يسهل على النفوس الأخذ بقولهم ، ثم هم بعد ينفثون تعاليمهم على أشكال مختلفة ، طوراً في العلم والدين ، وطوراً في الأدب ، وطوراً في وضع مثالب العرب ، ومن حين لآخر كان يعثر على بعضهم فينكل بهم ، ولكنهم لا يبيدون ، أحياناً يعملون أفراداً ، وأحياناً يعملون جماعات .

من هؤلاء الزنادقة : عبد الكريم بن أبي العوجاء الذي وضع ألف

حديث نبوى مكذوب واعترف بجريمته فقتله المنصور . وحماة الراوية الذى أفسد الأدب واللغة . وصالح بن عبد القدوس الذى دسّ معاني الزندقة فى الأشعار . ويونس بن أبى فروة الذى ألف كتابا فى مثالب العرب والإسلام ليتقرب به إلى ملك الروم . وكان هؤلاء وأمثالهم يتزندقون تزندقا عليا ، فهم يدينون بمائ أومزك ، ويؤمنون بالنور والظلمة ، وبعبارة عامة يدينون بدين المجوس عن علم ، ثم يتظاهرون بالإسلام تقية ، أو توسلا إلى إضلال الناس ^(١) .

تفشّت الزندقة فى عهد الخليفة العباسى المهدي ، فأنشأ ديوانا عهد به إلى رجل أطلق عليه «صاحب الزنادقة» وأمره بالقضاء عليهم وبحوثهم ، وألف المهدي ابنه موسى الهادي بتتبع الزنادقة والقضاء عليهم ، وهذه الوصية تبين حقيقة الزنادقة ومبادئهم ، وهى : « يابى ، إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة — يعنى أصحاب مائ — فإنها مركة تدعو الناس إلى ظاهر حسن ، كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الهاء الطهور وترك قتل الهوام تخرجها وشحوبا ، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين ، أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق ، لتقدم من ضلال الظلمة إلى هداية النور . فارفع فيها الخشب ، وجرد فيها السيف ، وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له . فإنى رأيت جدك العباس فى المنام قلدى سيفين ، وأمرنى بقتل أصحاب الاثنين ، ^(٢) »

لم تقتصر الزندقة على الفرس ، بل اعتنتها بعض العرب ، ومنهم صالح

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ١ ص ١٥٧ .

(٢) الطبرى ج ١٠ ص ٤٢ .

ابن عبد القدوس ، ومطيع بن أبياس الشاعر الذى عاش فى عصر المنصور والمهدي . على أن الناس فى العصر العباسي أفرطوا فى الرمي بالزندقة . وكانت الخصومة السياسية والدينية والأدبية سبباً فى الرمي بالزندقة .

من أشهر حركات الزنادقة المرتبطة بالمجوسية فى العصر العباسي : الراوندية والمقنعية ، والخرمية . أما الراوندية فقد ظهرُوا فى عهد أبي جعفر المنصور ونادى زعيمهم الأبلق أن الروح التى كانت فى عيسى صارت فى علي بن أبي طالب ثم الأئمة إلى إبراهيم بن محمد (سبط العباس عم النبي) وأنهم آلهة ، واستحلوا الحرمات . وفى عهد أبي جعفر المنصور أعلنوا أنهم يعبدونه . وقاوم المنصور الراوندية وسجن عدداً منهم ، فتجمع باقى الراوندية واقتحموا السجن وأطلقوا أسراح زملائهم ، وخرج المنصور بنفسه لقتالهم وكاد يقتل^(١)

كان المنصور ينظر إلى الراوندية كأعداء سياسيين للدولة العباسية ، لأنهم من أتباع عدوه اللدود أبي مسلم الخراساني الذين يعملون على تحريك الخلافة إلى ملك كسروى ، كما كان ينظر إليهم باعتبارهم زنادقة ، يريدون أن تعود المجوسية أو شكل من أشكالها ، كالزرادشتية أو المانوية أو المزدكية أو غيرها ، فعاملهم كما عامل أبا مسلم وقتلهم شر قتلة . إلا أنه لم يستطع مع ذلك أن يقضى عليهم قضاء تاماً ، فظهروا فى صور مختلفة نراها فى مثل ثورات المقنع الخراساني وبابك الخرمي وغيرهما^(٢) .

المقنعية : فى عصر الخليفة العباسي المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ) ظهر فى خراسان رجل قبج الخلقة كان يضع على وجهه قناعاً من ذهب ، ولذا كان يسمى المقنع ، ادعى الألوهية ، وزعم أن الله خلق آدم فحول فى صورته ، ثم فى صورة نوح ، ثم إلى صورة إبراهيم ، ثم إلى صورة الأنبياء على التوالى

(١) الطبرى ح ١٠ ص ٣٠٧ .

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ح ٢ ص ٩٤ .

ثم إلى صورة أبي مسلم الخراساني ، ثم إلى صورته هو ، وزعم أنه يتنقل في الصور ، لأن عبادته لا يستطيعون رؤيته على طبيعته وإلا احترقوا بنوره . وأسقط المقنع الصلاة والزكاة والصوم والحج وأباح للناس الأموال والنساء ، وأمر رعاياه باعتماد التعاالم المزدكية ، وأمرهم بعبادته والسجود له .

استطاع المقنع أن يجمع حوله بعض السذج من أهالي بخارى وسمرقند والأتراك الذين كانوا يقيمون حول بحر قزوين ، واعتظم بقلعة منيعة ، فبعث الخليفة المهدي بجيش كثيف حاصر القلعة بما فيها من متاع ودواب ، ثم أذاب النحاس والسكر في تنور ، وجمع نساءه وأولاده ، وطلب من أحب من أصحابه أن يلقوا بأنفسهم في النار ليرتفعوا إلى السماء . وقال لهم إنني صاعد إلى السماء فمن أراد يصحبني فليشرب من هذا الشراب . وسقام شراباً مسموماً شرب هو منه ، فماتوا جميعاً ، وألقى نساءه وأولاده في النار ، ثم ألقى بنفسه فيها سنة ١٦٩ هـ .

من حركات الزندقة المتصلة بالمجوسية حركة الخرمية البابكية نسبة إلى بابك الذي ادعى الألوهية في عهد الخليفة العباسي المأمون . وكانت طائفة الخرمية قد أسسها مزدك في عهد قبادز أبي كسرى الأول المعروف بأوشروان ، ولذا كانت تسمى الخرمية المزدكية تمييزاً لها عن الخرمية البابكية .

يرى البعض أن اسم الخرمية نسبة إلى (خرما) امرأة مزدك التي اضطلعت بنشر عقائد هذا المذهب بعد مقتل زوجها . أما (فان فلوتن)^(١) فيرى أن هناك صلة بين اسم الخرمية الذي قد يكون مشتقاً من (خرم) وهو اسم لمدينة بيلاد ميديا ، أو كلمة (خرم) ومعناها (لذيذ) . فإذا ما تكلمنا عن (خرم دينيا) تحدثنا عن لا يعرفون ديناً غير اللذة . وقد

جعلت هذه الطوائف للنساء مكانة أرقى من مكاتهن في البلاد الشرقية وأباحن لهن الظهور في المجتمعات الدينية بقصد الإستمتاع بظهورهن في تلك الإجتماعات .

من مبادئ الخرمية البابكية تحويل الملك من العرب المسلمين إلى الفرس المجوس ، وكانهم بهذه المبادئ يحاربون الإسلام والعروبة . فيذكر المؤرخ المقدسي (١) : (فإن الخرمية احتلوا في إزالة الملك إلى العجم ، فهووا هذه النحلة وزينوها للجبال ودعوا إليها في السر ، وعصوا أمرهم التعطيل والإلحاد ، كما يقول المقدسي عنهم أيضاً : (٢) وهم فرق وأصناف غير أنهم يجمعهم على اختلاف شرائعهم وأديانهم يحصلون على روح واحدة ، وأن الوحي لا ينقطع أبداً ، وكل ذي دين مصيب ما لم ير كيد نحلتهم وخسف مذهبهم ويعظمون أمر أبي مسلم ، ويلعنون أبا جعفر على قتله ، ويكثررون الصلاة على فيروز ، لأنه من ولد فاطمة بنت أبي مسلم . ولهم أئمة يرجعون إليهم في الأحكام ورسل يدورون بينهم يسمونهم (فريشتكان) ، ولا يتبركون بشيء مثل تبركهم بالخور والاشربة . وأصل دينهم القول بالنور والظلمة . ووجدنا منهم من يقول بإباحة النساء . وإباحة كل ما يستلذ النفس وينزع إليه الطبع .

وتحدث نظام الملك في كتابه (سياسة نامه) عن تعاليم الخرمية فقال : رفض الخرمية جميع الفروض الدينية كالصلاة والصيام والزكاة والحج ، وأباحوا لأنفسهم شرب الخمر والمحرمات وشيوعية النساء ، وهى مبادئ مزدك . وعملوا جهدهم للقضاء على الإسلام قضاء تاماً . كما أنهم لم يشعروا بأى ميل أو عاطفة لإزالة أحد من أهل البيت ، وإن كانوا قد اتخذوا من

(١) البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٢٤ .

(٢) المراجع السابق ج ٤ ص ٣٠ - ٣١ .

أسماهم سيلاً إلى جذب الأنصار إليهم ، لنشر دعوتهم التي ترمي إلى هدم الإسلام .

كان بابك تابعاً لجاويدان أحد زعماء الخرمية ، فلما مات جاويدان ، عينت زوجته بابك في منصب زوجها وزعمت أن روح جاويدان حلت في جسد بابك ، وأمرت الخرمية بطاعته ، ومالبثت أن تزوجت منه . وتمكن بابك في عهد الخليفة المأمون أن يسيطر على أذربيجان ومعظم بلاد إيران وتحالف مع ملك أرمينية وامبراطور الدولة البيزنطية ، وأنضم إليه قطاع الطرق والجند المرتزقة وأتباع النحل الزائفة ، وبلغ عدد فرسانه عشرين ألف فارس عدا المشاة ، وكان يضطهد مخالفيه بقسوة ، وبلغ عدد من قتلهم . في رأى المقدسى ، مليون نسمة ، وهزم عدة جيوش للخليفة .

هرب بابك إلى سهل بأرمينية وتبعه سهل بن سنباط حتى تمكن من اعتقاله وسلمه للأفشين قائد الخليفة المعتصم الذي أسرع يبشر الخليفة بالنبأ ، فدقت طبول الفرح ، وضج الناس بالتكبير ، وبعثت الكتب إلى الأنصار تنبئهم بهذا الفتح والنصر . ووصل الأفشين بأسيره إلى سر من رأى سنة ٢٢٣ هـ ، وسجد المعتصم عند رؤية بابك شكر الله ، وانتهى أمر بابك بتعذيبه بتقطيع أطرافه ثم قتله وصلبه (١) .

لعل أخطر ثورات الزنادقة في العصر العباسي ، ثورة الأفشين في عصر الخليفة المعتصم ، وقد قام بثورته بالتجالف مع المازيار رئيس فرقة الحمرة . وهي فرقة من فرق الخرمية أتباع بابك الخرمي .

كان مبدأ ظهور المازيار في عصر المأمون ، فقد ولاه بعض أطراف طبرستان وسماه محمداً . ولكنه في عهد الخليفة المعتصم اتصل بابك الخرمي

وعرض عليه مساعدته في ثورته ضد الخليفة العباسي . ثم طلب المازيار البيعة من الناس ، فلم يقبلوا على بيعته ، فأكرههم على البيعة ، وأخذ منهم الرهائن ، وحرّض عمال الأراضى الزراعية على أصحابها والقيام بالسلب والنهب ^(١) .

اتهم المازيار فرصة انشغال الدولة العباسية بحرب بابك الخرمي ، فاتصل به وبالأفشين سرّاً ، وعمل ثلاثتهم على نحو الإسلام والتخلص من حكم العرب . فهذه الثورة وأمثالها كانت في أوضاع ثورة دينية سياسية معاً ، يراد بها الاستقلال عن الدولة العباسية ، وهى في نفس الوقت حركة شعبية ، تعمل على حظّ شأن العرب وإزالة دينهم ودولتهم ^(٢) .

نجح المازيار في إشعال نيران الثورة في الأطراف الشرقية من الدولة العباسية . وكرس المعتصم جهوده للقضاء على هذه الفتنة الجاحقة ، وتوسّكن بعد جهد من القبض على المازيار وصلبه في مدينة سمرّ من رأى بجوار جثة بابك . وذكر المسعودي ^(٣) أن المازيار بعد أن قبض عليه « أقر على الأفشين أنه بعثه على الخروج والعصيان ، لمذهب كانوا اجتمعوا عليه ، ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية والمجوس » .

أما الأفشين فوطنه الأصلي بلاد أشروسنه أحد أجزاء بلاد ما وراء النهر وكان هو وأبوه في خدمة المعتصم ، وقاد الأفشين فرقة من الجيش الذى غزا عمورية ، وأبلى بلاء حسناً فقربه الخليفة إليه ، وعهد إليه بحرب بابك الخرمي .

كان الأفشين كما كان بابك والمازيار من قبله -- يسعى إلى الاستقلال ببلاده ، والخروج على الإسلام والدولة العباسية معاً ، كما كان يعتقد أنه

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٤ .

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٢٤٩ .

لا سبيل إلى نصره المجوسية إلا على أيديهم . ويقول (براون) إن الأفشين لم يكن في ميوله ونشأته الفارسية أقل وطنية وعطفاً على الفرس من هذين الرجلين الذين جمعاه في نهايته المحزنة .

أبدى الأفشين تعصبه لوطنه ، وكرهيته للعروبة والإسلام . أما تعصبه لوطنه ، فقد كان يرسل كل ما يصله وهو يحارب بابل ، من مال أو هدايا إلى بلاده ^(١) . أما كراهيته للعرب والإسلام . فقد عبر عنها في قوله : « إني قد دخلت لهولاء القوم (العرب) في كل شيء أكرهه ، حتى أكلت منهم الزيت ، وركبت الجمل ، ولبست النعل ، غير أنني إلى هذه الغاية » يعني لم يطل ولم يختن . وكان الأفشين يقول عن العرب : « العرب بمنزلة الكلب » أطرح له كسرة ثم أضرب رأسه بالدبوس ^(٢) . وقد وجدوا في داره أصناماً كان يعبدها ، كما وجدوا كتب الزنادقة ، وكان يأكل الحيوانات المخنوقة زاعماً أن لحمها أرطب من المذبوح ، وكان لا يذبح على طريقة المسلمين ، فيأتي في كل يوم أربعاء بشاه فيقطعها بسيفه من وسطها إلى نصفين ، وكان يكتب رسائله إلى قومه ويبدأها بعبارة : « من إله الآلهة إلى عبده فلان » ، كما ترك الأفشين الاختتان .

عقد الخليفة المعتصم محاكمة للأفشين ، وتولى الخليفة بنفسه رئاسة المحكمة ، وانضم إليه الوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، والقاضي بن أبي دؤاد ، وحضرها كثير من كبار شخصيات الدولة العباسية . ووجهت المحكمة اتهاماتها للأفشين ، وهي تدور حول النقاط السابق لنا تعدادها ، ومنحته المحكمة فرصة الدفاع عن نفسه بعد توجيه كل إتهام على حدة . وقد انتهت المحاكمة بالحكم على الأفشين بالسجن ، فظل به فترة ومات في سجنه ، وقبل مات مسموماً ، ثم أخرجت جثته ،

(٢) الطبري ج ١٠ ص ٣٦٦ .

(١) الطبري ج ١٠ ص ٣٦٣ .

فصلبت ، وأحرقت مع الأصنام التي وجدت في داره ، وذلك في عام ٢٢٦ هـ^(١) .

علق وليام ميور^(٢) على محاكمة الأفشين فقال : « إن المحاكمة تبين بجلالة كيف تمسك أهالي ولايات الدولة العباسية الشرقية بدينهم الوثني ، وذلك لبعدهم عن مركز هذه الدولة ، ولأن الإسلام لم يكن قد وصل إلى قلوبهم ، ثم لتحصنهم في بلادهم المنيعه ، وقربهم من الأتراك الوثنيين . وقد خلص (ميور) من ذلك برأى هو أن إسلام بعض أهالي فارس إنما كان إسلاماً ظاهرياً ، وأنهم كانوا لا يزالون متمسكين بعقائدهم المجوسية القديمة ، وأنهم كانوا ينتهزون الفرصة المواتية ليرتدوا عن الإسلام ، ويعودوا إلى دينهم القديم . ومصدق ذلك ما رأيناه من ظهور هذه الحركات التي أشعل نيرانها سبباً للمجوسى ، وأنصار أبى مسلم الخراساني وبابك الحرمى .

يذكر (بارتولد^(٣) أن الطاهريين ٢٠٥١ - ٢٦٠ هـ = ٨٢١ - ٨٧٣ م كانوا أول أسرة إسلامية من أصل فارسي ، لم يكونوا ينظرون إلى الأدب الفارسي نظرة طيبة ، ويرون العناية به مخالفة للدين . ولكن ازدياد نشاط المانوية لا في خراسان التابعة لهم مباشرة فحسب ، بل في البلاد الأخرى أيضاً (كانت السلطنة العسكرية في بغداد بيد أحد الطاهريين بعد انتقال الخلفاء إلى سامرا) أدى إلى ازدهار الحضارة عامة وازدهار الحضارة الإيرانية خاصة . وفي أيامهم انتقلت عاصمة خراسان من مرو إلى نيسابور التي صارت في مدة وجيزة إحدى مراكز الحضارة . وكانت مدينة بهق - اسمها الحالي سبزوار - أهم مراكز الدعاية الشيعية ، وقد أنجبت كثيراً من العلماء والكتاب منذ القرن ٣ هـ .

(١) تاريخ الطبرى ح ١٠ ص ٣٦٥ - ٣٦٧ ، ابن الأثير : الكامل ح ٦ ص ١٩٠ .

(٢) The Caliphate, p. 518.

(٣) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٠٠ .

في أواخر القرن الثالث الهجري : نهاية ٨ م : أسلم سامان أمير بلخ وكان زردشتياً وأسس مملكة إسلامية هي الدولة السامانية ، وفي سنة ٨٧٣م دخل جمع كبير من أهل الديلم الزردشتيين في الإسلام على يد ناصر الحق أبي محمد ، وفي سنة ٩١٢م دعا الحسن بن علي — من الأسرة العلوية التي كانت تحكم الشاطيء الجنوبي لبحر قزوين — أهل الديلم وطبرستان إلى الإسلام ، فاستجاب معظمهم ، وكان بعضهم وثنيين والبعض الآخر زرادشتيين ، وفي سنة ٣٩٤ هـ = ١٠٠٣ م اعتنق الشاعر المشهور مهيار الديلمي الإسلام على يد الشريف الرضي ، وكان من عبدة النار . وقبله وفي أوائل القرن الثاني للهجرة (أوائل ٨ م) خرج من الزرادشتيين إلى الإسلام عبد الله ابن المقفع ، وقد بقي بعض الزرادشتيين في فارس إلى اليوم ، وقد قدر بعضهم عبدة النار فيها من عهد قريب بنحو ٨٥٠٠ نسمة .

عمل الملوك السامانيون على انتعاش الأدب الإيراني ٢٦٢ - ٣٦٨ هـ = ٨٧٥ - ٩٩٦ م) خاصة وقد انتقل الحكم في خراسان وفي تركستان من حكم الطاهريين إلى السامانيين . وقد جذبت عاصمتهم بخارى كثيراً من الشعراء والعلماء ، فصارت الدولة السامانية من أعظم الدول نظاماً في القرن الرابع الهجري . نشأ السامانيون في بلخ وكانوا إيرانيين . وكانت اللغة الفارسية هي اللغة الرسمية في أيام معظم هؤلاء الحكام ، ولكنهم اهتموا أيضاً باللغة العربية . وفي عهدهم ترجم تفسير الطبري إلى الفارسية ، وأقنى الناس بجزاز الصلاة باللغة الفارسية ، وادعى علماء الدين بأن الأنبياء الأوائل حتى اسماعيل جد العرب كانوا يتكلمون الفارسية . وكان شعراء إيران المنشدين في قصور الملوك السامانيين يذيعون آراء لا تتفق مع الإسلام . فالشاعر الرودكي السمرقندي كان يقول : « لا معنى لتحويل الوجه إلى القبلة والقلب منجذب إلى القدسية المجوسية . ويجب الإيمان بحب الإله العام لجميع الأديان ، فإن إلهك يقبل حبك ولكن لا يقبل صلاتك » .

وكان ينادى ببعض التعاليم المجوسية ، فيزعم أن السماء والأرض هما أبو الإنسان وأمه . أما الشاعر اللاتيني الذي حاول نظم الأساطير الإيرانية فقد صرح بعلاقته بالعقيدة الزردشتية قائلا : أنه يفضل الخمر وشفتى حبيبته ودين زرادشت على كل شيء آخر . أما أبو الريحان البيروني (٣٦٣ - ٤٤٠ هـ) المعاصر لابن سينا ، فقد أظهر تعصبا للفرس أثناء حديثه عن الحضارات السابقة للإسلام وهدم العرب لها ، وأبدى محبة للمانوية ^(١) .

تحدث (أرنولد) ^(٢) عن تحول المجوس إلى الإسلام فقال : على الرغم من قلة المعلومات التي وصلت إلينا عن تحول المجوس إلى الإسلام ، فيبدو أن انتحالمهم لهذا الدين كان بمحض إرادتهم ، كما يظهر أن أتباع ديانة زرادشت قد تمتعوا بوجه عام بالحرية الدينية إلى نهاية العصر العباسي . حتى إذا جاء الغزو المغولي بدأ في تاريخهم عصر أكثر إظلاما من العصر الذي سبقه . ويبدو أن ألوان البؤس التي لحقت بالمسلمين من الفرس أنفسهم قد ولدت في نفوسهم روح التعصب الديني وعرضت أتباع زرادشت من حين إلى حين لتحمل الآلام التي تنطوي على القسوة .

عومل المجوس في القرن الرابع الهجري كأهل ذمة ، فكان لهم كاليهود والنصارى رئيس يمثلهم في قصر الخلافة وعند الحكومة . ويقارن (آدم مترز) ^(٣) . بين هذه الطوائف الثلاث فيقول : أما اليهود فأنهم استطاعوا أن يستنقذوا مركزهم السياسي من خلال الاتحاد المفكك الذي كان للامبراطورية البابلية رغم ما تعرضوا له من مخاطر وتقلبات . أما

(١) بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٠٩

(٢) التمسوة إلى الإسلام ص ٢٤٠ .

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن ٤ هـ ص ٦٠ - ٦١ .

المجوس فهم بقية لعدو باسل مستقل لم يتم التغلب عليه في موطنه البعيدة المثال . أما النصارى فقد كانوا من قبل يخضعون لحكم الساسانيين على ما يشبه حال أهل الذمة ، وكانت الظروف التي عاشوا فيها أقسى عليهم من غيرهم وأقل حفظاً لمصالحهم من اليهود أو من الشعوب في الولايات المستولى عليها من الروم . وكانت الرئاسة بين المجوس واليهود وراثية ، وكان رؤسائهم يلقبون بلقب الملك ، وكانوا يدفعون الضرائب لرؤسائهم خلافاً لما كان الحال عليه بالنسبة للنصارى . وقد قال بطريرك البعاقبة في مجلس له مع الخليفة : إن رؤساء المجوس واليهود حكام دنيويون ، وإنه هو رئيس روحى ، ولا يستطيع إلا فرض العقوبة الروحية ، كأن يحكم بعزل القسس والأساقفة من مناصبهم ، أو يمنع العلمانيين من حضور البيعة .

كان عدد المجوس كبيراً في العراق في القرن الرابع الهجرى ^(١) وخاصة في جنوب فارس . وفي سنة ٥٣٦٩ = ٩٧٩م وقعت فتنة عظيمة بينهم وبين عامة شيراز من المسلمين ، ونهبت في هذه الفتنة دور المجوس ، وغضب عضد الدولة لما نزل بالمجوس وعاقب كل المعتدين عقاباً صارماً ^(٢) وكانت شيراز مدينة هادئة ، وقد عجب المقدس من أنه لم يرفعها على مجوسى رداء يميزه عن غيره ، وكانت الأسواق تزين في أعياد المجوس : وتركز المجوس في فارس في مدينة القرينين في المفازة التي بشرق فارس ، وكانت حرقهم الرئيسية كرى الخير ^(٣) .

(١) القنسى ص ١٢٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٥٢٢ .

(٣) قدامه : الخراج (طبعة ليدن) ص ٢٠٩ .



UNIVERSITY COLLEGE FOR GIRLS

ANNUAL REVIEW

AIN SHAMS UNIVERSITY

No. 4 — JULY 1964

DAR EL-HANA Press — Cairo.

1911-1912. 1st. 1st. 1st.

ON THE ESTIMATION OF EVAPORATION FROM LAKE NASSER

By

M. A. Hammouda* and M. K. Elnesr**

Summary

The evaporation rate from lake Nasser has been estimated for the different months of the year. The study was based on Penman's work which implies the knowledge of the available meteorological data.

The expected amount of water to be lost by evaporation would come to 200 mm per month corresponding to $10.6 \times 10^9 \text{ m}^3$ per annum.

1 — Introduction

Lake Nasser which will be formed in front of Aswan High Dam will be one of the biggest artificial lakes of the world (area about 4000 km^2). Its northern extremity starts 8 km. south of Aswan and extends 500 km. southward. Its average width is 8 km. and its depth is about 50 m. Its capacity will reach $136 \times 10^9 \text{ m}^3$ of flood water that used to be lost in the Mediterranean.

This huge water reservoir extending up to contour 182 m. will offer, besides the generation of electric power (10 milliard kilowatt hour/annum), an increment of one million feddāns of

* Assistant Professor, Botany Department, Women's Collège, Ain Shams University.

** Assistant Professor, Physics Department, Women's College, Ain Shams University.

cultivated land and the chagement of the basin system of irrigation in Upper Egypt to the canal system. Moreover, it will guarantee the irrigation needs of all cultivated land even in years of low water floods. It will offer basin lands along its boundaries to be cultivated and increase the potentialities for fish breeding.

The extended water surface of the lake, subject to the severe solar radiation and other climatic factors will, evidently, lead to enormous losses of water to the atmosphere. The knowledge of the rate of evaporation from the lake is, naturally, of value to scientists and engineers interested in water economy. It is the purpose of this paper to evaluate the expected losses due to evaporation for the different months of the year.

2 — Theory

The evaporation from a lake or a reservoir could be obtained by a purely observational technique, i.e., measuring the water level, precipitation, inflow and outflow of water. On the other hand, to estimate the expected rate of evaporation from meteorological data, two quite distinct methods could be adopted :

1 — The diffusion method, which depends on the mechanism of removal of vapour by diffusion.

2 — The energy balance method, which depends on the determination of the amount of energy used to change water to the vapour phase.

Different workers have treated the two methods and gave various formulae to evaluate the rate of evaporation : Brunt (1939), Sutton (1950), Priestley (1949) and Pasquill (1943, 1949). Either method could be applied when the surface temperature is known.

Penman (1948, 1950), has approached the problem combining the two classical conceptions to eliminate the unknown surface temperature and gave the following formula :

$$E_0 = (\Delta H + 0.27 E_s) / (\Delta + 0.27) \text{ mm/day}$$

where :

- Δ = the slope of vapour pressure curve for water at mean air temperature T_a (mm mercury/°F)
- H = $R_A (1-r) (0.18+0.55 n/N) - \sigma T_a^4 (0.56-0.92 \sqrt{e_d}) (0.10+0.90 n/N)$. 0.27 is the constant for the standard hygrometer equation mm/°F.
- E_a = $0.35 (e_s - e_d) (1+u_2 \times 10^{-2})$ mm/day.
- R_A = theoretical calculable amount of radiation that could reach the earth in the absence of an atmosphere in evaporation units, ($59 \text{ cal/cm}^2 = 1 \text{ mm}$ evaporation).
- r = reflection coefficient, to be taken as 0.05 in case of open water surface.
- n/N = actual possible hours of sunshine. In the first term in H it is a factor limiting incoming short wave radiation; in the second it is a transform of a cloudiness factor limiting outward long wave radiation.
- σT_a^4 = theoretical black body radiation at mean air temperature T_a K (in evaporation units).
- e_d = saturated vapour pressure at dewpoint (mm Hg).
- e_s = saturated vapour pressure at mean air temperature.
- $e_s - e_d$ = mean saturation deficit.
- u_2 = average wind speed in miles/day at two m. above the ground.

3 — Available Meteorological Data

To apply the above relation, it is required to know the meteorological data at the different localities where the lake will be formed. The available data in the Climatological Normals for Egypt and the Sudan (1938 & 1950) are only those for Aswan ($24^{\circ}2'N$, $32^{\circ}53'E$, h. = 111 m.) and Wadi Halfa, ($21^{\circ}55'N$, $31^{\circ}19'E$, h. = 135 m.). Table 1 summarizes the monthly mean values for these two Stations; (number of years of observations are 45 and 34 for Aswan and Wadi Halfa, respectively). It could be noticed from Table 1 that their weather conditions are almost similar. The air temperature and the humidity are slightly lower

Table I
Monthly means of different meteorological factors at Aswan and Wadi Halfa

A S W A N										W A D I H A L F A						
Month	Air		Temp.	R. Hum.	W. vel.	V. pr.	n/N	Rad.	Evap.	Air	Temp.	R. Hum.	W. vel.	V. pr.	Evap.	
	°C	(Piche)														
Jan.	15.0	45	7.7	.85	22.0	7.3	7.3	7.3	7.3	14.5	47	5.5	7.6	6.3	10.9	8.8
Feb.	17.2	40	7.6	.88	25.1	8.8	8.8	8.8	8.8	16.0	37	5.5	6.3	6.4	15.4	15.4
Mar.	21.3	32	8.5	.89	28.6	12.6	12.6	12.6	12.6	26.5	29	6.0	6.4	6.9	18.1	18.1
Apr.	26.2	27	10.0	.89	30.9	16.2	16.2	16.2	16.2	28.7	23	6.0	6.9	8.4	19.4	19.4
May	30.5	27	11.8	.90	31.8	18.0	18.0	18.0	18.0	29.6	21	5.0	8.4	8.9	21.5	21.5
June	32.9	25	14.3	.97	32.1	20.6	20.6	20.6	20.6	31.5	20	5.5	8.9	10.1	19.4	19.4
July	33.2	26	15.2	.97	31.8	18.6	18.6	18.6	18.6	31.6	23	5.0	10.1	12.0	17.5	17.5
Aug.	33.0	29	15.0	.96	30.9	18.6	18.6	18.6	18.6	31.2	27	5.0	12.0	11.6	18.2	18.2
Sep.	30.9	33	14.0	.97	28.9	17.7	17.7	17.7	17.7	29.4	30	8.0	11.6	11.1	15.9	15.9
Oct.	28.3	35	13.1	.95	25.8	14.9	14.9	14.9	14.9	26.8	33	6.0	11.1	9.9	11.7	11.7
Nov.	22.6	40	12.2	.89	22.5	10.7	10.7	10.7	10.7	21.4	41	4.5	9.9	8.5	8.6	8.6
Dec.	17.4	45	8.7	.88	20.9	7.2	7.2	7.2	7.2	16.0	48	4.5	8.5	5.5	9.0	9.0
Mean	25.8	34	11.6	.92	27.6	14.2	14.2	14.2	14.2	24.5	32	5.5	9.0	5.5	9.0	9.0

Details of Calculation of the Evaporation E_0

Month	Δ	R_A	$e_a - e_d$	e_d	σT_a^4	E_0	E_0
	mm Hg/°F	mm ev./day	mm Hg	mm Hg	mm/day	mm/day	mm/month
Jan.	.46	11.2	6.6	6.3	13.8	4.2	130.2
Feb.	.51	12.8	8.9	5.7	14.2	5.4	115.2
Mar.	.60	14.5	12.7	6.2	15.1	6.6	204.6
Apr.	.86	15.7	18.2	7.0	16.1	8.1	243.0
May	1.05	16.2	22.7	9.2	17.0	9.0	279.0
June	1.22	16.3	27.1	10.1	17.6	10.3	309.0
July	1.18	16.2	27.0	11.0	17.4	9.6	297.6
Aug.	1.20	15.8	26.7	10.8	17.6	9.2	285.2
Sep.	1.07	14.7	22.8	10.2	17.1	8.4	252.0
Oct.	.93	13.2	18.7	9.6	16.6	7.1	220.1
Nov.	.65	11.5	12.4	7.9	15.5	5.2	156.0
Dec.	.49	10.7	8.0	6.7	14.2	4.2	130.2
Mean	.88	14.0	16.1	8.3	16.0	6.3	221.5

annual evaporation
= 2658 mm.

for Wadi Halfa than for Aswan, while the evaporation as measured by Piche evaporimeter is slightly higher. This could be attributed to the relatively high intensity of solar radiation at wadi Halfa which is situated 250 km. towards the south.

4 — Calculation of the Evaporation Rate from Lake Nasser

As the meteorological data for Aswan may give a fair representative of the weather conditions over the whole area of the lake, it has been found convenient, for simplicity, to make use of it only in calculating the evaporation rate from the lake. The details of calculation are given in Table 2.

It could be concluded from this table that the mean annual evaporation is about 220 mm per month. It has a lower value in the winter months (average 140 mm per month from Jan. to Feb.) and increases gradually till it reaches its maximum value in summer (average 300 mm/month in June and July).

5 — Discussion

Taking into consideration the amount of solar energy incident on the lake and the influence of the weather conditions, it could be seen that the results obtained and presented in Table 2 are quite reasonable. The mean daily value of 6.3 mm is of the same order of magnitude for large extended areas of water under comparable conditions. Comparing these results with the corresponding values obtained by Piche evaporimeter, it is found that the latter are nearly double (or even more in winter months) than the calculated values. This could be attributed mainly to the smaller area of the evaporating surface of Piche evaporimeter and the greater effect of the long wave radiation from the air and the earth. Piche's data are therefore unreliable for use in water economy studies of the Nile.

Integrating the amount of water evaporated from the whole surface of the lake, it could be seen that it rises to 10.6×10^9 m³ per annum, which corresponds to about 8% of the full capacity of the lake.

Would the evaporation from the lake be stopped, this amount of water is sufficient to irrigate about 1,000,000 feddans. The question now arises, is it possible to control this evaporation? In fact, recent studies on evaporation control has shown the practical utility and success of monolayers of cetyl, stearyl and a number of alkoxy ethanols in reducing evaporation; Trapeznikov (1963), Mihara (1963) and Ganapathy (1963). Three different methods for the control of evaporation could be used either individually or jointly. The first is a solution of the chemical in a solvent like petroleum ether, the second a water emulsion and in the third blown particles of the chemical are let to settle on water surface.

References

- Brunt, D. 1939, Physical and Dynamical Meteorology, Cambridge Univer. Press.
- Ganapathy, K.T. 1963, Proc. Symposium on Evaporation Control, UNESCO.
- Mc Arthur, I.K.H. 1963, Proc. Symposium on Evaporation Control, UNESCO.
- Mihara, Y. 1963, Proc. Symposium on Evaporation Control, UNESCO.
- Pasquill, F. 1943, Proc. Roy. Soc. London A 182, p. 75.
- Pasquill, F. 1949, Ibid, London A 198, p. 116.
- Penman, H.L. 1948, Proc. Roy. Soc. London A 193, p. 120.
- Penman, H.L. 1950, Proc. Quar. J. Royal Meteorol. Soc. p. 372.
- Priestley, C.H.B. 1949, Brit. Commonwealth Conf. Agric. Sec. A.
- Sutton, O.G. 1950, Atmospheric Turbulence, London. (Methuen).
- Sutton, O.G. 1953, Micrometeorology. London. (Mc Graw Hill).
- Trapeznikov, 1963, Proc. Symposium on Evaporation Control, UNESCO.
- Climatological Normals for Egypt, 1950, Meteorological Department, Ministry of War and Marine, Egypt.
- Climatological Normals for Egypt and the Sudan, 1938, Meteorological Department, Ministry of War and Marine.
-

ON THE MEASUREMENTS OF SOLAR RADIATION
INTENSITY IN THE SPECTRAL REGION OF
SHORT WAVELENGTHS ($\lambda < 425 \text{ m}\mu$)

By

M. K. Elnesr* and N. A. Hegazy**

Summary

A filter, composed of 80% Lead Oxide, has been manufactured and tested at the National Research Centre. It transmits uniformly all the solar radiation for wavelengths higher than the long-wave limit of violet and ultraviolet radiation ($\lambda < 425 \text{ m}\mu$).

The filter is similar to any of the Standard Schott filters such that it can be used in conjunction with any type of actinometer, to measure the solar radiation above and below $425 \text{ m}\mu$.

1. Introduction

The measurements of solar radiation and its spectral distribution is becoming desirable in many applications in biology, agriculture and industry (1). Evidently the ideal method is to undertake these measurements spectroscopically for the different wavelengths. Such method is quite delicate and is used only for investigations where maximum accuracy in the interpretation of measurements is required. In practice relatively simple processes are used such as the use of actinometers which integrate the radiation in the whole solar spectrum or in certain spectral regions, when the actinometers are provided with carefully calibrated filters.

Many types of coloured glasses, having different selective absorption characteristics, are available for use as optical filters in the spectral regions in the ultraviolet, the visible and near infrared. Filters Nos. OG₁, RG₂ and RG₈ manufactured by Schott

*, ** University College for Women (Ain Shams University).

Jéna (2) are used for the measurements of the solar radiation in the spectral regions from 525 to 2800 m μ , from 630 to 2800 m μ and from 710 to 2700 m μ respectively.

For the measurements of the solar radiation in the violet and ultraviolet region, filters GG₁₃, GG₁₅, GG₂₃ and WG₁ are recently manufactured by Schott, which transmit uniformly all the solar radiation for wavelengths higher than 400 m μ . The difference between the two actinometric readings with and without the filter gives the amount of the ultraviolet radiation.

In Egypt preliminary data on violet and ultraviolet solar radiation, whose upper wavelengths limit is less than 425 m μ have been obtained using a new filter manufactured and tested at the National Research Centre.

2. The New Filter

Besides the use of the Schott filters OG₁, RG₂ and RG₃ which are the only available filters in our laboratory, attention has been paid to find a new filter which can shut-off all the ultraviolet radiation and at the same time, transmit uniformly the rest of the solar spectrum. To this end, spectrophotometric examination on various glass filters have been carried out. Flint filters have not proved suitable as their short wave cut-off were always below 325 m μ . On the other hand, when examining the transmission curves (between 200 & 700 m μ) of Crown glass samples with different Lead Oxide concentrations, studied at the Glass Technology Unit, N. R. C. it has been found that a filter with 80% Lead Oxide concentration may satisfy our requirements.

A new melt, having the same composition of this type of glass was made, cut and polished to form filters similar to the standard filters manufactured by Schott. These filters which have different thicknesses were then examined spectroscopically for wavelengths up to 2800 m μ , and at different temperatures.

It was found that :

1. The short wave cut-off is at the long wave limit of the violet radiation.

2. This position shows no shift with increasing temperature ($\pm 10^{\circ}\text{C}$).
3. The percentage transmittance, as shown in figure 1 (curve A) is constant in the main transmission region up to $2.7\ \mu$. It is equal to 87% when the thickness of the filter is 1 mm.

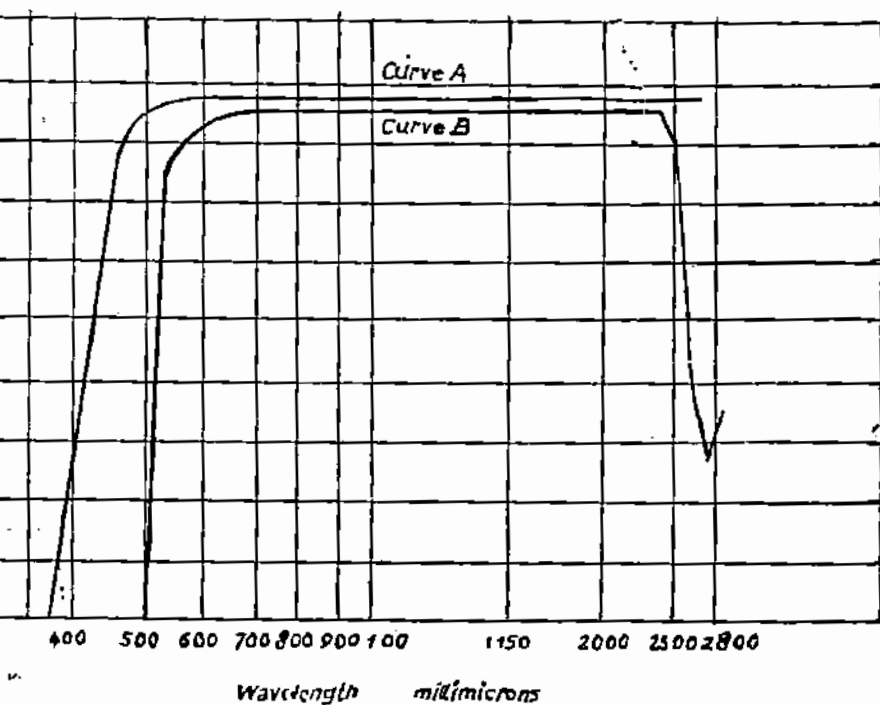


FIG. 1 Variation of the percentage transmittance with wavelength for the new filter and the Schott Filter OG₁

4. As thickness of the filter increases, its transmittance decreases slightly. It reaches 85% when the thickness is 2.10 mm.
5. As the temperature of the filter increases by 10°C , its transmittance decreases by 0.2%.
6. For wavelengths higher than $2.7\ \mu$, a rapid decrease in the transmittance is noticed, but it is of no importance as the solar intensity in this range is very small and depends mainly on atmospheric humidity.

3. Energy Transmitted by the New Filter

The ultraviolet solar radiation can be measured with this filter when it is used in conjunction with a pyrheliometer or actinometer. The difference between the two actinometric readings taken alternately and rapidly with and without the filter is proportional to the solar radiation in this spectral region. In many applications it is convenient to know this amount in energy units. This is done as follows :

1. Calculate the reduction factor F_A of the filter; i.e. the factor which allows for the measurement of the transmitted energy with an ideal filter of 100% transparency.
$$(F_A = \frac{100}{87} \text{ from curve A}).$$
2. Obtain curve B, as shown in figure 1, to represent the percentage transmittance of the standard Schott filter OG₁, noting that the same spectrophotometers should be used as in the case of curve A. The transparency for OG₁ as obtained from curve B is 85% and the corresponding reduction factor is $F_B = (100/85)$.
3. Mount the two filters on a Linke and Feussner actinometer, and notice the actinometer readings d_A and d_B when adjusting the two filters separately and rapidly. The ratio between the energy transmitted by the new filter to that by OG₁ is given by : $d_A F_A / d_B F_B$, and the amount of radiation transmitted by OG₁ ($d_B \times$ Davos Reduction Factor DR₁). In other words the actinometer deflection when using the new filter should be multiplied by $(87/85)$ DR₁ to give the radiation it transmits in energy units. It should be noted that the measured energy includes correction for the losses due to reflection at the surfaces of the filter.

Measurements of the ultraviolet radiation have been obtained with this filter, at the National Research Centre, since February 1962. A Linke and Feussner actinometer No. 113 has been used (1 scale division of its millivoltmeter corresponds to 0.018 cal. cm⁻² min⁻¹). As of measurements obtained, table 1 is given. It assembles the data observed on three days when the sky conditions are clear. (On May 28th and 29th the sky was perfectly blue).

Table 1. — Hourly measurements of the intensity of the ultra-violet and total solar radiation ($\text{cal cm}^{-2} \text{ min}^{-1}$) taken at normal incidence for clear sky conditions.

Date	Time	Air mass	Deflection of Actinometer		Intensity of		Ratio %
			Without filter	With filter	Ultra-violet Radiation	Total Radiation	
4/62	09	1.58	63.0	49.0	0.20	1.13	18
	10	1.29	66.0	50.0	0.24	1.19	20
	11	1.13	71.5	54.9	0.24	1.29	19
	12	1.10	72.0	55.0	0.25	1.30	19
	13	1.13	72.5	55.0	0.26	1.31	20
	14	1.24	68.0	52.8	0.22	1.22	18
	15	1.47	65.0	50.0	0.22	1.17	19
	16	1.98	58.5	45.5	0.19	1.05	18
	17	3.32	44.0	35.0	0.12	0.79	15
5/62	08	1.73	54.5	41.9	0.20	0.98	20
	09	1.34	58.5	44.2	0.21	1.05	20
	10	1.14	62.5	47.2	0.22	1.13	20
	11	1.04	64.9	48.9	0.24	1.17	20
	12	1.01	65.0	49.0	0.24	1.17	20
	13	1.04	66.0	50.0	0.24	1.19	20
	14	1.13	60.3	45.8	0.22	1.09	20
	15	1.32	58.0	44.5	0.20	1.04	19
	16	1.68	52.0	40.5	0.17	0.94	19
5/62	17	2.50	38.7	30.0	0.13	0.70	18
	08	1.72	49.0	37.0	0.18	0.88	20
	09	1.34	58.3	45.0	0.20	1.05	19
	10	1.14	61.0	46.2	0.22	1.10	20
	11	1.04	62.8	48.0	0.22	1.13	20
	12	1.01	60.0	45.5	0.22	1.08	20
	13	1.04	60.0	45.5	0.22	1.08	20
	14	1.13	57.5	43.3	0.21	1.04	20
	15	1.17	55.0	42.0	0.19	0.99	20
5/62	16	1.68	46.0	35.5	0.15	0.83	19
	17	2.49	33.0	26.0	0.10	0.59	17

These observations obtained show that the ultraviolet radiation constitutes about 20% of the total incident radiation when the air mass $m \leq 2$ (three or four hours before and after solar noon) and decreases considerably for higher air masses.

Acknowledgements

The authors wish to express their sincere appreciation to Dr. Abu El Azm, Head of the Glass Technology of N. R. C. for permission to examine the transmission curves of the various glass filters manufactured in his Unit, and to his Co-Worker Mr. Ali Nassar for his valuable assistance in developing the New Filter.

References

- (1) Maurain Ch. "Etude Pratique des Rayonnements", P. 148, 1937.
 - (2) Schüepp W. "Measurement of Atmospheric Turbidity", Meteorological Service, Leopoldville, Belgian Congo.
-

ON THE ESTIMATION OF THE PRODUCTIVITY
OF THE ROOF TYPE SOLAR STILLs
AT DIFFERENT LOCALITIES IN THE U.A.R.

By

M. K. Elzaz* and S. H. Soliman**

1) Considerable attention has been paid in Egypt to solve the problem of water supplies in the arid and semi-arid zones. In addition to the many other methods, the method of utilizing solar energy to distill water has been considered.

2) Numerous experiments on solar distillation, has been carried on since 1955 by the University College for Girls and the National Research Centre. Numerous stills including several variations have been constructed and tested, and a great deal of information has been accumulated on their maintenance, production and efficiency. From the practical point of view, solar stills of the greenhouse type with symmetrical glass cover has been found superior to the inclined tray units.

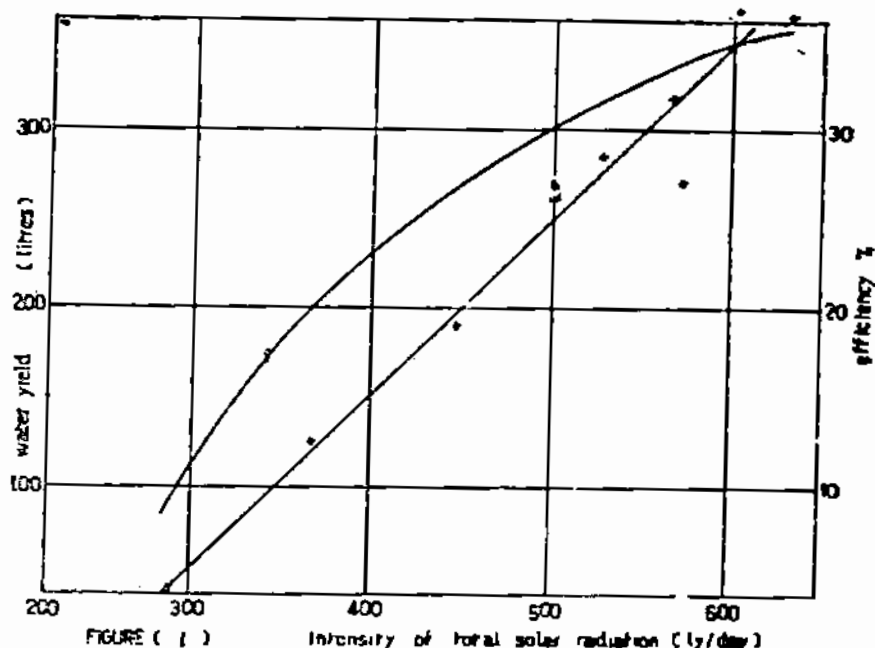
3) As far as the roof type is concerned, two important experiments have been undertaken :

a) the construction of a permanent base still (1) of an area of 40 m² : the results obtained, for a period of nearly a whole year, are presented in figure 1. It gives the relation between the daily productivity and the amount of incident solar radiation received on a horizontal surface per day.

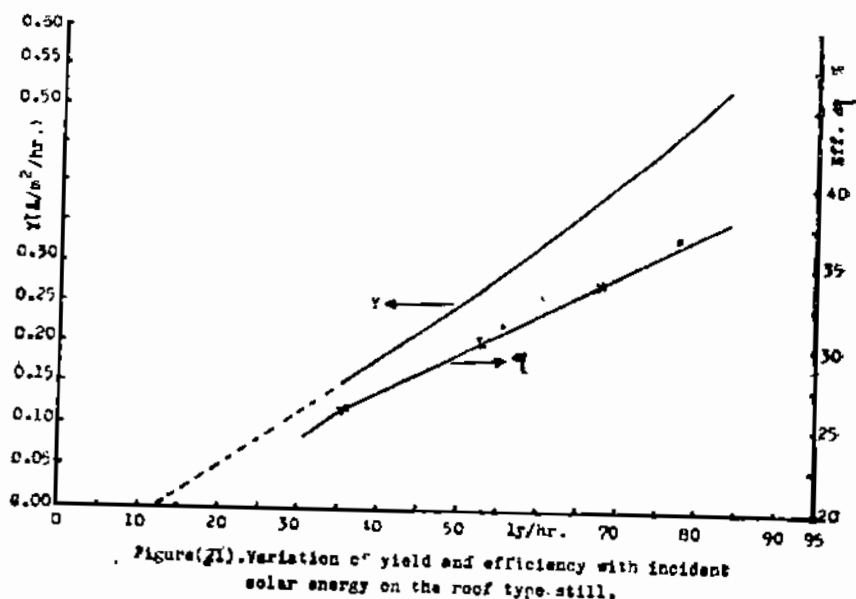
b) the construction of a metallic foldable still (2) of an area of 1.2 m² : the results obtained for 3 summer months are shown in figure 2. It gives the relation between the hourly production for clear sky conditions and the corresponding amount of the incident solar radiation.

* University College for Women, Ain Shams University.

** National Research Centre.



4) To make use of the results obtained in estimating the productivity of any still of the roof type, constructed at any locality in the U.A.R., it is required to know, for the different months of the year, either the mean values of the total daily radiation falling on a horizontal surface, or its hourly distribution.



5) Regression equations of the Angstrom type have been used for many years for estimating mean values of the total daily radiation falling on horizontal surfaces from sunshine records.

The original Angstrom formula has been modified by Black, Bonython and Prescott (3) and is written in the following form :

$$Q = Q_0 \left(0.23 + 0.84 \frac{n}{N} \right) \dots\dots\dots (1)$$

where Q = mean global daily radiation on the horizontal plane for the period under consideration (for clear sky conditions).

Q_0 = total radiation per unit area falling on a horizontal plane outside the atmosphere.

n = mean daily amount of bright sunshine hours.

N = maximum possible amount of sunshine hours.

6) To calculate Q_0 , the values determined by Milanovitch given in the Smithsonian Meteorological Tables (4) were increased by the ratio 2.00/1.94 to allow for the changed value of the solar constant as a result of Johnson's recommendations. The values for an individual day were plotted on an extended scale. A smooth curve was drawn and Q_0 was obtained by planimetry. The results obtained (mean monthly values) for latitudes 20°N & 30°N are given in Table 1.

Table 1 : Mean values for calendar months of total daily radiation on a horizontal plane outside the atmosphere of the earth. Latitude 20°N & 30°N (Solar constant 2.00 cal. cm⁻² min⁻¹) :

	J.	F.	M.	A.	M.	J.	J.	A.	S.	O.	N.	D.
Lat. 20°N	659	747	848	924	959	965	959	934	877	784	687	631
Lat. 30°N	521	632	772	899	1073	1063	987	927	822	683	558	487

7) The number of hours of sunshine, n , are evaluated by means of a sunshine recorder. In remote areas, where solar distillation is needed no records are obtained and it has been found necessary to account for observations of cloudiness, taken at the widespread network of meteorological stations. Table 2 gives the values, we have obtained for such localities.

Table 2: Monthly variation of the degree of cloudiness (0-8)

Zone	Cloudiness											
	J.	F.	M.	A.	M.	J.	J.	A.	S.	O.	N.	D.
Mediterranean	3.5	3.1	2.9	2.4	2.1	1.2	1.3	1.5	1.6	2.1	3.0	3.4
Arabic Desert	1.9	1.6	1.4	1.2	0.2	0.2	0.3	0.5	0.9	1.2	1.9	0.9
Lybian Desert	1.4	1.2	0.8	0.9	0.2	0.1	0.1	0.1	0.5	0.9	1.5	0.9

The sunshine duration, or the cloudiness is now known, the amount of solar radiation incident daily on a horizontal surface can be calculated. With the help of figure 1, an approximate evaluation of the daily water yield can be obtained.

8) On the other hand, in case it is required to give a more precise evaluation of the productivity of the still, it is recommended to make use of the experimental results obtained and presented in figure 2. To this end, the hourly distribution of the total solar radiation q_θ should be calculated (7) from the relation:

$$\frac{q_\theta}{Q} = \frac{\pi}{4} \times \frac{\frac{24}{\pi} \sin \frac{\pi}{24} \text{ces } \omega - \cos \omega_s}{\sin \omega_s - \omega_s \sin \omega_s} \quad (2)$$

where :

Q = solar radiation received during the day.

q_θ = solar radiation received during the hour from
 $\theta - 1/2$ to $\theta + 1/2$

ω = hour angle from noon = $\frac{\pi}{12} \theta$ ($\theta = 15^\circ$ per hour).

ω_s = hour angle at sunset [$\cos \omega_s = -\tan \phi \tan \delta$.]

ϕ = latitude of the place.

δ = solar declination.

The most important conclusion to be drawn from this equation is that the ratio of hourly to daily radiation for a given hour is a function of the sunset hour angle ω_s , or in other words of the theoretical maximum possible duration of sunshine for the particular latitude and time of the year.

9) As an application of this study, the daily productivity of

Table 3 :- Estimated hourly values of total radiation q (ly/hr) and water yield y $\text{cm}^3/\text{m}^2/\text{hr}$ for the different months

w(hour)	± 1		± 2		± 3		± 4		± 5		± 6		Q	Y
Month	q	Y	q	Y	q	Y	q	Y	q	Y	q	Y	(ly/day)	($\text{lt}/\text{m}^2/\text{day}$)
Jan.	42	300	39	180	31	125	21	60	9	-	-	-	284	1.63
Feb.	54	280	50	250	42	200	39	120	16	25	-	-	384	2.25
March	67	380	62	335	53	270	41	198	25	85	8	-	512	3.02
April	71	410	67	380	58	305	46	225	31	125	15	20	576	3.44
May	73	425	69	390	61	330	50	250	36	160	20	55	618	3.72
June	75	440	71	410	62	335	52	265	38	180	23	70	642	3.94
July	74	340	70	400	62	335	51	255	37	165	22	70	632	3.81
Aug.	72	420	68	385	59	315	48	235	33	135	19	35	594	3.55
Sep.	68	385	63	350	55	285	42	200	27	100	11	-	532	3.14
Oct.	57	300	52	265	44	210	33	140	19	45	3	-	416	2.42
Nov.	44	210	40	185	33	140	23	125	10	-	-	-	300	1.82
Dec.	39	180	36	155	29	115	19	45	7	-	-	-	260	1.49

solar stills at Giza has been estimated. We have proceeded as follows :

- a. calculate the hourly values of the total radiation for the different months of the year using equation 2. (The values of Q used are those of the actual measurements at Giza (8).
- b. evaluate for every hour, the corresponding expected yeild from figure 2.
- c. add 0.5 L/m^2 to the sum of the hourly amounts per day, to represent the production by night.

The results obtained are presented in Table 3, showing a good agreement with the results obtained experimentally (1).

References

- (1) Elnesr, M.K. Proceeding of the Math. and Phys. Soc. of the U.A.R. 24, p. 25 (1960).
- (2) Soliman, S.H. M. Sc. Thesis Cairo University (1963).
- (3) Black, J.N. Q.J. Roy. Met. Soc., 84, p. 231 (1954).
- (4) Smithsonian. Meteorological Tables 6th Ed. Washington (1951).
- (5) Johnson, F.S. J. Met. 2(6) p. 131 (1954).
- (6) Climatological Normals. Meteorological Dept. Cairo (1952).
- (7) Whillier, A. Arch. fur Meteo. Geophysik und Bioklimatologie Serie B, 7 p. 197 (1956).
- (8) Elnesr, M.K. & El-Sabban. J. of Solar Energy Science & Engineering, 4, 1, p. 48 (1960).

ON THE DETERMINATION OF THE TOTAL AMOUNT OF SOLAR RADIATION RECEIVED BY A FLAT PLATE COLLECTOR

By

M. K. Elmes^{*} and A. M. Khalil^{**}

1 — One of the most important applications of solar energy is the production of hot water for domestic use. The flat plate solar heat collector is commonly used. It consists of :

a) an insulated heat absorbing surface painted black to increase heat absorption. This surface may be a metallic sheet fastened to its side, facing the sun rays, some form of piping through which water may be circulated.

b) insulating material below and adjacent to the lower surface of the absorber, protected in a wooden box.

c) one or more sheets of glass (or any other transparent material) above the absorbing surface covering the collector edge to edge and sealed by good mastic sealing compound to prevent dust or rain entering the collector.

The collector should be inclined towards the equator at a certain angle of tilt governed by the locality. The angle of optimum tilt (i.e. when the collector receives maximum energy) is that angle which a south facing tilted surface can make with the horizontal, such that the solar beam will fall normally on it at noon time.

For our latitude 30°N, the optimum tilt angle for the different months of the year, as we have calculated (1) are :

J.	F.	M.	A.	M.	J.	J.	A.	S.	O.	N.	D.
51	43	32	20	11	7	9	16	27	39	49	53

* University College for Women Ain Shams University.

** National Research Centre.

2 — For any study on the performance of a heat collector, it is required to know the amount of incident radiation falling on it at any time. This can be done by using a solarimeter or a pyr-heliometer tilted to the horizontal at the same angle as the collector. In most solar energy laboratories, pyr-heliometers are very delicate and require continuous calibration and are used only for recording the solar radiation on the horizontal. The other alternative which is commonly used is the evaluation of incident energy on the collector from that measured on the horizontal. The procedure used (2) is as follows :

— estimate (3) from the total solar radiation intensity on the horizontal, its direct and diffuse parts.

— calculate by simple trigonometry (1), the component of the direct part on the collector.

— add to this direct component the amount of diffuse radiation (3) expected to be received by the collector at the optimum tilt angle.

Evidently such method is laborious especially it should be repeated several times during the operation of the collector. To simplify the problem, we have adopted the above procedure, to the pyr-heliometric measurements at Helwan Observatory (4) and calculated for clear sky conditions and for the different months of the year, the energy falling on the collector when tilted at the optimum tilt angle. The ratio between the hourly amounts of this energy and that received on a horizontal surface are shown in Table 1.

Table 1. Ratio between the hourly rates of total solar radiation on a surface at the optimum tilt angle and that on a horizontal surface ($\phi = 30^\circ\text{N}$)

Solar Time	J.	F.	M.	A.	M.	J.	J.	A.	S.	O.	N.	D.	Solar Time
AM													PM
6	—	—	—	—	.92	.94	1.00	1.00	—	—	—	—	18
7	—	1.90	1.14	.94	.98	1.00	.98	.95	.96	1.42	—	—	17
8	2.00	1.46	1.13	.98	.99	.98	.99	.97	1.05	1.31	2.07	2.17	16
9	1.65	1.37	1.14	1.02	.99	.99	.98	1.00	1.07	1.25	1.57	1.76	15
10	1.54	1.32	1.14	1.04	1.00	.99	1.00	1.03	1.09	1.23	1.45	1.59	14
11	1.48	1.29	1.14	1.05	1.02	1.00	1.01	1.03	1.11	1.24	1.42	1.53	13
12	1.46	1.30	1.14	1.06	1.02	1.01	1.01	1.04	1.09	1.23	1.41	1.52	14

To calculate the amount of solar energy incident on the collector at the optimum tilt angle, at any time of the day for the same latitude, the corresponding intensity on the horizontal as measured by a solarimeter is multiplied by the suitable ratio from Table 1.

3 — Before applying such simple method, it has been found necessary to check its validity. To this end, a Kipp solarimeter has been fixed on a movable wooden board such that it can be oriented at any direction. During a period of two months, May and June 1962, and on every clear day, the optimum tilt angle was calculated in advance and the solarimeter was adjusted accordingly. The ratio between the readings of the solarimeter at this position and when it is horizontal was calculated hourly and the results obtained, as shown in Table 2, are compared with the corresponding estimated values given in Table 1.

Table 2. Comparison of measured and estimated values of the ratio, R, between the intensity of radiation on optimum tilt and horizontal surfaces :

Month	No. of runs	Ratio R											
		S.T.	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	Mean
May	7	{ Rexp.	—	.97	1.01	1.02	1.01	1.01	1.00	.98	.96	—	.95
		{ Rcal.	.99	1.00	1.02	1.02	1.02	1.00	.99	.99	.98	.92	1.00
June	7	{ Rexp.	1.00	1.00	1.01	1.02	1.01	1.00	1.00	.99	.97	.93	.99
		{ Rcal.	.99	.99	1.00	1.01	1.00	.99	.99	.98	1.00	.94	.96

The excellent agreement between the experimental and calculated ratios confirms the validity of this method in converting solarimetric readings on the horizontal to the corresponding heat values on a flat plate solar collector mounted at the same locality and tilted at the optimum tilt angle.

References

- (1) Brown, A.I. & Marco, S.M. Introduction to Heat transfer, N.Y. McGraw Hill 69 (1951).
 - (2) Anderson, L.B. Symposium on Space Heating with Solar energy, M.J.T. p. 17 (1950).
 - (3) Heat. Vent. Air Condition. Guide, 30, 266-271 (1952).
 - (4) Elnesr, M.K. & Khalil, A.M. U.N. Conference on new sources of energy. Rome 35/S/12 (1961).
-

STUDIES ON THE EFFECTS OF PODOPHYLLIN SUSPENSIONS IN DIFFERENT SOLVENTS ON PLANTS

I — Effects of podophyllin suspensions in acetone and alcohol
on root morphology and anatomy with reference to "*Vicia-faba*"

By

Hoda A. Hakeem and Soheir Amer

University College for Girls, Ain Shams University and
National Research Center, Dokki, Cairo.

Introduction

The effect of chemicals on root growth had been widely studied by many authors. Ashby (1951) studying the effect of certain acid growth regulating substances and their corresponding aldehydes on root growth found inhibition of root growth. Hussein and Hakeem (1960) studying the effects of podophyllin on *Vicia faba* and *Luffa cylindrica* found that podophyllin caused temporary inhibition followed by stimulation of root growth.

With regard to the effect of various chemicals on plant anatomy comparatively few studies were made.

Said and Naguib (1951) treating *Vicia* plants with colchicine noted definite xylem strands near the tip. Hussein and Hakeem (1960) noted several anatomical abnormalities in treated *Vicia* roots with aqueous podophyllin suspension — such as disappearance of meristematic zone, enlargement of cortical cells, pre-maturation of xylem and phloem elements and proliferation of pericyclic tissue.

As podophyllin is more soluble in alcohol and acetone than in water, Egypt. Pharmacopeia (1953), it was of interest to confirm the previously obtained results within a wider margin of concentration. Since alcohol and acetone may have their own effects on the plants, control experiments with alcohol and

acetone alone were conducted. It was also of interest to see whether alcohol and acetone act synergetically with podophyllin.

Material and Methods

Vicia faba seeds (var. Rebaya 34) soaked in water for 24 hours were treated with the experimental solutions for two, three or six hours. They were then washed with running water, and finally planted in pots containing saw dust. For each treatment 120 seeds were used. Seeds soaked in water for 24 hours were used as controls.

The treatments were carried out with aqueous alcoholic and aqueous acetone suspensions of podophyllin. (100 mg/100 ml 10% aqueous acetone or alcohol). Experiments with 10% aqueous alcohol, and 10% aqueous acetone were carried out for comparison.

The length of roots was measured every 2 days over a period of 14 days.

For anatomical studies, the roots were cut when reaching 1.5 cm., at 14 μ thickness, and stained using the technique of Sharman for meristems.

Results and Discussion

1. Effect on root germination

From Table I, the following conclusions were reached :

1. The treatment of the seeds in most of the above solutions resulted in a depression in the percentage of germination.
2. The 2-hour treatment resulted in a slight inhibition of germination.
3. No clear relation could be traced between the percentage of germination and the concentration of podophyllin.
4. No material difference between the behaviour of seeds treated with alcohol or with acetone solution was observed.

2. Effect on root growth

Inhibition of growth of the main root was a common character in all the treatments as compared with the controls (Figs. 1, 2, 3, 4, 5). The inhibiting effect of alcohol and of podophyllin in alcohol on root growth was stronger than that of acetone alone or of podophyllin in acetone, as seen from Text-Figs. 1-2). Another interesting phenomenon was that there was no relation between the time of treatment and the inhibition of growth.

a. Effect of acetone and podophyllin in aqueous acetone. In the two and six-hour treatments, there was significant inhibition of growth during the first 8 days of the experiments after which the inhibiting action decreased. The three-hour treatments showed slight inhibition of growth during the experimental period. In general, aqueous acetone affected more inhibition than podophyllin suspension in aqueous acetone (Fig. 1).

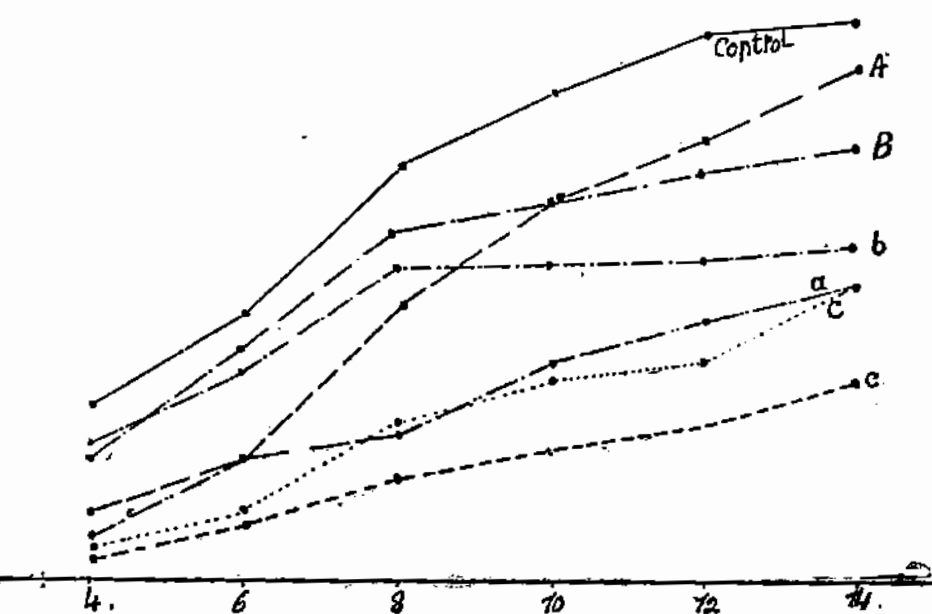


Fig. 1

Effect of podophyllin in aqueous acetone and of aqueous acetone on the root growth of *Vicia faba*.

b) **Effect of alcohol and podophyllin in alcohol.** During the first ten days the rate of inhibition of root growth was highly significant in the treatments with alcohol and podophyllin in alcohol for two and three hours. In the six hour treatments, the inhibition was strong over the time of the experiment.

It is obvious, that treatments with podophyllin in alcohol gave a stronger inhibiting effect than the same treatment with alcohol alone, especially the tow and three hour treatments (Fig. 2).

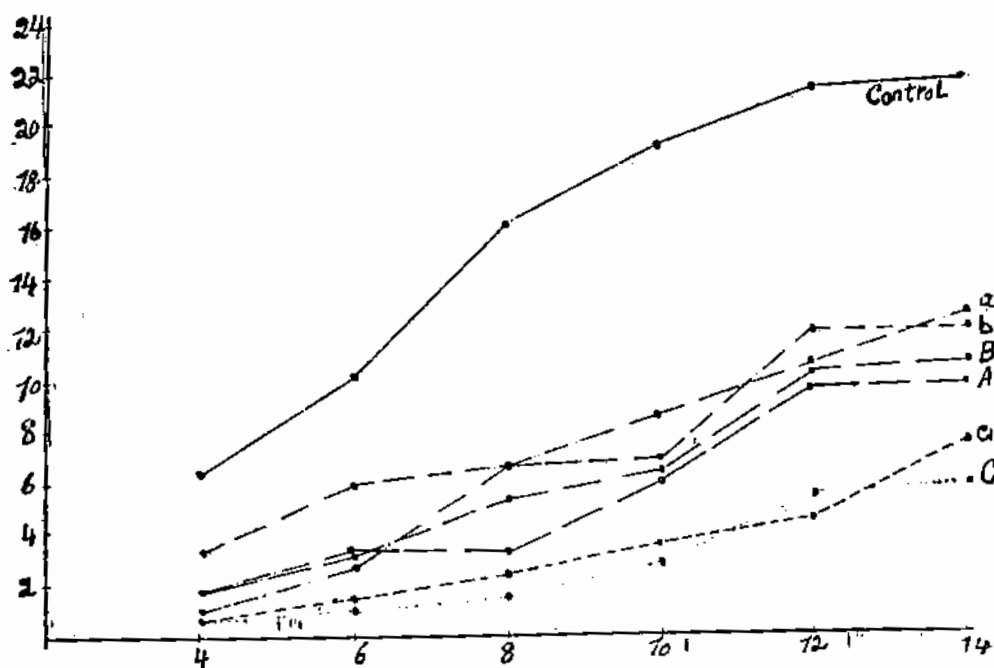


Fig. 2
Effect of podophyllin in aqueous alcohol and of aqueous alcohol on the root growth of *Vicia faba*.

Hussein and Hakeem (1960) reported that aqueous podophyllin suspension used for soaking *Vicia faba* seeds resulted in a stunted growth of the main root followed by recovery and further stimulation.

In the present work, podophyllin suspension in alcohol or acetone used for similar treatments showed in general stunted growth of the main root of *Vicia faba* seedlings in their early vegetation without any noticeable recovery. Inhibition of the

root growth of the plants treated with acetone, podophyllin in acetone, alcohol, and podophyllin in alcohol may be attributed to cessation of cell division in the apical meristem as the anatomical examination has revealed.

In addition to the inhibition of root growth, swelling of the hypocotyl, curvature of roots and division of main root tips were observed (Figs. 3, 4 & 5). These abnormalities were also resulted by aqueous podophyllin suspension (Hussein and Hakeem 1960).

In addition to the above peculiarities the following were observed in contrast to the action of aqueous podophyllin suspension.

1. Short thick roots replaced by a tuft of secondary roots which appeared to originate from the hypocotyl (Fig. 3).
2. Division of the root tips of the lateral roots. Anatomical examination of the treated main roots revealed, however, the presence of dead cells in the middle of the root tip, to which this phenomenon could be attributed (Fig. 11, 12).

In general, podophyllin in aqueous alcohol exhibited the most destructive effect on the root system. Fig. 4 shows thickened hypocotyl, whereby the main and secondary roots are severely inhibited in growth, swollen and divided at their distal ends.

B. Anatomical effects :

Anatomical studies of the untreated (Figs. 6, 8 & 10) and treated roots of *Vicia* (Figs. 7, 9, 11 & 13) showed that visual histological changes took place. The percentage of roots showing these changes increased with increase of concentration in both suspensions of podophyllin in alcohol and acetone. In case of roots treated with different concentrations of alcohol and acetone there was no clear difference as compared with the normal roots.

In the treated root tips a precortex extended over the zone of the promeristem without differentiation into a root cap. The cells of this meristematic region were all conspicuously vacuolated in contrast to the richly protoplasmic very small non-vacuolated cells of the normal tip. A clearly differentiated dermatogen was also lacking.

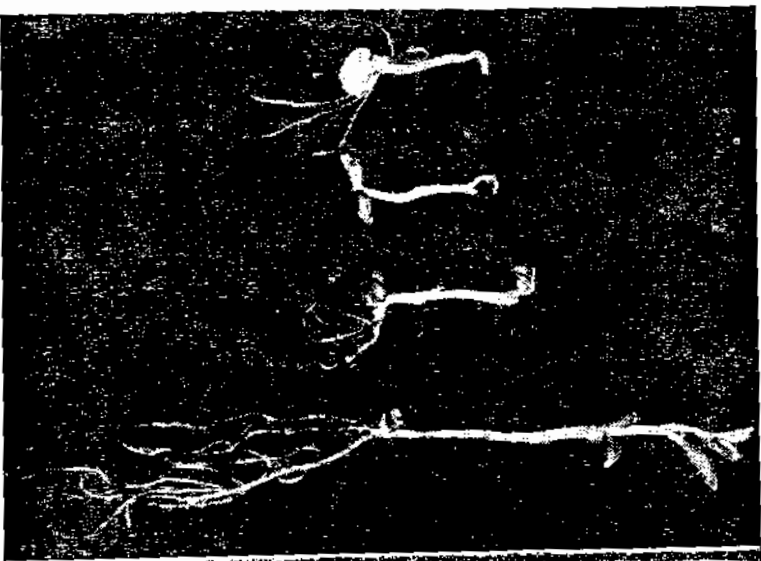


Fig. 3 : a, b, c, 2 weeks old seedlings from treated seeds showing, divided and thick roots, d, Control seedling.



Fig. 4 : Enlarged seedling of (b) showing inhibited abnormal divided root.

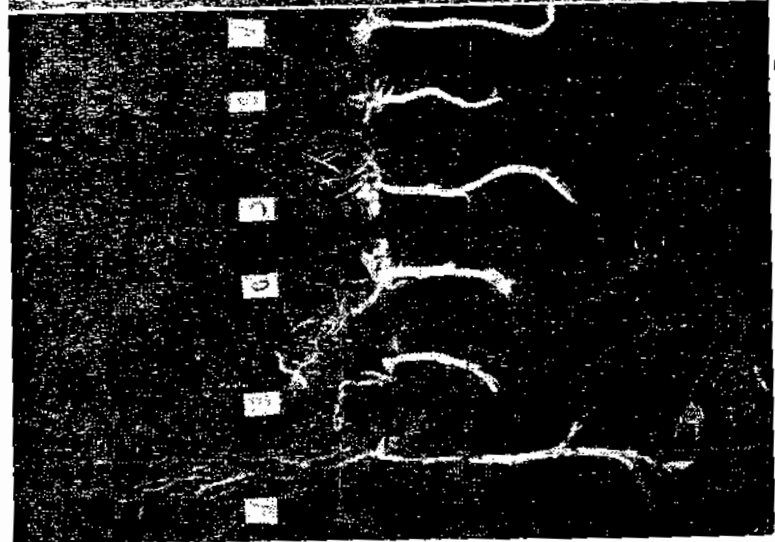


Fig. 5 : A, B, C, D, E, 2 weeks old seedlings from treated seeds showing different types of abnormalities such as inhibition & curvature. F, 2 weeks old seedling of control Plant.

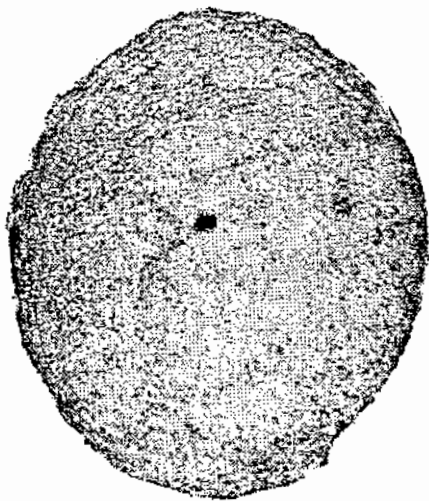


Fig. 6 : T.S. in Untreated *Vicia* root
220 μ from the tip.

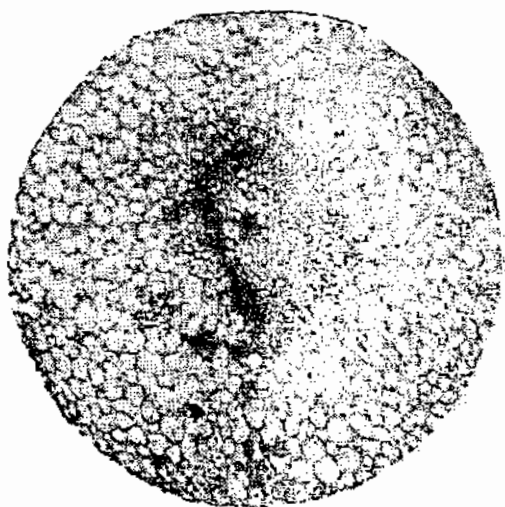


Fig. 7 : T.S. in treated *Vicia* root with
100 mg/pod/100 ml 10% aqueous acetone
for 3 hours (220 μ from tip).

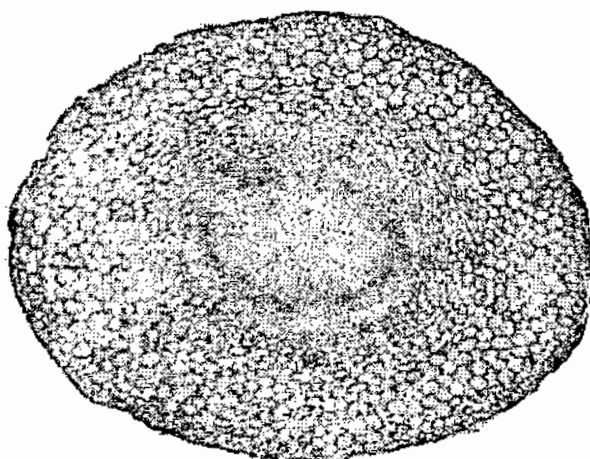


Fig. 8 : T.S. in Untreated *Vicia* root 440 u
from the tip.

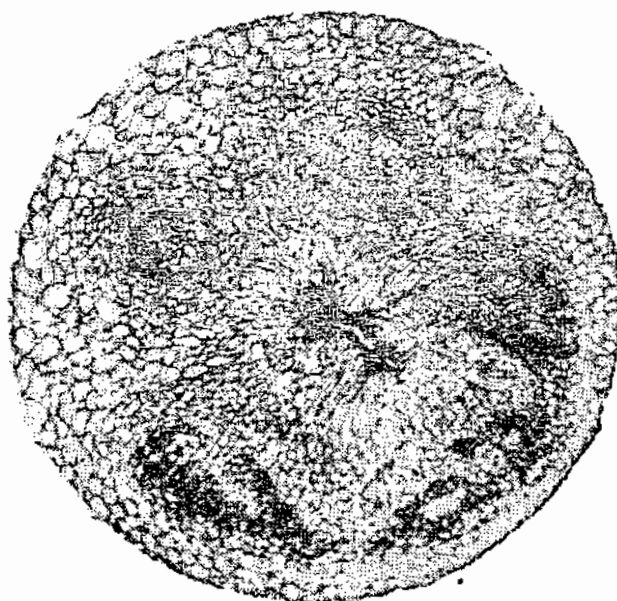


Fig. 9 : T.S. in treated *Vicia* root with
100 mg pod/100 ml 10% aqueous acetone
for 3 hours (440 u from tip).

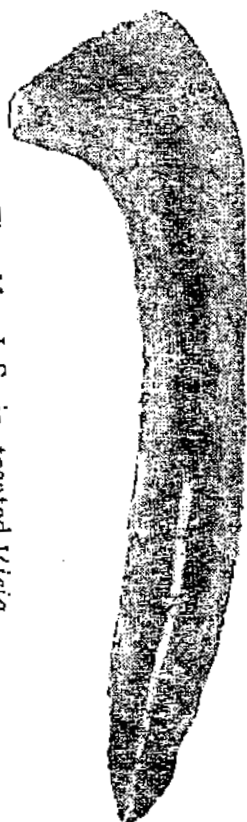


Fig. 11 : L.S. in treated *Vicia*
root with 100 mg pod/100 ml
10% aqueous alcohol for 2 hours
($\times 10$).



Fig. 10 : L.S. in untreated
root ($\times 10$).

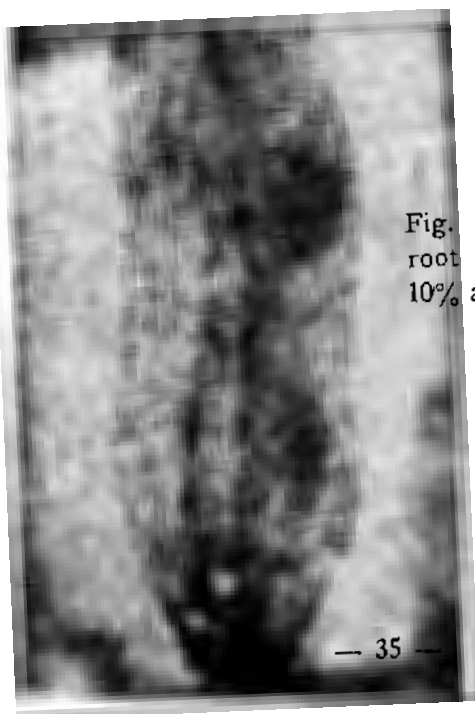


Fig. 12 : L.S. in treated *Vicia*
root with 100 mg pod/100 ml
10% aqueous acetone for 6 hours
($\times 10$).



Fig. 13 : Enlarged part of Fig. 11
Showing fuzz of hairs ($\times 100$).

Abnormal enlarged cortical cells were observed with no apparent increase in the number of vertical rows of cells (Figs. 7, 9). Proliferation of the pericycle cells (Figs. 9, 12) was observed and early maturation of xylem and phloem elements was observed in treated roots (Figs. 7, 9, 11). The distance between the first xylem vessel and the tip decreased with increase of concentration and time of treatment. These prematured vessels were mostly pitted or reticulate.

Prolonged treatments (6 hours) induced degenerated or dead cells at the root tip.

These necrotic cells occurred sometimes also in longitudinal strands apparently corresponding to the strands of the protoylem initials (Fig. 12).

Some of the roots treated with podophyllin in aqueous acetone for three hours showed stimulation of root hair formation, a thick fuzz of root hairs was observed near the root tip (Fig. 13) Ashby (1951) attributed this phenomenon to the occurrence of more epidermal cells. According to Borgstrom (1939) root hair formation is an auxin response.

These anatomical modifications of the roots after treatments with podophyllin suspension in aqueous acetone or alcohol agree to a great extent with the results of some authors using different chemicals, either polyploidising agents or growth regulating substances on different plants. They are also similar to the effect of aqueous podophyllin suspension on *Vicia* and *Luffa* roots.

Table I

Treatments	Percentage of root germination after					
	4 days			6 days		
	2h.	3 h.	6 h.	2 h.	3 h.	6 h.
Control (water)	100	100	100	100	100	100
0 mg Pod/100 ml 10%	65	100	92	75	90	82
aqueous acetone						
5% aqueous acetone	80	100	100	80	90	78
0 mg Pod/100 ml 10%	90	85	96	75	70	60
aqueous alcohol						
5% aqueous alcohol	80	95	80	80	70	60

Summary

1. Seeds of *Vicia faba* were treated with podophyllin suspensions in water, aqueous alcohol, and aqueous acetone, for 2, 3 and 6 hours. The effects on the growth and anatomy of roots were studied.
2. Both root growth and germination were inhibited by most of the treatments.
3. Swelling of the hypocotyl, division of the distal ends of both primary and secondary roots and curling of roots upwards were usually observed.
4. The anatomical responses of the roots were :
 - a. Partial disappearance of root cap and meristematic zone.
 - b. Hypertrophy of root cells.
 - c. Proliferation of the pericyclic cells.
 - d. Stimulation of root hair formation.
 - e. Early maturation of the vascular elements.

References

- (1) Ashby, W.C. (1951). Effects of certain acid growth regulating substances and their corresponding aldehydes on the growth of roots. Bot. Gaz. **112**, 237-250.
- (1) Borgstrom, G. (1939 a). Root hair formation as an auxin response. Kungl Fysiorufiska Sall'skoptes, I Lund forbandlingar 9: 108.
- (3) Egypt Pharmacopeia (1953). Cairo Univ Press 670-671.
- (4) Hussein, F. and Hakeem, H. (1960). Morphological and anatomical effects of podophyllin on *Vicia faba* and *Luffa cylindrica*, U.A.R. J. Bot **III**, 101-120.
- (5) Said, H. and Naguib, M.I. (1951). The effects of colchicine, indoleacetic acid and Pulvinic acid on the histology of the growing tips of *Vicia faba* Proceedings, 6: 63.
- (6) Venning, F.D. (1954). Manual of advanced plant micro-technique, 19: 20.

MUTUAL EFFECTS OF ION UPTAKE BY CARROT ROOT TISSUES

By

M. A. Nosseir

Introduction

It has been recently shown by the author (1962) that D-aspartic acid, when supplied together with KNO_3 or NH_4Cl to carrot root disks, exerts a marked depressing effect on the rate of nitrate or ammonium nitrogen uptake. Differences in the rates of absorption of ammonium, nitrate and aspartate nitrogen led to the suggestion that the process of uptake might have involved association with a carrier at the surface and movement of the complex, followed by dissociation, in the interval vacuole of the cells. The aspartic acid used was neutralized with KOH to pH 7 before it was supplied to the culture media around the tissues. Therefore, it was obvious that the culture media was containing potassium and chloride ions in addition to aspartate and ammonium ions or containing potassium in addition to aspartate and nitrate. Consequently, it was desired to extend this work and study the uptake of potassium and chloride ions in presence of the different nitrogen sources.

Methods and Experiments

The plant material, the technique of the disk culture experiments, and the analytical methods were the same as in the earlier work described by El-Shishiny and Nosseir (1957). Potassium was determined by means of the flame photometer. Chloride was estimated by titration against standard silver nitrate using dichlorofluorescein indicator as adopted by Stiles and Skelding (1940). Two experiments were done. Experiment I was designed to include K, aspartate, NH_4 and chloride ions simultaneously in the culture media. Therefore, duplicate samples of carrot root disks after being washed for 4

days in aerated distilled water, were transferred into culture vessels each containing 350 ml. of the following solutions : Distilled H_2O ; 0.00125M D-aspartate; 0.005M D-aspartate; NH_4Cl ; NH_4Cl + 0.00125M D-aspartate; NH_4Cl + 0.0025M D-aspartate; NH_4Cl + 0.005M D-aspartate. However, experiment II was designed to include K, aspartate and nitrate ions in the culture media and hence duplicate samples were cultured in the following culture media : Distilled water; KNO_3 ; KNO_3 + 0.00125M D-aspartate; KNO_3 + 0.0025M D-aspartate; KNO_3 + 0.005M D-aspartate. The concentration of NH_4Cl in experiment I and KNO_3 in experiment II was 0.005M. D-aspartic acid was neutralized with KOH to pH 7 before supplying it to the tissues.

Results and Discussion

As shown in Tables 1 and 2, ammonium, nitrate, aspartate, potassium and chloride ions, when present together in their respective culture solutions, were absorbed simultaneously at different rates by carrot root disks. Among the nitrogen sources, ammonium or nitrate ions were absorbed in preference to aspartate ions.

Also, Table 2 shows that the ratios of absorbed K to NO_3 were always higher than 1.0, suggesting that anions other than nitrate were absorbed to equalize the positive electrostatic charges of the cations absorbed in excess of nitrate. Alternatively, evidence was obtained that the excess absorption of cation over anion was compensated by the exosmosis of other ions from the tissues. These results show that carrot root tissue, like pineapple roots, Sideris and Young (1950), absorbed more potassium than nitrate, suggesting differential rates for cations and anions. It is possible that the negative electrostatic charges of the root tissues might be responsible for greater attraction of K than of NO_3 . Likewise, in Table 1, with K D-aspartate supplied to carrot tissues either singly or in combination with NH_4Cl , ratios of K to aspartate greater than 1.0 were obtained in all culture solutions except in that containing NH_4Cl + 0.00125M KD-aspartate. Here chloride ions were absorbed partly to balance the electrostatic charges of the cations absorbed in excess of aspartate and partly to balance the electrostatic charges of the ammonium ions absorbed.

Table I
Absorption of K D-aspartate and NH_4Cl by carrot root disks
during 24 hours from different culture media

Culture media	absorbed ^I					% of initial concentration		
	$\text{NH}_4\text{-N}$	$\text{NH}_2\text{acid-N}$	K.	Cl.	$\text{NH}_4\text{-N}$	$\text{NH}_2\text{acid-N}$	K.	Cl.
Water control ^{xx}	-	-	-10.33	-	-	-	-	-
0.00125M K D-aspartate	-	4.94	15.87	-	-	17.4	18	-
0.005M K D-aspartate	-	19.20	20.30	-	-	16.2	6.1	-
0.005M NH_4Cl	51.71	-	-	94.80	43.9	-	-	30
0.005M NH_4Cl + 0.00125M K D-aspartate	39.55	9.80	7.25	90.05	33.1	25.4	8	28
0.005M NH_4Cl + 0.0025M K D-aspartate	38.50	12.17	24.30	92.55	32.1	20	14.3	30
0.005M NH_4Cl + 0.005M K D-aspartate	34.42	17.53	21.80	95.15	27.5	14.6	6.4	30

^I x Mgm./100 gm. fresh wt. of tissue

^{xx} Exosmosis,

Table II

Absorption of K D-aspartate and K NO₃ by carrot root disks during 24 hours from different culture media

Culture media	absorbed ^x			% of initial concentration		
	NO ₃ -N	NE ₂ acid-N	K	NO ₃ -N	NE ₂ acid-N	K
Water control ^{xx}	-	-	20.20	-	-	-
0.005M K NO ₃	44.27	-	79.75	37	-	23.4
0.005M K NO ₃ + 0.00125M K D-aspartate	36.17	0.60	114.05	31.5	2.1	23.6
0.005M K NO ₃ + 0.0025M K D-aspartate	36.52	0.60	129.15	22.5	1.0	24.3
0.005M K NO ₃ + 0.005M K D-aspartate	36.60	0.60	135.00	32.8	0.5	19.4

x Mgm./100 gm. fresh wt. of tissue

xx Exosmosis.

Although the actual rate of intake of ions is greater with the higher concentration of the salt, actually the rate of absorption relative to the external concentration decreases with increase in concentration apart from the complications resulting from exosmosis of K or other ions in the culture solutions. It was stated by Stiles (1927) that when storage tissue is placed in distilled water, there is an exosmosis of ions which was found, in the present investigation, to include K ions. It would appear that there is still this tendency for exosmosis when the liquid surrounding the tissue is a K salt. It may be noted also that if this exosmosis is independent of the concentration of the external solution, then in a higher concentration of K, this tendency will reduce the absorption relative to the concentration less than in a weaker concentration. This might probably account for the relative absorption of K being higher from 0.0025M K D-aspartate than from 0.00125M concentration in presence of ammonium chloride. Similar results were arrived at by Stiles and Skelding (1940).

Again, as shown in Table 1, ammonium absorption as per cent of total supply decreases progressively with the increase of amino acid concentration in the various culture solutions. This might be due to the inhibiting effect of D-aspartate on ammonium uptake. As regards chloride uptake, the relative absorption was almost constant indicating more or less equal absolute rates of absorption from the different solutions.

On the other hand, Table 2 shows that the nitrate uptake as per cent of total supply decreases to almost one and the same level consequent to administration of various concentrations of D-aspartate. They might indicate that the inhibition of nitrate uptake by carrot root tissues was independent of the concentration of D-aspartate added.

It was of interest to find that D-aspartate has competed with nitrate or ammonium as a nitrogen source for carrot tissues. Thus antagonistic effects can be produced by combinations of substances radically different in their structure. This result has been repeatedly shown by the author in other publications and may substantiate the observations of Macht (1934) and Virtanen and Linkola (1946).

Summary

The uptake of different ions by carrot tissue was studied.

1. The ratios of absorbed K to NO_3 or K to aspartate or NH_4 to aspartate were always higher than 1.0. It is possible that the negative electrostatic charges of the root tissue might be responsible for greater attraction of K or NH_4 than of NO_3 or aspartate.
2. Chloride ions were absorbed partly to balance the electrostatic charges of the cations absorbed in excess of aspartate and partly to balance the electrostatic charges of the ammonium ion absorbed.
3. The rate of absorption relative to the external concentration decreased with increase in concentration except in certain cases.

References

- (1) El-Shishiny, E.D.H. & Nosseir, M.A. The relation of optical form to the utilization of amino acids. I. Utilization of stereoisomeric forms of glutamic acid by carrot root disks. "Plant Physiol. 32: 360-364, 1957".
- (2) Macht, D.I. Growth of *Lupinus albus* seedlings in solutions of some amino acids. "Amer. J. Bot., 21: 72-76, 1934".
- (3) Nosseir, M.A. The relation of optical form to the utilization of amino acids. IV: Effect of D-aspartic acid on the uptake and utilization of ammonium and nitrate nitrogen by carrot root disks. "Advancing Frontiers Plant Sci. New Delhi, 1: 141-152, 1962".
- (4) Sideris, C.P. and Young, H.Y. Growth of *Ananas Comosus* (L.) Merr. at different levels of mineral nutrition under green-house and field conditions. I. Plant and fruit weights and absorption of nitrate and potassium at different growth intervals. "Plant Physiol., 25: 594-616, 1950".
- (5) Stiles, W. The exosmosis of dissolved substance from storage tissue into water. "Protoplasma, ii: 577-601, 1927".
- (6) Stiles, W. and Skelding, A.D. The salt relations of plant tissues. I. The absorption of potassium salts by storage tissue. "Annal. Bot. N.S., No. 14, IV: 329-363, 1940".
- (7) Virtanen, A.I. and Linkola, H. Organic nitrogen compounds as nitrogen nutrition for higher plants. "Nature, 158, 515, 1946".

THE EFFECTS OF SEED TREATMENTS WITH
2, 4-DICHLOROPHENOXY ACETIC INDOLE ACETIC AND
NAPHTHALINE ACETIC ACIDS ON THE DIFFERENT
CARBOHYDRATE FRACTIONS OF "ZEA MAYS" PLANTS

By

A. I. Khalil and M. I. Naguib
(Bot. Dept., Fac. Sci., Cairo Univ.)

One of the marked effects of some auxins on plants is the rapid depletion of carbohydrate food reserves. This was observed in the morning glory plant by Mitchell and Brown in 1945; in the bindweed by F. G. Smith et al. in 1947; in buckwheat by Wort in 1951; and in broad bean by Hofmann and Schmeling in 1953. It has also been noted by Sell et al in 1949 that red kidney bean plants treated with 2, 4-D showed an accumulation of proteins, amino acids, lipids and reduction of insoluble carbohydrates.

The present investigation was designed with the aim of studying in more details, the effects of 2, 4-dichlorophenoxy acetic, indole acetic and naphthalene acetic acids (abbreviated as 2, 4-D, IAA and NAA respectively) on the different carbohydrate fractions of *Zea mays*.

Methods and Technique

The grains of *Zea mays* were procured from the Ministry of Agriculture. Samples of the grains were soaked for 24 hours in 2, 4-D, IAA and NAA (5 p.p.m., 10 and 20). Another sample was soaked in pure water for comparison. After soaking, the grains of each sample were sown in separate plots with 6 replicates for each treatment and each replicate with 40 plants.

The plants were given 200 kgs ammonium nitrate per feddan as recommended by the Ministry of Agriculture.

Samples of the leaves were collected from the plants at random and air dried at 70°C till constant weight was obtained. After that the leaves were finely powdered and kept desiccated for further analysis of the different carbohydrate fractions. These samples were taken twice, the first being after one month from sowing and the second after two months.

Analysis of the different carbohydrate fractions was carried out according to the procedures adopted by Naguib 1962 and 1963. Nucleoprotein pentoses were estimated after hydrolysis of the plant residues using 5% trichloroacetic acid for one hour at 100°C which assured the complete hydrolysis of both ribonucleic and desoxyribonucleic acids without further hydrolysis of any other polysaccharide fraction. Five replicates were analysed for each treatment.

Results

Effect of the acids after one month. — Table 1 shows the mean values of the different carbohydrate fractions present in the control as well as the differently treated one month old corn leaves, expressed as mgms sugar per 1 gm dry weight.

Effect of 2, 4-D : 2, 4-D decreased the total carbohydrate content except when the grains were soaked in 10 p.p.m. where the acid had no effect. Furthermore, inspite of the fact that the soluble sugars formed a very small fraction of the total carbohydrates, yet the fluctuations of the different fractions were somewhat remarkable. Thus in the control samples, sucrose seemed to participate by nearly one fourth the total soluble sugars, a ratio that was slightly lowered in presence of the three concentrations of 2, 4-D. On the other hand, the monosaccharide content of the treated samples was slightly changed by soaking in 5 and 10 p.p.m. 2, 4-D but increased when treated with 20 p.p.m. In all cases, the fluctuations were mostly in the hexose fractions.

The distribution of the polysaccharides seemed to be unaffected when the seeds were treated with 10 p.p.m. 2, 4-D. On the contrary, lower and higher concentrations of the auxin reduced the total polysaccharide content of the tissues, mostly from the glucosan fraction and partly from the galactosans while

the fructosans seemed to be little affected. Furthermore, the reduction in glucosan accumulation was always accompanied by excessive accumulation of galactosans.

Effect of IAA : The results obtained from the analysis of the total carbohydrate content of one month old leaves treated with IAA were more or less similar to those previously obtained in presence of 2, 4-D, yet the total soluble content of these treated leaves was lower than the controls, more or less to the same extent irrespective of variation of concentration of the auxin, the decrease being mostly from the sucrose and hexose fractions.

On the other hand, the total polysaccharide content of the treated samples seemed to be unaffected when treated with 10 p.p.m. while the lower and higher concentrations of IAA considerably inhibited the accumulation of this fraction. In all cases, the values of the different polysaccharide fractions were unchanged except for the glucosan content which was very much reduced while the rate of galactosan accumulation was accelerated.

Effect of NAA : Table 1 shows that soaking in 5 and 10 p.p.m. NAA reduced the total carbohydrate content of one month old leaves while 20 p.p.m. of the acid slightly raised this value. Under all conditions both the hexose and pentose fractions were unchanged while the sucrose content was reduced leading to a lowered total soluble sugar content.

Similar to IAA, NAA induced a lowered glucosan accumulation while the galactosan content remarkably increased particularly when the plants were treated with the higher concentrations. Still the fructosans and pentosans were seemingly unaffected.

Effect of the acids after two months. — Table 2 shows the mean values of the different carbohydrate fractions present in the control as well as the differently treated 2 months old corn leaves expressed as mgms sugar per 1 gm dry weight. The table shows clearly that during one month development, the control leaves accumulated an appreciable amount of polysaccharides mostly the glucosans and conjugated pentoses while the soluble sugar content dropped considerably mostly from both

hexose fractions. In all cases, whether treated or not, the leaves ceased to build up sucrose and all the original sucrose content disappeared. Furthermore, during this period of development, a noticeable amount of conjugated pentoses was recovered in the control samples.

Effect of 2, 4-D. — Treatment with 5 and 10 p.p.m. 2, 4-D seemed to have no effect on the total carbohydrate content of the leaves after 2 months of growth. The only noticeable effect is a considerable increase in the accumulation of fructose especially with the lower and higher concentrations. The other soluble fractions showed little or no fluctuations from the control samples so that no safe deduction could be made. On the other hand, pretreatment with 20 p.p.m. 2, 4-D favoured the accumulation of total carbohydrates, the excess being mostly galactosans. All treatments showed lowered glucosan and higher galactosan content over that of the control samples.

Effect of IAA. — Treatment with IAA seemed to have very little, if at all, effect on the different soluble fractions except for a considerable rise amounting to about 300 per cent in both hexose fractions. The most striking effect of the auxin is the increased polysaccharide content of the treated plants, a phenomenon that was reduced by increase of concentrations. In all cases the increase was mostly in the galactosans, while the glucosans were reduced only when the grains were treated with 5 and 10 p.p.m.

Effect of NAA. — The most striking of the effects of NAA on the carbohydrate levels is the increased total carbohydrate content, a phenomenon that increased by increasing the concentration of the auxin. This was accompanied by a depressing effect on the rate of building of conjugated pentoses, the effect being marked in the two higher concentrations. The conjugated pentosan fraction was slightly affected by 5 and 10 p.p.m. of the auxin but was markedly reduced in the highest concentration of 20 p.p.m. Furthermore the treated tissues accumulated appreciable amounts of hexoses over the control, the fructose content being little affected by variation of concentration of the auxin while the glucose value was lowered by raising the concentration of the auxin. On the other hand NAA favoured the accumulation of both the glucosans and galactosans.

Discussion

The results of this experiment clearly established the fact that during the first month of development, the three compounds, under the conditions of the experiment, seemed to have no effect on the different pentose forms, a phenomenon suggesting that these auxins did not interfere with the nucleotide and nucleoprotein formation. On the other hand, all treatments lowered the sucrose content; an indication that sucrose phosphorylase was inhibited. On the contrary, the treated samples showed a higher galactosan level, suggesting activation of hexose isomerases. From what is mentioned, it is obvious that the auxins used remained in the cells to exert their actions for a relatively long period. The presence of 2, 4-D as such had been demonstrated in tomato and pass for as long as 26 days after treatment (Dhillon and Lucas 1950).

Furthermore it seems that lower concentrations of the 3 compounds had more or less similar reducing effects on the total polysaccharide accumulation whereas in high concentration, both IAA and 2, 4-D lowered while NAA increased the polysaccharide contents of the tissues. Again it should be mentioned here that, inspite of the fact that IAA and 2, 4-D behaved more or less similarly in this respect, yet Tang and Bonner (1947) and Wagenknecht and Burris (1949) reported that 2, 4-D, unlike indole compounds, is not rapidly broken down in plant tissues.

During the second month, the tissues recovered from the inhibitory effects of 2, 4-D on the rate of polysaccharide synthesis and further enhancement was observed in the high concentration of 20 p.p.m. Still the inhibition of starch phosphorylase and acceleration of hexose isomerase was noticed. Furthermore, it seems that by lapse of time, 2, 4-D accelerated the nucleotide formation. Such a long-time response of plants was dealt with by Jaworski and Butts (1952) and Fang and Butts (1954) using 2, 4-D. They claimed that 2, 4-D may form a compound with the sugar glucose or protein and is stored in the plant in this form and slowly liberated by enzymes over long periods of time. Any how, the result was also substantiated by earlier workers such as Weintraub et al (1954) who found that when 2, 4-D was applied in the autumn to dormant buds of *Prunus*, it could still be

extracted unchanged in the spring and was then present in amounts sufficient to affect new growth from the buds.

The depressing effects of the three compounds on polysaccharide accumulation, during the first month of development, was followed by an accelerating effect that increased by raising the concentration of either 2, 4-D or NAA but decreased under the same conditions of IAA. Both 2, 4-D and IAA still lowered starch phosphorylase and accelerated hexose isomerase activity while NAA accelerated both enzymes.

Furthermore, while IAA, by lapse of time, had no effect on nucleotide and nucleoprotein formation, 2, 4-D accelerated while NAA lowered the rate of building both components particularly in presence of high concentrations.

Summary

Grains of *Zea mays* were soaked in 2, 4-D, IAA and NAA (5 p.p.m., 10 and 20) and sown. The leaves were analysed for their different carbohydrate fractions after one and after two months from sowing.

The three acids caused a persistent lowering of starch phosphorylase but enhanced the hexose isomerases. The tissues recovered from the inhibitory effects on the rate of polysaccharide formation after two months from sowing and in few cases caused a further enhancement. In all cases the soluble sugar fractions were very small compared with the polysaccharides. IAA had no effect on the nucleoprotein formation while 2, 4-D accelerated the rate of building of these components. On the other hand NAA had a depressing effect.

Table 1
Different Carbohydrate Contents of Leaves after One Month
(Calculated as mg sugar per 1 gm D.W.)

Treatments	Soluble carbohydrates						Insoluble carbohydrates						Total carbohydrates		
	Glucose	Fructose	Total hexose	Free pentose	Conj. ald-pentose	Total monosacch.	Sucrose	Total sol. sugar	Glucose resin	Fructose resin	Galactose resin	Total non-sol. resin		Conj. ald-pentose resin	Total polysacch.
Control	2.47	1.07	3.54	0.84	0.09	4.48	1.62	6.10	250.10	10.80	44.80	250.40	44.59	299.90	269.99
0 P.P.M. 2, 4-D	2.34	1.69	4.03	0.89	0.19	4.71	1.89	6.60	257.79	9.19	77.80	258.70	43.78	299.90	286.18
10 P.P.M. 2, 4-D	2.66	1.09	3.75	0.60	0.10	4.47	1.83	6.79	260.37	9.48	44.40	254.40	43.84	299.90	329.88
20 P.P.M. 2, 4-D	2.69	1.77	4.46	0.89	0.18	6.06	1.81	6.87	182.81	7.68	78.80	209.40	39.82	242.90	259.07
50 P.P.M. 2, 4-D	1.7	0.69	2.46	0.68	0.11	3.83	1.69	4.49	121.98	9.87	108.80	240.48	46.15	200.48	204.74
10 P.P.M. Zn	1.82	0.66	2.47	0.66	0.18	3.69	1.87	4.85	187.80	10.40	182.40	200.80	46.82	249.80	294.75
50 P.P.M. Zn	1.86	0.81	2.66	0.65	0.18	3.44	1.84	4.68	218.83	8.93	182.00	209.80	46.08	255.80	318.84
5 P.P.M. Zn	2.69	1.03	3.72	0.64	0.14	4.80	0.87	5.12	220.88	7.12	84.80	232.80	46.74	280.10	340.24
10 P.P.M. Zn	2.73	1.09	3.82	0.62	0.15	4.80	0.87	5.17	194.15	7.45	84.80	204.30	46.10	250.90	330.07
20 P.P.M. Zn	2.89	1.08	3.96	0.64	0.07	4.43	0.81	5.09	245.86	7.84	101.60	256.80	46.80	302.80	406.84

Table 2.
Different Carbohydrate Constituents of Leaves after Two Months
(Calculated as mgm sugar per 1 gm D.W.)

Treatment	Soluble carbohydrates						Insoluble carbohydrates						Total carbohydrates
	Glucose	Fructose	Total Free sugars	Conjugated pentose	Total pentose	Disaccharides	Glucose	Fructose	Galactose	Total mono- and disaccharides	Conjugated pentose	Total polysaccharides	
Control	0.61	0.53	0.64	0.56	0.62	0.67	1.21	0.40	1.21	4.86	10.60	46.58	66.06
5 P.P.M. E ₄ -D	2.42	0.88	3.41	0.89	0.42	1.01	4.42	0.00	4.42	300.60	2.84	423.60	641.60
10 P.P.M. E ₄ -D	0.52	0.36	0.63	0.89	0.77	0.86	1.45	0.00	1.45	365.43	0.92	127.20	647.85
20 P.P.M. E ₄ -D	1.35	1.03	3.41	0.89	0.46	1.08	4.45	0.00	4.45	365.50	10.50	192.40	603.45
5 P.P.M. IAA	0.66	0.76	1.31	0.64	0.63	0.67	2.16	0.00	2.16	378.68	9.37	620.70	622.85
10 P.P.M. IAA	0.61	0.72	1.33	0.61	0.67	0.68	2.61	0.00	2.61	359.86	9.06	160.60	612.51
50 P.P.M. IAA	0.57	0.79	1.35	0.63	0.68	0.80	2.21	0.00	2.21	421.61	9.79	67.80	699.40
5 P.P.M. NAA	4.68	0.94	5.62	0.67	0.18	0.82	6.44	0.00	6.44	467.98	9.77	40.10	622.60
10 P.P.M. NAA	2.64	1.02	3.06	0.80	0.04	0.84	4.80	0.00	4.80	508.69	9.41	110.00	622.00
50 P.P.M. NAA	1.79	0.48	2.05	0.71	0.04	0.76	2.88	0.00	2.88	640.56	10.67	162.80	770.80

Literature

- Dhillion, A.S. and Lucas, E.H. (1950) : Absorption, translocation and persistence of 2, 4-D in some plants. *Bot. Gaz.*, 112, 198-207.
- Fang, S.C. and Butts, J.S. (1954) : Studies in plant metabolism. III. Absorption, translocation and metabolism of radioactive 2, 4-D in corn and wheat plants. *Plant. Physiol.*, 29, 56-60.
- Hofmann, E. and von Schmelling, B. (1953) : Zur Wirkung der 2, 4-D auf den Stoffwechsel bzw. Fermentgehalt der Pflanzen. *Naturwissenschaften*, 40, 78-86.
- Jaworski, E.G. and Butts, J.S. (1952) : Studies in plant metabolism. II. The metabolism of C^{14} labelled 2, 4-D in bean plants. *Arch. Biochem. Biophys.*, 38, 207-18.
- Mitchell, J.W. and Brown, J.W. (1945) : Effect of 2, 4-D on the readily available carbohydrate constituents in annual morning glory. *Bot. Gaz.*, 107, 120-9.
- Naguib, M.I. (1952) : A rapid procedure for the colorimetric estimation of free and conjugated sugars in plant extracts. *Zucker* 15 (17) : 351.
- , (1963) : Colorimetric separation of plant polysaccharides. *Zucker* 16 (2) : 15.
- Sell, H.M., Luecke, R.W., Taylor, B.M. and Hamner, C.L. (1949) : Changes in chemical composition of the stems of red kidney bean plants treated with 2, 4-D. *Plant Physiol.*, 24, 295-299.
- Smith, F.G., Hamner, C.L. and Carlson, R.F. (1947) : Changes in food reserves and respiratory capacity of bindweed tissues accompanying herbicidal action of 2, 4-D. *Plant Physiol.*, 22, 58-65.
- Tang, Y.M. and Bonner, J. (1947) : The enzymatic inactivation of indole acetic acid. I. Some characteristics of the enzyme contained in pea seedlings. *Arch. Biochem.*, 13, 11-25.

Wagenknecht, A.C. and Burris, R.H. (1949) : Indole acetic acid inactivating enzymes from bean roots and pea seedlings. Arch. Biochem., 25, 30-53.

Weintraub, R.L., Reinhart, J.H., Scheriff, R.A. and Schisler, L.C. (1954) : Metabolism of 2,4-D. III. Metabolism and persistence in dormant plant tissues. Plant Physiol., 29, 303-4.

Wort, D.J. (1951) : Effects of nonlethal concentrations of 2,4-D on Buckwheat. Plant Physiol., 26, 50-8.

A STUDY OF GIFTED STUDENTS AND THEIR DEVELOPMENT IN A SOCIALIST DEMOCRATIC SOCIETY

By

Mohamed I. Kazem

University College For Girls, Ein Shams University

PART I

Introduction

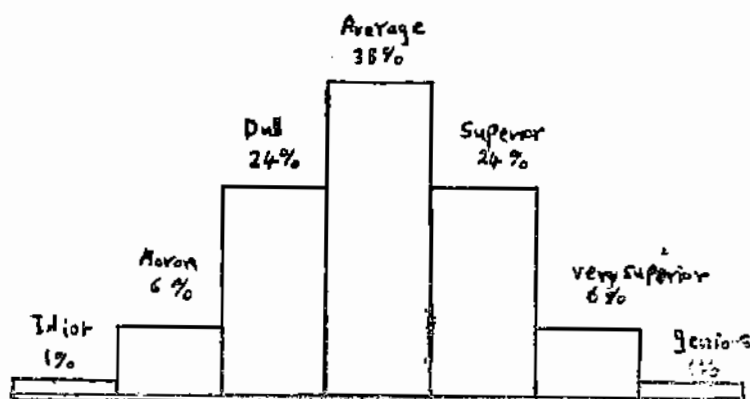
Since the early days of history people could recognize that individuals were not the same; neither in their physical shapes and capacities, nor in their mental abilities. The folk-lore of all old civilizations tell us how they distinguished between the superior, the normal, the feeble-minded and the mad.

This does not necessarily mean that they conducted scientific study among the population to identify and put each individual in his own category, but at least we can consider the attempt of Plato 2300 years ago to speculate upon ways of telling which children were gifted so that they might be educated for leadership in the state. He was convinced that Greek democracy would be no better than its leadership and he wished to educate superior youth for this important task¹. The ancient Egyptians used to invite a number of foreign students who were sons of leaders or **bright children** (as potential leaders) to their institutions for political reasons. The Romans, the Arabs, and the Turks were aware most of the time of the existence of the exceptional children. They tried to help the defective children and to make use of the gifted.

In this paper we will concern ourselves with the gifted children and their place in our present day socialist democratic society. As a matter of fact during the last few centuries which were accompanied with the fast development in all aspects of life, little attention was paid to make use of the gifted or even study them scientifically. Attention to gifted children was:

stimulated by the publication in 1869 of Galton's **Heredity Genius** which marked the beginning of the era of strong interest in individual differences². Since this time evidence accumulated from many years of research and observation indicated that the range of intellectual abilities, interests and capacities among individual human beings is very great³. (see Fig. 1).

The intelligence of the population



You will notice on the graph that the highest percentage of the population (38 per cent) is of average intelligence. An additional 48 per cent of the population is divided equally on either side of the average group. These are the somewhat-less-than-average and the somewhat above average segments of the population. The feeble-minded and the gifted, the extreme ends of the graph, comprise only about 14 per cent of the total population.

Who Are The Gifted Children :

The gifted group are defined as those who have special abilities or talents of social value. These include :

1. High intelligence.
2. Talent in creative fields, such as art, music, and writing.
3. Special abilities in a variety of socially useful areas, such

* After Thelma Guin Thurstone, and Katharine M Byne. Mental abilities of children, science research assn. Chicago, 1951, p. 9.

as mechanics, science, dramatics, athletics, human relations, social organization.

4. Creative talent or the ability to make new and novel solutions to problems⁴.

In general, we may assume that with few exceptions, the gifted children will have superior intelligence, though not always the very highest. Within this category the child must rank in the top 2 or 3 percent of the age group in at least one area of special significance, such as art, verbal intelligence, or spatial imagination. The types of talent to be included are those which have social value and are of sufficient complexity to permit further development. Hence we will concern ourselves with children who have high intellectual ability and children with creative ability. Creative children are those who have unusual ability to evolve new methods and improved procedures for doing things. They are resourceful and have great initiative. The child with unusual creative ability usually has high intellectual ability, though many children with high intellectual ability do not have **high creativity**. The child who excels in this area will usually have other talents in addition to his creative ability⁵. Mentally gifted children have a high degree of general intelligence in the sense of the ability to do abstract thinking and other types of relational thinking. Those children rate high in respect to the general intelligence factor which Spearman designated by the letter "G". In terms of Thurstone's theory they possess to a high degree most if not all, of the eight mental abilities. According to Thorndike, they excel in the abilities involved in "abstract" intelligence. The mentally gifted are characterized by "power" that is, they are able to do mental tasks of a high degree of difficulty. The mentally gifted are alert and quick. Spearman thought that intelligence and speed of response were not separable to any great degree. The mentally gifted are also characterized by broad attention-span, by a high degree of insight into problems, and by ability to generalize⁶.

There is a traditional belief that gifted children are usually one sided and they are almost always weak, suffering self-torment and unhappy. We do not know whether they are more happy or less happy than the average person in the generality. We do know that they are better fed, better housed, and better doctored than the average person, that they are in a position to

care better for their children, and that they have less reason generally to be anxious about the future. Such things can't insure happiness, but they would seem to favor it. The more important results, however, can be stated : children of I.Q. 140 or higher are in general, appreciably superior to unselected children in physique, health and social adjustment; markedly superior in moral attitudes as measured either by character tests or by trait ratings; and vastly superior in their mastery of school subjects as shown in a three hour battery of achievement tests⁷.

Special attention was given the geniuses who had sometime or other been labeled as backward in childhood and in every one of these cases the facts clearly contradicted the legend. In these cases one notes a tendency for the direction of later achievement to be foreshadowed by the interests and preoccupations of childhood⁸. Terman says, "Gifted children do work of superior quality in all subjects requiring abstract thought, but only slightly better than average in subjects depending upon manual dexterity or special talent." The reason why many children with high I.Q.'s have poor muscular control is because muscular development is not so dependent upon mental age as upon physical development⁹. Furthermore, Terman found in his gifted group that success is associated with stability rather than unstability, with absence rather than with the presence of disturbing conflicts in short, with well balanced temperament and with freedom from excessive frustrations¹⁰.

Even the famous idea of C.F. Hohan and Edgar Dale about using films, "the effectiveness of films with children of a given level of "Intelligence" must be expected to vary with the subject taught and with the learning out-comes measured¹¹". Where effectiveness is considered in terms of verbal responses to information tests, films seem to be relatively more effective for "dull" than bright children, is not accepted by recent studies. Herbert Smith in conclusion of his study about that says, "In view of the probable penalty which the use of gains places on brighter students, and the depressing effect on the correlation coefficient of unreliability in the measuring instrument, the positive correlations obtained seem to be conclusive evidence that bright children learned more of the information demanded by the five different tests employed in the two studies than dull children¹²".

As a summary to answer who are the gifted we can use the conclusion of Lewis Terman¹³ of his study which was designed to discover what physical, mental and personality traits are characteristic of gifted children as class, and what sort of adults they become. The subjects investigated were selected by methods which insured that they would be fairly representative of the top 1 percent of the general school population in I.Q. All but a few members of the group were first tested and studied in 1921-22. The follow-up has included two extensive field studies, with retests in 1927-28 and 1939-40. On several follow-up studies by mail (the latest 1945) some of the most significant findings are as follows :

1. The typical gifted child is superior not only in intelligence but in practically all the traits that were studied, including school achievement, versatility, character traits, play information, social adjustment, and physique.

2. As adults, the group as a whole averaged in tested intelligence about 1.0 S.D. above the average college students, and between 2.0 and 2.5 S.D. above the average adult. None of the subjects have regressed to average adult intelligence, but perhaps 10 percent have regressed from the 99th percentile to the 85th percentile or below.

3. The mortality in the group has been only about four-fifths of the expectancy for the general population of comparable age. The insanity rate has been low, and serious maladjustment (other than insanity) amounted to only 6 percent by 1945.

4. Nearly 90 percent of the group have had some schooling above the secondary level, and about 70 percent have graduated from college. Two-thirds of the men, and three-fifths of the women who graduated from college have had one or more years of graduate work.

5. The school records in general have been superior at all educational levels, but a good many of the subjects have failed to achieve in proportion to their intellectual ability. Of the numerous causes responsible for such failure, one of the most important has been the absence of educational procedures adapted to children of exceptional ability.

Limitation of the Study :

The very fact why we are concerned with the study of the gifted is the trend in this age towards mass production. I do not only mean the modern method in industry, but I really also mean the impact of the quick development in all aspects of life. The competition which exists between men and nations and what follows of involving the masses of people and providing service and education for all the people, may be, because it is the best way to produce optimum efforts. It is not a question of the direction in which modern life is leading us, but rather how can optimum achievement by the gifted be accomplished. It is clear that the basic idea of Plato is still valid, "Put the right man in the right place". If we want to choose the right man for leadership and responsibility, then they are the gifted individuals. It is the responsibility of society and education, then to locate these individuals and give them the suitable training for their own benefit and our own welfare.

Prior to speaking about how to locate these children and how to use them, we like to point to the special difficulties which stood in the way of the progress of such study. Terman lists four factors which operated to limit research on the gifted:

1. The influence of current beliefs, partaking of the nature of superstitions, regarding the essential nature of the great man who has commonly been regarded by the masses as qualitatively set off from the rest of mankind, the product of supernatural causes, and moved by forces which are not to be explained by the natural laws of human behavior.

2. The widespread belief, hardly less superstitious in its origin, that intellectual precocity is pathological.

3. The vigorous growth of certain so called democratic sentiment in Western Europe and America during the last few hundred years, which has necessarily tended to encourage an attitude unfavorable to a just appreciation of native individual differences in human endowment.

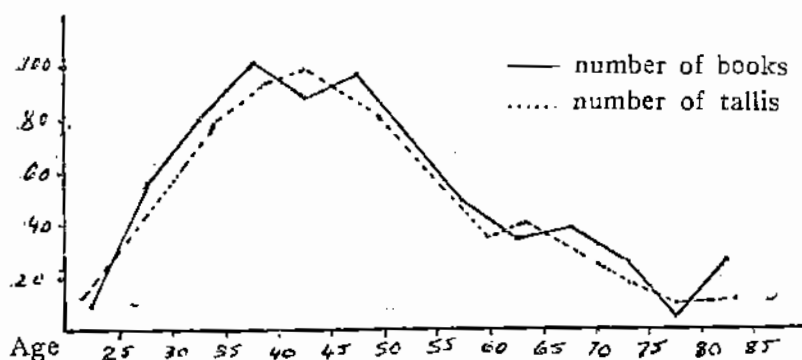
4. The tardy birth of the biological sciences, particularly genetics, psychology and education¹⁴.

PART II

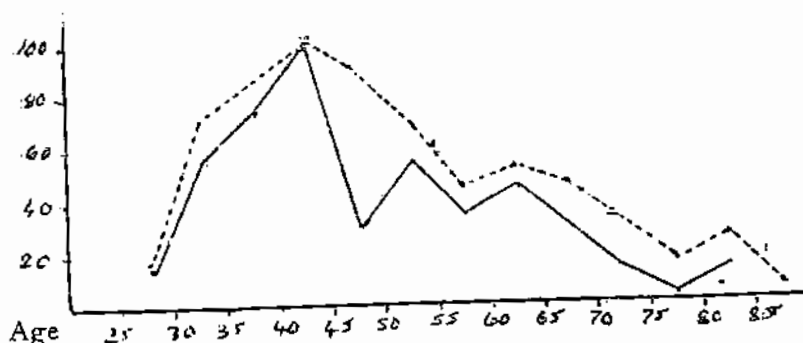
Identifying the Gifted

The studies made in the 1930's by Stoke and Lehman, as well as by others, have revealed that gifted children are usually found in average and inferior socioeconomic groups because of the greater number of children that make up such groups. And despite earlier implications, based upon percentage of their quota, that the gifted are to be found primarily among the professional and higher occupational group. Lehman and Stoke concluded from their studies of the number of gifted children in unselected populations that the great majority of children with I.Q.'s above 140 come from non-professional classes¹⁵. The identification of gifted children is not as easy as it appears at first thought. Sometimes the lack of interest in classroom routine manifested by many gifted children has misled the teacher in many cases and caused her to regard them as dull or slow learning individuals. Attitudes growing out of frustration have caused gifted children to be classified as delinquent and socially maladjusted cases. There is need for careful systematic identification in all schools. Many schools make no effort to learn who the gifted are, and still others make the attempt in such haphazard fashion that the results have little reliability and still less usefulness¹⁶. It is a matter of high importance though to locate these gifted and as early as possible. These early identified gifted are the geniuses and leaders of the future. Both the evidence on early mental development of historical geniuses and that obtained by follow-up of gifted subjects selected in childhood by mental tests points to the conclusion that capacity to achieve far beyond the average can be detected early in life by a well constructed ability test that is heavily weighted with the "G" factor¹⁷.

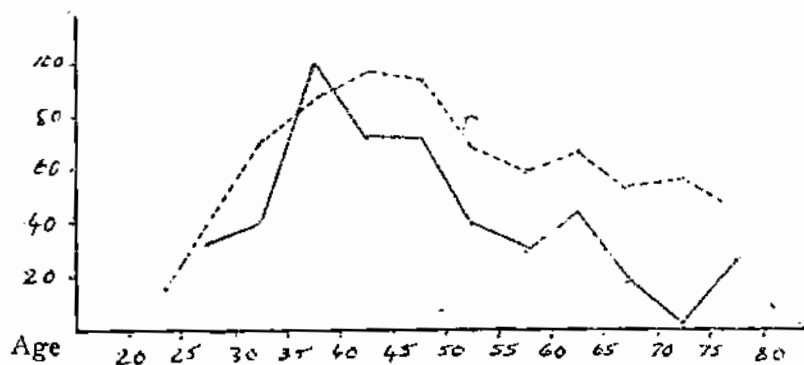
In the following pages we located some charts which illustrate the age versus production in different fields¹⁸. We can see that the best work in science is done between ages 25-35 and rarely later than 45. The peak productivity for works of lesser merit is usually reached 10 years later in philosophy, art, psychology, and education, etc.



Age versus production of 128 philosophical works each of which was alleged by one or more of the 50 historians to be authors (chief work). (Lehman P. 44)



Age versus production in educational theory and practice.
 — one superior contribution by each of 75 individuals born from 1750-1850.
 425 contributions of lesser merit by 206 individuals born from 1750-1850. (Lehman P. 137)



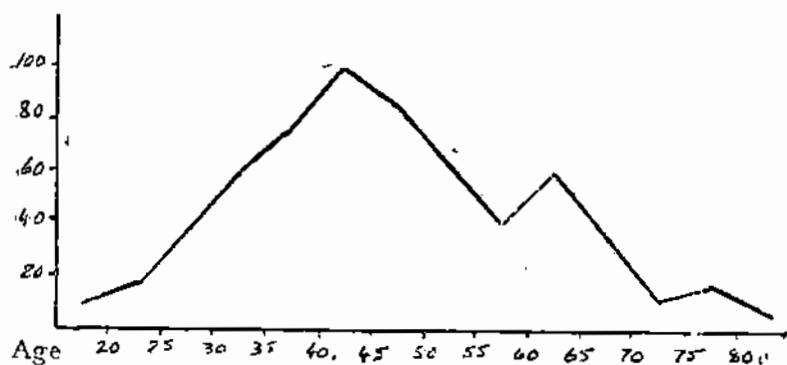
Age versus production in psychology.
 — 85 superior contributions by 50 individuals.
 4687 contributions of lesser merit by 339 contemporary psychologists. (Lehman P. 136)



Chronological Ages

Average number of practical inventions during each five year interval of the inventors' lives. Based on 554 inventions by 402 inventors now deceased.

(Lehman P. 10)



Chronological Ages

Age versus the production of 274 superior prose selections by 62 authors.

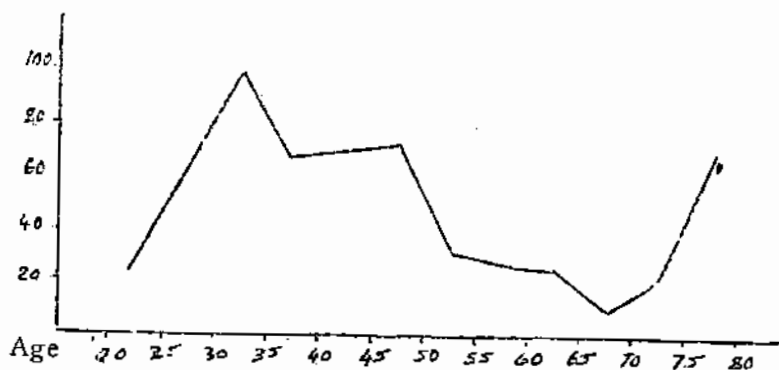
(Lehman P. 111)



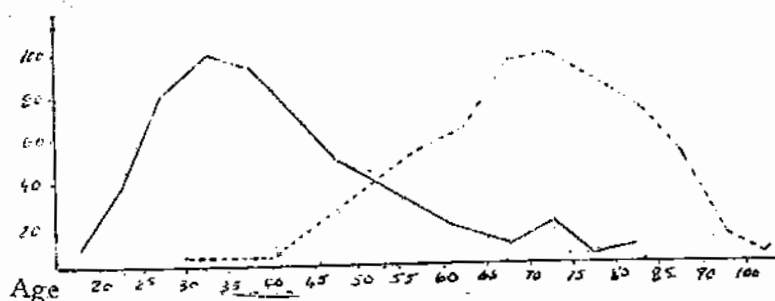
Chronological Ages

Age versus important pictures in the Louvre. Based on 53 paintings by 32 artists.

(Lehman P. 73)



Average number of contributions by physicists during each five-year interval of their lives. Based on 141 contributions by 90 physicists now deceased. (Lehman, P. 9)



993 significant contributions by 244 noted chemists. Percentage of the 244 chemists who died during each five years interval. (Lehman, P. 17)



Age versus medical discoveries and inventions. Data for 159 individuals who made 188 medical discoveries and inventions. (Lehman, P. 27)

We can see from this study of Lehman that the youth of high achievement potential should be well trained for his life work before too many of his most creative years have been passed.

How to Identify the Gifted :

It is clear that in any program concerned with the identification of gifted children, it is important to develop methods of detecting individuals of high intellectual ability as well as those who exhibit special gifts in such areas as the arts, music, mechanics, science, social relations, leadership and organization¹⁹. However, we should be very careful in our judgments and conclusions. We should not confuse mental ability with scholastic ability. A child may do poorly in school because he is not high in verbal comprehension and word fluency. Learning in our schools depends largely on these two abilities. But a child may possess high mental abilities that the school does not utilize. It takes intelligence to find the cause of a motor knock, to lay out a dress pattern economically and to plan the scaffolding for building a new house — yet the child may not have the opportunity to show these abilities in class work. We should not label a child "smart" or "dull" on the basis of his ability in one or two areas of intelligence²⁰.

Enlightened by all the limits to the way of identifying the gifted, there are three general methods of identifying superior children which ~~supplement each other~~ and which, taken together, provide an excellent program of identification²¹.

1. **Standardized Tests** : Standardized tests used with good common sense are excellent means of arriving at the gross mass of gifted children. Such tests include group intelligence tests, vocational aptitude tests, academic achievement tests and the like. If these tests are followed by a Sanford-Binet, after careful study of the child emotionally and socially, such procedures will come as near identifying the gifted as any other means. There are, however, some who, believing the total organism of the child to be a combination of physical, emotional and intellectual traits, say that these traits operate so closely in an individual that it is impossible to measure them separately²². On the other hand, the adequacy of the intelligence test score itself

(I.Q.) in giving a true picture of the child's intellectual endowment is conditioned in part by the child's performance and cooperation at the time of the test. In evaluating the results, a reviewer needs to take many other factors into consideration. The test score itself usually gives only the barest clue to other abilities of the gifted, such as initiative, creativeness, and intellectual curiosity²³. Furthermore, there are more questions about the validity of the tests. Terman said : our conclusion is that for subjects brought up under present-day educational regimes, excess in I.Q. above 140 or 150 adds little to one's achievement in early adult years. The data revealed that above the I.Q. level of 140, adult success is largely determined by such factors as social adjustment, emotional stability, and drive to accomplish. Why is it that high I.Q. has proved so generally disappointing in fulfilling the promise some investigators held for it ? An answer to this recurring question should be of interest to teachers in their attempts to reorient their thinking concerning the role of intelligence in modern life.

If by gifted children we mean those youngsters who give promise of creativity of a high order, it is doubtful if the **typical intelligence test is suitable for use in identifying them**. For creativity posits originality, and originality implies successful management, control and organization of new materials or experiences.

Intelligence tests contain over-learned materials which, as Rockwell states, call for stable predictable response, not original creative reaction. It is evident, then that an acceptable criterion for giftedness must be sought primarily outside the provinces covered by the intelligence test. For the content of the intelligence test is patently lacking in situations which disclose originality or creativity.

Another criticism of the intelligence test which may help explain its failure in the identification of creative ability lies in its maker's disavowal of concern for the motive or drive which actuates high attainment. The intelligence test neglects the role of feeling and motive and requires only the habituated response of the child to situations which are "set" and which are "low in feeling tone"²⁴. After all this criticism for using tests, and while current tests of general intelligence will not pick out all the

mentality gifted children in any group, **these tests** are probably the most effective single instrument now **available** for selecting such children. About aptitudes, it is a controversial issue. So far as identifying gifted children is concerned, there is, at present, a tendency to use such aptitude tests as are **available** in order to cast some light at least on the nature of the abilities of the gifted. The value, of those tests depends upon the background and training of these who interpret them²⁵.

2. Teacher's judgment: A clear idea of the nature of intelligence is little understood by the best of educators. Disregard for the age of the child is a common error in choosing a bright child. Over-aged pupils, doing excellent with children chronologically younger, are sometimes erroneously judged bright by teachers or people. The child who has fine character traits, whose personal appearance is flawless, and who behaves himself well, surely makes a better impression than one who causes the teacher untold difficulty. We ~~mean then~~ that a combination of teachers' judgment and the result of standardized tests is much better than the use of tests alone as a means of choosing the bright child²⁶.

3. Classroom Performance: No one deny that good school marks usually indicate good intelligence. Certainly, if the consensus of opinion of several teachers is that certain children rank high in their school subjects, and if these children are not over-age for their grade, school marks then might be used as the basis of selecting gifted children²⁷. However, we know that school marks can't be proof for anything, we only can say that the probability of finding more gifted children between the children with high school marks is more than the probability of finding them between children with low school marks.

Austing H. Turney found that the correlation between marks and I.Q. is not more than the correlation between marks and any of the other factors²⁸.

"The average correlation between marks and each of these variables for the high school classes of 1926-1927 was :

Marks and Industry	.72
Marks and Cooperativeness	.62
Marks and Perseverance	.74
Marks and Ambition	.77
Marks and Dependability	.75
Marks and I.Q.	.64

Each of these traits appear to be equal to or greater than 1.Q. in their effect upon achievement as measured by teacher's marks in the University High School. Inter-correlations indicated that these traits may be measures of the same factor to some extent."

Anyhow, though we can say that we do not have a perfect means to identify the gifted we can say that the best method is the best available one. Hence, we suggest a combination of the three methods which we spoke about. We can claim that the results which we will get out of it can be accepted for the time, for all practical purposes.

PART III

Developing the Gifted

The question of how to handle gifted children is a question about the core of Democracy. The people who urge for special care and special education and special future are arguing that in the name of democracy. They say that a democratic society should give individuals equal opportunities to develop their personalities to their maximum capacity. And as long as the gifted or the exceptional children can't achieve that in the common system, then it is their right and the duty of society to provide for each individual person the kinds and quality of educational experience needed to develop, to the fullest extent possible, his unique combination of personal characteristics. Bearing in mind that the improving of the capacities of these people is improving the general capacity of society, and denying them special care which will affect the development of their capacity is a sort of waste in society resources as well as denying the democratic concept of equality.

On the other hand, people, especially, in older days who were arguing against special care of the gifted, based their opposition on the notion that special education means special privilege which is undemocratic practice.

Democracy according to Bayles²⁹ is : "It is a form of socio-governmental organization in which there is equality of freedom or opportunity to participate in making decision on matters of

group or individual concern, and equality of obligation or responsibility to abide by such decisions and carry them out".

Democratic education then is founded on the ideal of opportunity. Too often equality of opportunity has meant **Identical opportunity**. Opportunity to be equal must be measured in terms of individual abilities and capacities to the end that all will be challenged to utilize their powers to the fullest. Society will reap a rich reward from such policy. It makes possible the full development of individual capacities so that both the individual and the society which educates him may be mutually benefitted. As John Dewey says, "If democracy has a moral and ideal meaning, it is that a social return be demanded from all and that opportunity for development of distinctive capacities be afforded all."³⁰

There is nothing undemocratic in utilizing all social resources for the betterment of society. No people can afford to disregard the differences in human materials. Special education aims to prepare the child of low mentality for a place in society for which he is best fitted. Is it any less important that the child of superior mentality be prepared for social leadership?³¹

Special education is not favoring some individuals, and does not mean special privilege, as long as it is provided according to the rule and not for personal reasons. The gifted child is both an asset and a responsibility. He is an asset of uncalculated value to society. His potentialities for good are difficult to overestimate. Our socioeconomic structure, both national and international, demands leadership of the highest quality and keenest intelligence. Where else may we look for this type of leadership except among those of intellectual superiority?

The basic concepts upon which the special education movement rests are quite simple. It is assumed that the first step in education is a careful diagnosis of the abilities, disabilities, capacities, and adjustment of an individual, using the greatest degree of expertness obtainable in a given school setting. The second step is to plan in terms of this diagnosis a program of education and training which will include the services of specialists, the development of special curricula, the use of special equipment or facilities, or the utilization of any other services,

devices or means which research or other experience has shown to have promise, and that may appear to be needed. The third step in the process is continuous evaluation of the progress of the individual and readjustment of the program as appears to be warranted by such evaluation³².

The situation of gifted education: In spite of the fact, that along with the increasing use of tests and perhaps largely as a result of it, there is a growing verbal interest, in improving educational methods for the gifted³³; only an extremely small percentage of school systems make any special adjustment in program to give the exceptionally superior child a full opportunity to develop his powers.

Some of the reasons why more do not, are that such programs may mean :

1. Increased financial outlay necessitated by special classes, program adaptations, additional supervisors, extra equipment, and similar expenditures.
2. Difficulty in securing teachers who have the knowledge and skill required to make curricular adjustments for the gifted or to conduct special classes for them.
3. Administrative difficulties encountered in making program adjustments and providing special classes.
4. General apathy toward the problem commonly expresses as, "why worry about the gifted? they'll get along all right."

An analysis of these factors would seem to indicate that the basic difficulty lies in the public attitude rather than professional practice³⁴. Now with reference to the need for special education, extensive and careful studies show that approximately 22 percent of all children are exceptional to the extent that at some time they need the benefits of specialized educational opportunities. At the same time similar studies abroad have shown that, in cities providing the **most** extensive facilities for the exceptional, only about 6 percent of the children, who differ most widely from the so-called normal and whose needs are most extreme, have been placed in special schools and classes. Sixteen

percent, or nearly three times as many as are ever placed in special schools or classes remain in the regular grades. The individualization and specialization needed by most of the children can and will continue to be provided by regular teachers in the regular grades.³⁵

Despite the foregoing evidence of gains, the gifted child continues to be grossly neglected throughout his school career. The U.S. office of Education reports that in 1948 *only* 4,080 elementary school pupils and 16,632 secondary school students were enrolled in special classes.³⁶

Methods of Education for the Gifted :

The principle that special provisions should be made for students of high ability because of their high ability is a part of the broader principle that all educational programs should be adapted to meet the needs and abilities of all students. Because the gifted children's intellectual interests and prospective futures differ from others, and because they can learn more and learn it more rapidly, the educational experience which gifted students should have in school and college ought not be identical with the experiences of other students. Some of their ~~education~~ *should be the same*, but some of it should be different — different as to *kind, quantity, and level of insight*.³⁷

The methods which may be used throughout a school system for dealing with the mentally gifted may be listed as follows :
1. Homogeneous grouping. 2. Intraclass grouping. 3. Special classes. 4. Enrichment. 5. Acceleration.³⁸

1. Homogeneous Grouping : ³⁹

Results of the studies indicate that homogeneous grouping will tend to enhance educational achievement when accompanied by provision for the abilities and needs of the groups concerned. The following general types of segregation and grouping have been tried by Dvorak and J. Rae : (1) Classification into three groups — bright, average and slow ; (2) Classification into two groups — average and above in one and slow in the other, or bright in one and average and dull pupils in the other ; and (3) No special clasification, but rather intraclass grouping.

It is impossible, however, to have complete homogeneous grouping of children. Howard Taylor gives the following principles as bases for the classification of gifted children :

1. Education should promote social adaptation.
2. Education should challenge fully the ability of the pupil.
3. Education should be within the physical and mental limits of the child.
4. Education should have depth and breadth through (enrichment) rather than height through acceleration.
5. Maturation is important as well as learning ability.
6. Education should provide for individual differences.

2. Intraclass Grouping :

It should be recognized that even though a twofold or threefold grouping is used, there will be also a great deal of intraclass grouping. The good teacher will recognize the variation in interests and abilities and will automatically conduct a sort of grouping so as to render the school work more effective. Group projects, individualized work, contract methods, and socialized recitations can be adapted to intraclass groupings. The intraclass grouping will furnish opportunities for leadership and for individual pupils to apply their knowledge, experiences, special abilities, and intelligence in a very desirable manner if the teacher knows his pupils and enlists their interest and help in planning units of experience. However, intraclass grouping, unless carefully planned and executed, tends to promote habits of laziness and superficial thinking among gifted children. The gifted child, like other children, needs materials that will challenge his abilities.⁴⁰

3. Special Classes and the Specialized High School :

Such a procedure has the advantage of presenting a situation where methods and materials suitable for gifted children can be used for enhancing educational development. Since keen minds will be helping and competing with one another, such an organization has possibilities for the development of increased initiative and motivation. There are certain inherent dangers in such an organization such as lack of democratic practices in living, lack of widespread opportunity to learn to work with and

adjust to individuals of different levels of mental ability. But this argument is specious. It is not true that individuals in a democracy live and work in groups as heterogeneous as the generality of the population. The home, the family, and the circle of friends which surround a person are often fairly homogeneous groups. On the other hand, it is certainly not true that forcing individuals of widely divergent abilities into a single class is the best method of teaching them to understand each other, or to make pleasant and mutually helpful contacts.⁴¹

4. Enrichment :⁴²

Professor Hillingworth adopted the statement by Thorndike that the education of the best thinkers should be an "education for initiative and originality". She contended that any study undertaken as "general discipline" for the minds of the rapid learners or any work which involved simply covering materials that would be required again in high school or college would be useless in achieving this objective. "The education given", she wrote, "should be such as will function specifically and uniquely in their lives. It should afford them a rich background of ideas, in terms of which they may perceive the significant of ideas, in terms of which they may perceive the significant features of their own times". Thus, the objectives of the curriculum for rapid learners differed perhaps in degree, but not essentially in kind from the objectives of a functioning curriculum for all children.

We see then that the method most often advocated is curriculum enrichment for the gifted without segregating them from ordinary class. Under ideal conditions enrichment can accomplish much, but **in these days of crowded schools**, when so many teachers are overworked, underpaid, and inadequately trained, curriculum enrichment for a few gifted in a large mixed class can't begin to solve the problem.⁴³

It is clear then that the amount of enrichment possible is usually limited by lack of special teachers, a dearth of time and inventiveness on the part of the regular teacher, and lack of facilities on the part of the school. No cases of too much enrichment have been recorded. **If** a broadly enriched program is offered the child during his first six or seven years in school he

will be challenged to build a background of experience which will stand him in good stead for future acceleration. Meanwhile, he will have an opportunity to mature socially and physically so he will not be at a loss to adjust as he moves ahead more rapidly in subsequent years.⁴⁴

5. Acceleration :

We can imagine the great unhappiness and sometimes, serious emotional maladjustment develop when a gifted child's mental tasks are too easy for him or when he invites ridicule or jealousy or even fear because of his manifest superiority.⁴⁵ It is hard for him to maintain silence when ideas press for utterance. The tendency is for many to speak at once, each striving to out-speak the others. An atmosphere of confusion is thus created unless discipline can be imposed. To **hold his tongue**, to listen quietly and respectfully to others, to speak according to some order of procedure, and to restrain disappointment at failure to be heard at all these habits seem especially difficult for gifted children to form. Only gradually do these children learn self-government in this respect.⁴⁶

Hence, it is a conservative estimate that more than half of the children with I.Q.'s of 135 or above had already mastered the school curriculum to a point two full grades beyond the one in which they were enrolled,⁴⁷ and some of them as much as three or four grades beyond. We can not put a general rule for the suitable number of years for acceleration, it depends upon the individual, sometimes it can be done safely for four years, sometimes it may be harmful for two years. Acceleration is an easy solution for the case of gifted children but it causes sometimes more troubles than what it solves. If the child be greatly accelerated in grade status, so that he is able to function intellectually with real interest, he will be misplaced in other important respects. A child of eight years graded with twelve year olds is out of his depth socially and physically, though able to do intellectual work as well as they can. These problems come out clearly when we consider that the seats and desks planned for twelve year olds will not fit him; that he will always be the last one chosen in athletic contests; that no one will know how to treat him at class parties, that the teacher will be prone to complain of his manual work such as handwriting; and that he

will be emotionally **immature** in comparison- with older class mates.⁴⁸ Moreover, the child who accelerates, may, in many cases, miss many of the basic ideas which he may lose for all his life. Then there is possibility, not only that his emotional life is threatened, but also his academic life may be, not on a concrete base.

Finally we have suggested a number of ways in which the potentialities of gifted children can be more fully realized by home and school training. In this connection we have especially emphasized the importance of curriculum enrichment, special classes, vocational guidance, and a greater amount of school acceleration.⁴⁹

The Teacher :

It is felt that a study of gifted education can not avoid speaking about teachers. As a matter of fact, all the basic philosophical consideration in the gifted education, and the curriculum can only get its meaning and value through the method and spirit of applying it, in short, the **teacher**. Upon the understanding and the desire of the teacher depends the whole system.

The point of view of the N.E.H. Policies Commission that the qualities especially needed in a teacher of gifted children are "superior intelligence, a rich fund of information; versatility of interests; an inquiring mind; ability to stimulate and inspire; modesty; a sense of social and professional responsibility; freedom from jealousy; freedom from excessive sensitivity to criticism; understanding of educational psychology, with special knowledge of psychology of the gifted children". The lack of any one of them is a distinct handicap to a teacher of the gifted.⁵⁰

In the Spring of 1953 Hunter College in the U.S.A. undertook a survey of opinion among school administrators. Study of the replies received from institutions raises these questions :

1. How far are teacher education institutions meeting the needs which superintendents regard as important ones in providing for the education of gifted children?

2. How concerned are these institutions to accept or take

leadership opportunities and responsibilities in the development of suitable programs for the education of gifted children?

3. In the preparation of teachers for gifted children should more emphasis be placed on broad background courses and less emphasis on professional preparation for handling classroom situations?

Answers to questions 1 and 2 seem for most colleges to be toward the negative. The answer to question 3 is at present almost wholly a matter of opinion and the question is one which might well be made subject for scientific evaluation by some college or colleges.⁵¹

Success and Adjustment of the Gifted :

A. **Success :** The criterion of "success" was the extent to which a subject had made use of his superior intellectual ability, little weight being given to earned income.⁵² Adult success of the group of Terman and Oden,⁵³ whether measured in terms of educational or vocational achievement, has been on the whole outstanding. Compared to a random population of similar size, the gifted group, selected in childhood solely on the basis of I.Q., has furnished many times the usual proportion of doctors, lawyers, university teachers, engineers, and leaders in business or other fields. Even the least successful 20 percent of the group don't compare badly with the average run of college graduates. The prognostic significance of superior childhood I.Q. has thus been established beyond question. Results⁵⁴ show that the incidence of mortality, ill health, insanity, and alcoholism is in each case of gifted below that for the generality of the population of this age. Their I.Q. developed, "early ripe, early rot" does not hold for these subjects. As for schooling, 90 percent entered college, 70 percent graduated. Thirty percent of the graduates were awarded honors and about two-thirds remained for graduate work. They earned a lot of their expenses and had scholarships. The follow-up of these gifted subjects has proved beyond question that tests of "general intelligence" given as early as six, eight, or ten years, tell a great deal about the ability to achieve either presently or 30 years hence. Such tests don't however, enable us to predict what direction the achievement will take, and least of all do they tell us what personality factors or what accidents of

fortune will affect the fruition of exceptional ability. Granting that both interest patterns and special aptitudes play important roles in the making of a gifted scientist, mathematician, mechanic, composer, Terman⁵⁵ is convinced that to achieve greatly in almost any field, the special talents have to be backed up by a lot of Spearman's "G".

Another factor in success : At any rate, Terman⁵⁶ has seen that intellect and achievement are far from perfectly correlated. A study by him to identify some of the nonintellectual factors that have influenced life success among the men in his gifted group. He found that his A's (he called his more successful group "A" and the other "C") tended to be more successful in high schools and college, the differences between the educational histories of the A's and C's reflect to some degree the differences in their family backgrounds. Fifty percent of the A's fathers, but 15 percent of C's were college graduates. The estimated number of books in the A homes was 50 percent greater than in the C homes. When the average age of the subject was about 16 years, more than twice as many of the C parents as of A parents had been divorced. Eighteen years before the study, the only trait on which the C's averaged as high as the A's was general health. The superiority of the A's was especially marked in four traits : prudence, self-confidence, perseverance, and desire to excel. A's also were higher in leadership, popularity, and sensitiveness to approval or disapproval. Later 80 percent of A's married, and better wives, but only 66 percent of C's. The divorce of C's was twice as high as for the A's. There are also differences in persistence in the accomplishment of ends, "integration toward goals, as contrasted with drifting", self-confidence and freedom from inferiority feelings.

Cox⁵⁷ defined her three traits for the personality of her groups :

1. Youths who achieve eminence have in general: A. Heredity above the average. B. Superior advantages in early environment.

2. Youths who achieve eminence are distinguished in childhood by behavior which indicates an unusually high I.Q.

3. Youths who achieve eminence are characterized not only

by high intellectual traits, but also by persistence of motive and effort, confidence in their abilities, and great strength or force of character.

We like to add another factor, or idea, which can help us in avoiding wrong or misleading predictions. Whatever efficiency our tests may have in discovering exceptional talents, and whatever schools may do to foster these discovered, it is the prevailing spirit of the age that will decide, by the rewards it gives or withholds, what talent will come to flower! The most favored by the current spirit of the age, are those that can contribute to science and technology. One may regret that the spirit of the time is not equally favorable to the discovery and encouragement of potential poets, prose writers, artists, statesmen and social leaders.⁵⁸

As a summary we can say that achievement in school is influenced by many things other than the sum total of intellectual abilities. The same is true of success in life.⁵⁹

The following table (after Havighurst) shows the probability of going to college for gifted. Cells 5 and 7 represent large number.

**Probability that Youth of Superior Mental Ability
will go to Post High School Institutions⁶⁰**

Socioeconomic Status	Individual Motivation		
	Low	Medium	High
High (upper and upper middle)	3 — Doubtful probability	2 — high probability	1 — very high probability
Medium (lower middle)	6 — low probability	5 — doubtful probability	4 — high probability
Low working class)	9 — very low probability	8 — low probability	7 — doubtful probability

B. Adjustment : The abilities of the gifted are superior almost in all areas, including adjustment. But it is not fair to compare the adjustment of the average individual to average individuals and the adjustment of the gifted to average individuals.

There is difference in the efforts which are made in the different cases. So, in spite of the great efforts, in comparison with average, which the gifted can make to adjust, he may not achieve adjustment like an average one who has and makes less efforts than him. The higher capacity the gifted has, the more difference and troubles in adjustment he faces.

Hollingsworth recognized also that the farther removed the child is from the average in intelligence, the more pressing his adjustment problems become. By trial-and-error experience, the highly intelligent child has to work out an adjustment, if he can, but there is likely to be noticeable difficulty if he tests above 170 I.Q.⁶¹

She realized that the friendships of any person are determined by his degree of intelligence and that congeniality between persons depends to a large extent upon their ability to think of the same things. Hence, since there are so few children at the top levels of intelligence, that is the upper 1 percent of the child population, it is very difficult for such children to find congenial friends.

These young children of extremely high intellectual acumen fail to be interested in child's play for the same reasons that in adulthood they will fail to enjoy pop-corn at amusement parks. It is futile, and probably wholly unsound psychologically, to strive to interest the child above 170 I.Q. in ring-around-the-rosy or blind-man's-bluff. Many well-meaning persons speak of such efforts as "socializing the child", but it is probably not in this way that the very gifted child can be socialized. The problem of how the play interests of these children can be realized is one that will depend largely on individual circumstances for solution.⁶² They generally try to change in the direction of more complex patterns with more remote goals. The rest of the group don't like that, and usually lose interest and drift away. Repeating this attempt at reorganization of activities, the highly gifted child finds himself marginal, if not isolated. It is not surprising, then, that in the typical elementary school we find that highly gifted children have little chance of achieving group leadership. Indeed, Iona Kerstetter's sociometric studies reveal that even when in special classes and schools for gifted children, the highly gifted are more likely to be followers than leaders,

tending to rank in the middle in terms of acceptance and rejections⁶³

However, the distribution curve of intelligence implies that a child of 140 or 150 I.Q. may find a fairly large group of associates whose mental development and range of interests are not hopelessly far behind his own, and who react to him as to a congenial playfellow, perhaps elevating him to a position of real leadership. The child of 170 or 180 I.Q. on the other hand, stands in an extremely sparsely populated region of intelligence. Only one child in thousands makes so high a score, and only one child in two hundred or more comes within such a long distance range as 140 I.Q. If he is promoted to a school grade in which the intelligence level of the pupils is at all commensurate with his own, he is likely to be immature in size, strength, and social emotional development.⁶⁴

It is in the case of the child with extraordinarily high I.Q. that the social problem is most acute. If the I.Q. is 180 the intellectual level at six is almost on a par with that of the average eleven-year-old. Physically, development on the other hand, is not likely to be accelerated more than 10 percent, and social development probably not more than 20 or 30 percent. The inevitable result is that the child of 180 I.Q. has one of the most difficult problems of social adjustment that any human being is ever called upon to meet. He speaks a language which average children of his age literally do not understand. Their stupidities render him impatient. They are interested in nothing that he is interested in.⁶⁵ It is really wise that the genius is of necessity solitary.

On 25 cases sufficiently detailed information was available to permit rating of social adjustment.⁶⁶ The subjects were rated on a fine point scale : a rating of (1) indicated marked sociability and leadership; (5) indicated serious maladjustment or almost complete lack of social intercourse. The ratings were distributed as follows :

Rating of Social Adjustment					
Rating	(1)	(2)	(3)	(4)	(5)
Number	0	2	14	7	2
Percentage	0	8	58	28	8

Conclusion :

We tried in this paper to follow the spirit of our age, the current spirit is towards sufficiency and justice. Socialist democracy is the fashion of the age, and democracy means "People's Rule". When the people are ruling there is no place for individual privilege. Neither majority nor minority have special rights. Equality is the trend of this type of society. In the history of mankind, there were rulers who were superman — also there were stupid and idiotic rulers. We are not discussing what type of rule is better; individuals are not ruling anymore. No man now is over or beneath other men — this is the fashion of the age. "People" want to use all that they possess, nobody alone owns himself; hence the gifted are not for themselves, they are gifts to all the "people". Therefore, these gifted "gifts" should be maintained, and developed to their greatest extent. Any addition to their powers, or to anybody's powers, is an addition to the "people's" powers.

- We should identify the gifted.
- We should handle the gifted with care.
- We should put the gifted in the right places.

We are not particularly helping the gifted, we are helping all the people.

The gifted will not live alone, he will live with the people, and by the people.

The people will live better, by him, with him, if he is better.

REFERENCES

- (1) Lewis Terman et al. **Special Education for the Gifted Child**. The Forty-ninth Year Book of the NSSE, Part II. (The University of Chicago Press, 1950) P. 259.
- (2) Paul Witty (Ed.). **The Gifted Child**. (New York Heath and Company, 1951) P. 2.
- (3) State Department of Public Instruction, Division of Special Education. **The Kansas Program of Special Education for Intellectually Gifted Students**. Jan., 1955.
- (4) Robert J. Havighurst et al. "A Community Youth Development Program", **Supplementary Educational Monographs**, June, 1952. N. 75, P. 2.
- (5) *Ibid*. p. 15.
- (6) Lewis M. Terman and Melita H. Oden. **Genetic Studies of the Genius: Vol. IV. The Gifted Child Grows Up**, (Stanford, University Press, 1947) P. 28.
- (7) Lewis M. Terman. "The Discovery and Encouragement of Exceptional Talent", **The American Psychologist**. Vol. 9, No. 6, 1954, p. 223.
- (8) *Ibid*. p. 225.
- (9) Karl Garrison. **The Psychology of Exceptional Children**. (Ronald Press Company, N. Y.) p. 243.
- (10) Lewis M. Terman. "The Discovery and Encouragement of Exceptional Talent", **The American Psychologist**. Vol. 9, No. 6, 1954, p. 230.
- (11) C. F. Hohan and Edgar Dale. **Encyclopedia of Ed. Research**, edited by Walter S. Monroe, 1941, p. 1328.
- (12) Herbert A. Smith. *Ibid*. p. 249.
- (13) Lewis Terman and M. Oden. **Genetic Studies of the Genius: Vol. IV. The Gifted Child Grows Up**. (Stanford, Calif., Stanford University Press, 1947) p. 45.

- (14) After : Paul Witty. **The Gifted Child** (D. C. Heath and Company, Boston, 1951) p. 2.
- (15) Karl C. Garrison. **The Psychology of Exceptional Children.** (The Ronald Press Company, N. Y., 1950) p. 204.
- (16) Merle R. Sumption, D. Norris and Lewis Terman. **Special Education for the Gifted Child.** The Forty-ninth Year Book of the National Society for the Study of Education, Part II, The Education of Exceptional Children. (The University of Chicago Press, 1950) Ch. XIV, p. 202.
- (17) Lewis Terman. "The Discovery and Encouragement of Exceptional Talent", **The American Psychologist**, Vol. 9, No. 6, 1954, p. 225.
- (18) Harvey Lehman, **Age and Achievement**, Princeton University Press, 1953.
- (19) Lewis Terman and M. Oden. **Genetic Studies of the Genius: Vol. IV. The Gifted Child Grows Up.** (Stanford, Calif., Stanford University Press, 1947) Ch. 2.
- (20) Thelma Thurstone and Katharine M. Byrne. **Mental Abilities of Children.** (Science Research Associates, Chicago, 1951) p. 40.
- (21) Merle R. Sumption, Dorothy Norris and Lewis Terman **Special Education for the Gifted Child.** The Forty-ninth Year Book of the National Society for the Study of Education, Part II, The Education of Exceptional Children. (The University of Chicago Press, 1950), p. 262.
- (22) **Ibid.**
- (23) Lewis Terman and M. Oden. **Genetic Studies of the Genius: Vol. IV. The Gifted Child Grows Up.** (Stanford, Calif. Stanford University Press, 1947) Ch. 2.
- (24) Paul A. Witty. "Contributions to the I.Q. Controversy from the Study of Superior Deviates". **School and Society**, Vol. 51, 1940, p. 504.
- (25) Lewis Terman and M. Oden. **Genetic Studies of the Genius:**

Vol. IV. The Gifted Child Grows Up. (Stanford, Calif., Stanford University Press, 1947) Ch. 2.

- (26) Merle R. Sumption, Dorothy Norris and Lewis Terman. **Special Education for the Gifted Child.** The Forty-ninth Year Book of the National Society for the Study of Education, Part II, the Education of Exceptional Children. (The University of Chicago Press, 1950) p. 263.
- (27) **Ibid.**
- (28) Austin H. Turney. **Factors other than Intelligence that Affect Success in High School.** (The University of Minnesota Press, Minneapolis. Thesis 1930).
- (29) Ernest E. Bayles. **The Theory and Practice of Teaching.** (Harper and Brothers, New York, 1950) p. 33.
- (30) John Dewey. **Democracy and Education.** (The Macmillan company, New York, 1916) p. 142.
- (31) Merle R. Sumption, Dorothy Nossis, and Lewis Terman. **Special Education for the Gifted Child.** The Forty-ninth Year Book of the National Society for the Study of Education, Part II, The Education of Exceptional Children. (The University of Chicago Press, 1950) p. 261.
- (32) State Department of Public Instruction, Division of Special Education, The Kansas Program of Special Education for Intellectually gifted Students, Jan. 1, 1955, p. 2.
- (33) Lewis Terman. "The Discovery and Encouragement of Exceptional Talent", **The American Psychologist**, Vol. 9, No. 6, 1954, p. 227.
- (34) M. R. Sumption. "Let the Community Plan the Program for Educating Gifted Children". **Exceptional Children**. October, 1953.
- (35) John J. Lee. "Landmark on the Highway of Social Advance". **Exceptional Children**. October, 1953.
- (36) Paul Witty. **The Gifted Child.** (Heath and Company, New York, 1951). p. 207.

- (37) State Department of Public Instruction, Division of Special Education. **The Kansas Program of Special Education for Intellectually Gifted Students.** (Jan. 1, 1955).
- (38) Earl C. Garrison. **The Psychology of Exceptional Children.** (The Ronald Press Company, N. Y., 1950) p. 251.
- (39) **Ibid.**
- (40) **Ibid** p. 254.
- (41) Paul Witty. **The Gifted Child.** (Heath and Company, New York, 1951) p. 218.
- (42) Marian C. Pritchard. The Enrichment Curr. For Rapid Learners at Public School 500 Speyer School. Paul Witty (ed.) **The Gifted Child.** (Heath and Company, New York, 1951) p. 60.
- (43) Lewis Terman. "The Discovery and Encouragement of Exceptional Talent", **The American Psychologist**, Vol. 9, No. 6, 1954, p. 227.
- (44) Merle R. Sumption, Dorothy Norris, and Lewis Terman. **Special Education for the Gifted Child.** The Forty-ninth Year Book of the National Society for the Study of Education, Part II. The Education of Exceptional Children. (The University of Chicago Press, 1950) p. 278.
- (45) Lewis Terman and M. Oden. **Genetic Study of the Genius: Vol. IV. The Gifted Child Grows Up.** (Stanford, Calif., Stanford University Press, 1947) Ch. 2.
- (46) Leta Stetter Hollingworth. **Children Above 180 I.Q.** (World Book Company, N. Y.).
- (47) Lewis Terman and M. Oden. **Genetic Study of the Genius: Vol. IV. The Gifted Child Grows Up.** (Stanford University Press, Stanford, Calif., 1947) p. 28.
- (48) Leta Stetter Hollingworth. **Children Above 180 I.Q.** (World Book Company, New York) Ch. 20.
- (49) Lewis Terman and M. Oden. **Genetic Study of the Genius:**

- Vol. IV. The Gifted Child Grows Up.** (Stanford, Calif. Stanford Press, 1947) p. 45.
- (50) Paul Witty. **The Gifted Child.** (Heath and Company, New York, 1951) p. 227.
 - (51) Frank T. Wilson. "Preparation for Teachers of Gifted Children in the U.S." **Exceptional Children**, Nov., 1953, Vol. 20.
 - (52) Lewis M. Terman. "The Discovery and Encouragement of Exceptional Talent", **The American Psychologist**, Vol. 9, No. 6, 1954, p. 229.
 - (53) Lewis Terman and M. Oden. **Genetic Study of the Genius: Vol. IV. The Gifted Child Grows Up.** (Stanford, Calif., Stanford University Press, 1947) p. 46.
 - (54) Lewis Terman. "The Discovery and Encouragement of Exceptional Talent", **The American Psychologist**, Vol. 9, No. 6, 1954, p. 223.
 - (55) **Ibid.** p. 224.
 - (56) **Ibid.** p. 230.
 - (57) C. M. Cox. **The Early Mental Traits of Three Hundred Geniuses.** (Vol. 2 of **Genetic Studies of the Genius.** Stanford University Press) p. 215.
 - (58) Lewis Terman. "The Discovery and Encouragement of Exceptional Talent". **The American Psychologist**, Vol. 9, 1954, p. 227.
 - (59) **Ibid.** p. 228.
 - (60) Robert Havighurst et al. "A Community Youth Development Program", **Supplementary Educational Monographs.** June, 1952, No. 75, p. 24.
 - (61) Leta S. Hollingworth. **Children Above 180 I.Q.** (World Book Company, New York) p. 273.
 - (62) **Ibid.** p. 275.
 - (63) Paul Witty. **The Gifted Child.** (D. C. Heath and Company, Boston, 1951) p. 102.

- (64) Burks, Jensen, Lewis Terman, et al. **Genetic Studies of Genius, Vol. III. The Promise of Youth.** (Stanford University Press, 1930) p. 173.
- (65) *Ibid.* p.p. 264-265.
- (66) Zorbaugh, et al. **The Gifted Children**, edited by Paul Witty (D. C. Heath and Company, Boston, 1951) p.p. 96-97.
-

